المحاضرة الأولى (أسس البحث الاجتماعي تصور جديد للبحث الاجتماعي)

تمهيد :

من المنطقي قبل الدخول في تفاصيل موضوعات تصميم البحث الاجتماعي والتعمق في فهم الاعتبارات المنهجية والضوابط التي يتطلبها وضع التصميم المناسب مع كل موضوع يختار للبحث ، والسير في إجراءات تنفيذه، أن نمهد لذلك بالتعرف على مختلف المفهومات الأساسية التي يتردد استخدامها عند التعبير عن الأفكار المتعلقة بالبحث من حيث تصميمه وإجراءاته، وخطواته .ويرجع حرصنا على تخصيص فصل خاص نتناول فيه بالتوضيح والتحليل والفهم هذه المجموعة الأساسية من المفهومات إلي عدة اعتبارات، الاعتبار الأول هو أن هذا التمهيد ضروري حتى يتسنى لنا أن نتقدم في طريقنا صوب هدفنا، وهو الوقوف على كيفية وضع التصميم المنهجي المناسب للموضوع الذى نختاره للبحث الاجتماعي .

أما الاعتبار الثاني فمؤداه أننا إذا كنا في نطاق التعمق في مجال متخصص وهو البحث الاجتماعي ،فلا أقل أن نتسلح بالوسائل والأساليب التي تعيننا علي فهم الأفكار والإحاطة بالمعرفة المتوافرة في هذا المجال ،وتقف المفهومات في مقدمة هذه الوسائل والأساليب في تبادل الأفكار والتقاط مضمون الموضوعات المطروحة في هذا النطاق المتخصص .

ويشير الاعتبار الثالث إلي أهمية هذه المفهومات باعتبار بعضها وسائل تفيد في الوصول إلى المعرفة وتحقيق أهداف العمل العلمي والنظر إلي بعضها الآخر علي أنها أساليب للتعبير عن هذه المعرفة العلمية والأهداف التي تم التوصل إليها .ومن هنا قسمنا الفصل الحالي إلي جزئيين ؛ الجزء الأول يتعلق بمجموعة مفهومات البحث ، والتصميم والاستراتيجية والمنهج والطريقة والأداة ، والجزء الثاني ، يتناول مجموعة مفهومات المفهوم العلمي والفرض ، والنظرية باعتبار المجموعة الأولي هي وسائل الوصول إلي المعرفة العلمية والثانية هي أساليب للتعبير عنها . وركزت التحليل بوجه خاص على المفهوم الحديث للبحث الاجتماعي والخصائص التي يتميز بها ، ثم تصميم واستراتيجية البحث الاجتماعي وأخيرا أهمية النظرية في البحث الاجتماعي .

أولاً : المفهوم الحديث للبحث الاجتماعي

يكتفي البعض بتحديد المقصود بالبحث الاجتماعي من خلال الاقتصار علي المعني البسيط للبحث، والقول بأن عملية البحث تتم في أبسط صورها في حياتنا اليومية بأكثر من مظهر وشكل.، فعندما تصادفنا بعض المشكلات ونحاول الوصول إلى حلول لها بطريقة أو أخري ،فإننا في هذه الحالة نقوم بعملية لا تختلف في شكلها عن عملية البحث الاجتماعي، بحيث تزداد قدرتنا علي حل المشاكل اليومية كلما زادت وتعددت المواقف التي نجابهها وتتطلب البحث عن حل لها . ويعتبر البحث بهذا المعني البسيط بمثابة محاولة لحل مشكلة ،وبقدر زيادة المواقف المشكلة التي تحتاج إلي بحث تنمو قدرتنا علي إجراء البحث والتوصل إلي حلول سلمية ما أمكن ذلك.

ولكن عندما وجد البعض الآخر من المهتمين والمشتغلين بالبحث الاجتماعي أن هذا التعريف للبحث الاجتماعي يمتاز بأنه تعريف شكلي لا يمس مضمون البحث وجوهره، فكرو في تقديم تعريف آخر دقيق علي حد تعبيرهم ،ومن هنا تعددت محاولتهم للوصول إلي درجة معها يصعب الإحاطة بكل ما أسهموا به في هذا الصدد.

ومع هذا يمكن أن يساعدنا تصنيف هذه المحاولات والاستشهاد بأمثلة منها على التوصل إلي المقصود بالبحث الاجتماعي .فالملاحظ أن بعض هذه التعريفات كانت تهتم بتوضيح المقصود به من خلال التركيز علي أهدافه، بينما اهتم بعضها الآخر بالتركيز علي إجراءاته وانصراف بعضها الثالث نحو بيان المقصود به باعتباره سلوكا له خصائص مميزه. ومن هذه التعريفات الاتي :

- تعريف البحث الاجتماعي من خلال أهدافه:
- تعريف البحث الاجتماعي من خلال إجراءاته ومنهجه:
- تعريف البحث الاجتماعي باعتباره سلوكا:

أ- تعريف البحث الاجتماعي من خلال أهدافه:

فقد يحدد البعض البحث الاجتماعي باختصار علي أنه مسئولية عملية تعتمد على طرق منسقه ومنطقية في تحقيق الأهداف التالية :

١- اكتشاف وقائع جديدة أو التحقق من وقائع قديمة.
٢- تحليل تتابع هذه الوقائع وعلاقاتها المتبادلة ،وتفسيراتها العلمية أو السببية والتي تم اشتقاقها من إطار مرجعي أنظري مناسب.
٣- تنمية أدوات علمية جديدة ومفاهيم ونظريات قد تعين في الدراسة الثابتة والصادقة للسلوك الإنساني.

وهكذا يتمثل الهدف الأول للبحث سواء البعيد أو المباشر في اكتشاف وتحقيق فهم السلوك الإنساني والحياة الاجتماعية، حتى تزيد قدرتنا على التحكم فيها. كما يحدد البعض الآخر البحث الاجتماعي باعتباره: عملية تقصي أو فحص دقيقة للوصول إلي حقائق أو قواعد عامة والتحقق منها. وكذلك، ينظر إليه علي أنه نشاط إنساني مقصود وموجه نحو غايات أو أهداف معينة سواء أكلن هذا النشاط يتم عن وعي أو قصد أو بدون وعي أو قصد.

ب - تعريف البحث الاجتماعي من خلال إجراءاته ومنهجه:

ويحدد البعض الثالث البحث الاجتماعي بأنه : عبارة عن منهج منسق لاكتشاف وتحليل وتصور الحياة الاجتماعية بهدف تطوير وتصحيح أو التحقق من المعرفة سواء أكانت هذه المعرفة تساعد في بناء نظرية أو في تطبيق أحد النتائج .

والبحث الاجتماعي في تعريف رابع عبارة عن وسيلة لغاية ما بمعني أنها تهدف إلي حل مشكلة - عملية أو منهجية .وهي تهدف إلي كشف العلاقات بين البيانات المتراكمة أو التحقق من صدقها ويمكن السير في هذه الخطوات فقط بواسطة المنهج العلمي بمعني التطبيق المنطقي والمنسق لأسس العلم علي التساؤلات العامة والشاملة للدراسة ،واستخدام الطرق العلمية التي تمدنا بالأدوات العلمية والإجراءات الخاصة و والوسائل الفنية التي تهدف إلى توفير البيانات وترتيبها قبل معالجتها منطقيا وإحصائيا.

ج -تعريف البحث الاجتماعي باعتباره سلوكا:

ويحدد البعض الأخير البحث الاجتماعي باعتباره سلوكا مناسبا يتمسك بقيم معينة في علاقات الباحث بأخباريه وبمن يمدنه بالبيانات .ويحتاج الباحث بالإضافة إلي تدريبه وخبرته علي فنون العلم والبحث إلي أن يكون متميزا بالحساسية للعلاقات الإنسانية.

المفهوم الحديث للبحث الاجتماعي :

ولكن لما كانت هذه التعريفات السابقة والتي تزعم الدقة تركز كل منها علي جانب دون آخر من جوانب البحث الاجتماعي ،فتوجه بعضها الأفكار نحو أهدافه، ويهتم بعضها بإجراءاته ومنهجه، وتنصرف غيرها نحو توضيح سلوكيات الباحث ومميزاته برزت الحاجة إلي تعمق تراث البحث الاجتماعي الحديث بحثا عن تعريف أكثر وضوحا وشمولا من تلك المحاولات السابقة

ولعل أول خطوة يجب أن نخطوها في سبيل الوصول إلي هذا الهدف ،أن نشير إلي تلك الانطباعات الخاطئة التي قد تعلق بذهن الطلاب أو المشتغلين بالبحث الاجتماعي وهي:

أ- قد يظن البعض أن عملية جمع عدد قليل من الوقائع والبيانات تم تسجليها كتابة في ورقة أو عرضها بطريقة موثقة تعتبر بمثابة بحثا. ولكن مثل هذا العمل بالطبع لا يزيد علي مجرد عملية الحصول على وقائع أو بيانات تم توصيلها للآخرين .

ب- كما قد يظن البعض الثاني خطأ أيضا عملية نقل المعلومات من المؤلفات أو المراجع ثم عرضها والإشارة إلى المصدر الذى نقل عنها في الهامش ، تعتبر من قبيل البحث ، ولكن هذا العمل لا يزيد في شيء عن مجرد نقل المعلومات.

ج- بل قد يظن فريق ثالث أنه يمكن أن نطلق على النتيجة النهائية لعملية نقل الحقائق وكتابتها في بعض الأوراق تقرير بحث . غير أنه ربما كان ذلك العمل يعد بمثابة تقريراً أو حتى وثيقة ولكنه ليس بحثا بالمرة .

ومراد هذه التصورات الخاطئة حول البحث راجع إلى أن أصحاب هذه التصورات لم يكابدوا مشقة التفكير في الحقائق التي قاموا بجمعها أو نقلها ، وإنما نظروا إلى هذه الحقائق باعتبارها أهدافاً في حد ذاتها ، والواقع ان عملية جمع الحقائق ما هي إلا أحد العناصر المكونة لعملية شاملة هدفها النهائي الكشف عن دلالة ومغزى هذه الوقائع من أجل اكتشاف الحقيقة .

إذ يسعي البحث الاجتماعي بعبارة أخري إلى تفسير الظواهر الاجتماعية التي لم يتم تفسيرها بعد ، إلى توضيح أو تجلية تلك المشكوك فيها ، وتصحيح الحقائق المتعلقة بالحياة الاجتماعية التي أسئ إدراكها أو فهمها.

كما أن لباحث لا ينظر إلى حقائقه باعتبارها ظواهر منفصلة أو منعزلة وإنما ينظر إليها علي أنها ترتبط ارتباطا وثيقا وتتشابك مع بعضها الآخر .وهذا ما عبر عنه كونCohen قائلا:

إن الحقائق لا يمكن أن تكون مفهومة أو واضحة إلا إذا ربطت بحقائق أخرى وأوضحت علي أنها جانب من نسق أكبر .وما نبه إليه أيضا بافلوف Pavlov قائلا لا تجمع الحقائق لمجرد جمعها ،وإنما حاول أن تتعمق سر حدوثها والعلاقات المتبادلة بينها ،ومثل هذا النوع من البحث لا يمكن إنجازه بدون منهج منسق وأسلوب متقن في العمل .

كما لا يعتقد الباحث في أن الحقائق والأرقام تتحدث عن نفسها وإنما هي أمور معقدة للغاية وغامضة ،وفي حاجة إلي تفسير وتحليل .

وهكذا ، فالبحث الاجتماعي أولا وقبل كل شيء طريقة في التفكير ، وأسلوب للنظر إلى الوقائع ، يصبح معه معني المعطيات التي تم جمعها واضحا في ذهن الباحث . كما أنه أسلوب يحل به الأفراد المشكلات الصعبة فمحاولتهم تجاوز حدود الجهل الإنساني . وهذا الأسلوب يتميز بعدد من الخصائص ، ويحتاج الوقوف عليه تناولها بالتفصيل علي النحو التالي :

<u>ثانيا :خصائص عملية البحث الاجتماعي :</u>

١- يبدأ البحث بسؤال في ذهن الباحث
٢- البحث يتطلب خطة
٣- يحتاج البحث إلي عرض مشكلته في تعبير واضح
٤- يعالج البحث المشكلة الرئيسية من خلال مجموعة مشكلات فرعية
٥- يتلمس البحث وجهته مستعينا بفروض مناسبة
٦- البحث يتناول وقائع ويوضح معانيها
٧- البحث عملية دائرية

للبحث عدة خصائص منفصلة أو متميزة ، تظهر تباعا بحيث قد تبدو في نظر الباحث علي أنها عدد من الخطوات ، يجب أن نكون علي دراية تامة بها ،وأن نأخذ بها جميعا لنقف علي المدخل الخاص في اكتشاف الحقيقة والذي نطلق عليه اسم البحث الاجتماعي.

١ـ يبدأ البحث بسؤال في ذهن الباحث:

فالإنسان حيوان محب للاستطلاع . وهو ينظر أينما يوجد إلي الظواهر التي تثير حبه للاستطلاع، والتي تثير لديه الدهشة والتأمل وتجعله يطرح التساؤلات المناسبة فإنه يستطيع أن يخلق المناخ المواتي ،ويكون الاستجابة المعرفية للوقائع الهامة التي تعد بمثابة مطلبا أساسيا للبحث ذاته، لأن البحث بنشاء عن سؤال طرح بطريقه ذكية في وجود ظاهرة ما قد لاحظها الباحث ووجد أنها تثير في نفسه الحيرة. ويجد الباحث من خلال طرحه للأسئلة المناسبة ما يعينه علي تحديد وجهته في مطلبه من أجل الحقيقة.

فانظر حولك حيث المواقف المشكلة والمحيرة التي تضطرك إلي وضع الأسئلة مثل :كيف ؟وما هو سبب ذلك ؟.وما الذي يعنيه كل ذلك ؟.هذا مثلا. نجد موقفنا من مواقف الحياة الواقعية المألوفة ،فيه بدأ طفلان من نفس الحي دراستهما والتحقنا بنفس الفصل الدراسي ،وأخذا يلتقيان دروسهما علي نفس المدرس. أحدهما تعلم كيف يقرأ وتقدم بسرعة ،والآخر وجد صعوبة كبري في القراءة...فلماذا؟ ما الذي نعرفه حقا حول التعلم الإنساني وعملية القراءة ؟وما الذي لا نعرفه حول التعلم الإنساني ؟.وما هو أصل العجز القراءة في المراحل المبكرة من الدراسة ؟.هذه أمثلة على التساؤلات التي تكشف حاجة الإنسان إلى المعرفة. وهي أيضا تساؤلات تشير إلي نقطة الانطلاق في البحث ،والتي من خلالها يمكن أن تكتشف الإجابات في ضوء الوقائع .وهكذا، يبدأ البحث ،بعقل متسائل وتواق إلي المعرفة في وجود وقائع محيرة ومشكلة.

٢ـ البحث يتطلب خطة:

ليس البحث بمثابة أمل ساذج في أنك ستكشف علي نحو ما وبطريقة معينة الوقائع التي تحتاجها أو الحقيقة التي تسعي وراءها. وهو ليس نشاطا لا هدف من ورائه أو غير موجه ،كما ليس مجرد النظر إلي شيء ما بأمل التوصل إلى حل لمشكلتك ،وإنما يتطلب البحث أكثر من ذلك ،ونعني أنه يحتاج إلي خطة محددة وتصميم وتوجيه.

ويجب أن تسير عملية البحث برمتها في اتجاه هدف محدد ابتداء من الشعور بالحاجة إلى المعرفة حتي النقطة التي تتحدث فيها الوقائع ذات الصلة إلي الباحث ،وتمده بإجابة. وبين هذين الطرفين يجب أن تكون هناك قضية واضحة تعبر عن مشكلة البحث ،وتطوير للفروض، وتصميم لجمع وتفسير الوقائع ،وفي النهاية اختبار للفروض، والتوصل إلى النتائج المستندة إلى الوقائع .وهكذا ، فإن البحث يعد إجراءً منظما ومخططا ومنطقيا في تصميمه.

٣ـ يحتاج البحث إلي عرض مشكلته في تعبير واضح :

يبدأ البحث الناجح بعبارة واضحة وبسيطة تعبر عن مشكلته. ويجب بلورة التساؤلات المحيرة والتي لم يجب عنها ويجد الباحث أنها أساسية لموقف البحث منذ بداية العمل في البحث في قضية تامة ودقيقة من ناحية القواعد اللغوية لتحدد مقدما وبوضوح ما الذى يسعى الباحث إلي اكتشافه .والسبب في ذلك واضح ،إذ قبل أن نبدأ يجب أن نفهم المشكلة وننظر إليها بطريقة موضوعية، كما يجب أن ندرك بوضوح ما الذي نحاول بحثه ـوسوف نتحدث أكثر عن مشكلة البحث في فصل لاحق ،ولكن ضرورة التعبير عن المشكلة المحددة في قضية دقيقة يهدف البحث إلي حلها يجب ألا نقلل من أهمية التأكيد عليها.

٤ ـ يعالج البحث المشكلة الرئيسية من خلال مجموعة مشكلات فرعية:

تنطوي معظم المشكلات التي يمكن إجراء بحوث حولها علي مجالات مشكلة أخري متباينة أقل أهمية وتأثيرا. ونتيجة لأن الكثير من الباحثين لا يأخذون الوقت الكافي ولا المخاطرة في عزل المشكلات الفرعية في إطار المشكلة الرئيسية ،يصبح تحديدهم لمشروع بحثهم مرهقا، وغير علمي، وصعب التناول لضخامته. ولذلك، كان من المناسب عمليا أن نقسم هذه المشكلة الأساسية إلى مشكلات فرعية مناسبة ،بحيث أنه عند حل كل واحد منها فإنه سوف يترتب على ذلك حل مشكلة البحث الأساسية.

ولتوضح ذلك نسوق المثال :لقد أصبح للجامعة نظاما تعليميا متغيرا ونام علي نحو سريع خلال ثلاثة الأرباع الماضية من هذا القرن.

وكان ينظر إليها في الأصل علي أنها مدرسة عليا تهتم بالعلوم الاجتماعية، ولكنها غيرت اهتمامها وما تركز عليه خلال هذه السنوات .والآن أصبح لهذه الجامعة نظاما تعليميا مغايرا تماما لما كان يتصوره لها الآباء المؤسسون. ويستند هذا النظام التعليمي إلي فلسفة واهتمام رئيسي وجوهري للوسط التعليمي الذي وجدت فيه .لقد أراد احد الطلاب التعرف علي الفلسفة التعليمية الأساسية للجامعة المذكورة وهو هذا يعبر عما يريده صراحة ،ومن المسائل المعروفة ضمنا أن التاريخ يؤثر في بناء وسياسات الجامعة والطريقة التي تعمل بها .وأكثر من ذلك ،كانت النتائج المتراكمة عن أحداث الماضي هي المسئولية عن التغير الجوهري في اتجاه الجامعة .

وإن كانت القضية المحورية في هذا البحث قد بدأت في الظهور بالنظر إليها من هذا المنظور الشامل إلا أنه يمكن لنا أن نعيد صياغة الموضوعات مرة ثانية ونعالج المشكلة الرئيسية المتعلقة بالفلسفة التعليمية لهذه الجامعة علي نحو أكثر فعالية من خلال النظر أولا إلي بعض الجوانب الأقل أو المشكلات الفرعية في إطار هذه المشكلة الرئيسية :

١- ما الفلسفة التعليمية الأصلية التي أخذ بها المؤسسون والإدارة المبكرة للجامعة؟
٢- ما الأحداث الرئيسية التي كانت سببا في تغير تلك الفلسفة ؟
٣- ما الفلسفة التعليمية الحالية للجامعة؟

وسوف تمدنا هذه المشكلات الثلاث الفرعية والتي يجاب عليها في ضوء المعطيات المستخلصة من الوثائق ومنشورات وكتابات الجامعة وغيرها من المصادر المماثلة بالإجابة علي المشكلة الرئيسية للبحث.

٥-يتلمس البحث وجهته مستعينا بفروض مناسبة:

وبعد تحيد المشكلة والمشكلات الفرعية المرتبطة بها ،يعتبر عن كل واحد من المشكلات الفرعية في صورة أبنية فرضية منطقية تعرف باسم الفروض HYPOTHESIS .فالفروض عبارة عن قضية منطقية أو تخمين معقول ،أو هو علاقة مدروسة قد توجه أو تحدد وجهة الفكر فيما يتعلق بالمشكلة ،الأمر الذى يساعدنا في حلها .

وتعد الفروض بمثابة جانبا من خبرتنا في الحياة اليومية تلك التي نستعين بها في معالجة مشكلات الحياة اليومية .وهي تمثل النشاط الطبيعي لعقلنا البشري .إن شيئا ما يحدث فنحاول في الحال تفسير سبب حدوث هذا الشيء بواسطة سلسة من التخمينات، والافتراضات أو الاستنتاجات المنطقية .ونحن عندما نفعل ذلك فإننا نقوم بعملية وضع فرض ،فمثلا ،إذا قمت بإدارة مفتاح سيارتك ،وأضاءت السيارة دون أن يعمل موتورها .هنا أنت تواجه مشكلة تحتاج لبحث .ما الخطأ الذى حدث ؟لماذا لم تتحرك السيارة ؟فأنت تبدأ الآن سلسة من التخمينات المعقولة لتحديد سبب هذه المشكلة .

<u>وبعبارة أخرى ،قد تفترض الاحتمالات العديدة التالية:</u>

١- ليس هناك بنزين في الخزان.
٢- شمعات الاشتعال قد عطلت.
٣- ترسب شوائب في موزع الكهرباء تسببت في هذا العطل .

وكل واحد من هذه الافتراضات يوجهنا في البحث عن الوقائع التي تحدد السبب الحقيقي لماذا لم يعمل موتور السيارة. عند هذه النقطة نبدأ في جمع الوقائع ،فقد نقوم بمراجعة وعاء البنزين ونجده ممتلأ حتي منتصفه في هذه الحالة لا يصح الفرض الأول .ولما كان الموتور قد أعيدت صيانته وتم تركيب شمعات احتراق جديدة ، فهذا معناه أن الفرض الثاني ليس له أساس من الصحة .عندئذ قد تنظر من شباك السيارة ،وتلاحظ أن السيارات الأخرى قد أزيل من فوقها آثار الرطوبة وضباب الصبح الباكر .هنا قد يؤدي بنا الفرض الثالث إلي حل مشكلة توقف السيارة .ولا اختبار هذا الفرض أرفع غطاء الموزع وقم بتنظيف ما ترسب داخله ثم ارجع مرة ثانية .هنا تبدأ السيارة في الحرك، وهذا ما يؤيد الفرض الثالث. وبالمثل عندما تواجهك مشكلة للبحث ضع تخمينات مدروسة تساعدك في اكتشاف الحل وإعطائك الوجهة التي تسير فيها بحثا عن الوقائع

٦ـ البحث يتناول وقائع ويوضح معانيها:

وبعد عزل المشكلة وتقسيمها إلى مشكلات فرعية مناسبة ،ووضع الفروض التي سوف تشير إلى الوجهة التي قد نجد فيها الوقائع ،فإن الخطوة التالية هي جمع الوقائع التي تبدو أن لها صلة بالمشكلة ثم تنظيمها في مجموعات ذات معني تمكن من تفسيرها.

وسوف نناقش طرق مثل هذا التنظيم في الفصل قبل الأخير .فالوقائع ،والأحداث والملاحظات هي في حد ذاتها مجرد وقائع وأحداث وملاحظات ولا تزيد على ذلك شيئا. إلا أنها تنطوي علي معان ممكنة، وتعتمد دلالة هذه المعطيات بشكل متكرر على الطريقة التي تنظر بها إلي الوقائع وعلي الأسلوب الذي تؤخذ به المعطيات في الاعتبار .وغالبا ما يستخلص الباحثون المختلفون معان مغايرة تماما من نفس مجموعة المعطيات ،لأنه ليس هناك قاعدة واحدة توجهنا نحو التفسير الصحيح .

فقد يدرس باحثان من علماء التاريخ نفس السلسة من الأحداث ،وقد يكونا علي درجة مساوية من الكفاية والأمانة في استجاباتهم. ولكن احدهم قد يستخلص من وقائع التاريخ متبعا نفس الأسلوب معان مغايرة تماما لما قد يصل الأخير إليه من تفسيرات فإيهما أصوب ؟ربما كان هما الاثنان ،أو ربما لم يكن واحد منهما علي صواب .

٧ـ البحث عملية دائرية:

تبدأ دائرة البحث بعقل ممتلئ بالتساؤل يواجه موقفا محيرا أو مشكلا .ولكي يرى الباحث هدفه بوضوح يقوم بعزل المشكلة المحورية ،قد يقسم بعد ذلك المشكلة المحورية إلى مشكلات فرعية التي تمثل كل واحدة جزاء متكاملا في الكل الأكبر وبحيث تكون في مجموعها مشكلة البحث الأساسية.

وما أطلقت عليه اسم البيئة التي يظهر عنها المشكلة التي يمكن أن نطلق عليها اسما أكثر مناسبة هو عالم البحث research universeوهو العالم الذي يحتمل أن يمدنا بالوقائع أكثر من غيره. وينقب الباحث داخل هذا العالم عن تلك الوقائع الخاصة التي تبدو أنها وثيقة الصلة بحل المشكلة والمشكلات الفرعية لها. ويعمل بناء الفروض التجريبية tentative علي تسهيل بحثه ،لأنها تشير إلي الوجهة التي يجد فيها الباحث الوقائع المناسبة .ثم يقوم بتنظيم الوقائع .ويساعد هذا الاكتشاف بدوره علي حل المشكلة .ويجيب هذا الحل عندئذ علي السؤال الذي أدي إلى قيام البحث في الأصل. وهكذا فإن الدائرة تكتمل وتلك هي الصيغة التي تميز كل البحوث الأساسية.

ويمكن التعبير عن البحث بالشكل التالي .وقد تنظر إلى هذا الشكل علي أنه حلزوني helixأكثر منه دائري. لأنه في العملية الحلزونية لحل المشكلات سنظل نطرح مشكلات أكثر ،ونتيجة ذلك يستمر البحث في السير قدما إلي الأمام. وبالنظر إلى البحث بهذه الطريقة نجده يمتاز بخاصية دينامية، بعكس النظرة القديمة والشائعة للبحث باعتباره عملية استاتيكية .

ثالثاً : تصميم واستراتيجية البحث الاجتماعى

يشير المعنى الحديث للبحث الاجتماعي وخصائصه علي النحو الذي أوضحناه سلفا، إلي أن البحث يحتاج إلي خطة وإجراء منظم ومخطط، هذا فضلا عن مفهومات يستعين بها في التعبير عن مشكلته بوضوح ،وفروض يتلمس بها وجهته فيجمع وقائع تحتاج في النهاية إلي تفسير استنادا إلي نظريه واضحة. الأمر الذي يتطلب قبل التعمق في البحث الاجتماعي من هذه النواحي إلقاء الضوء علي المقصود بتصميم البحث واستراتيجية البحث الاجتماعي أولا وذلك للاعتبارات التي أشرنا إليها من قبل .

١- تصميم البحث

لاشك أن الاعتماد علي المثال في توضيح المقصود بتصميم البحث يفيد أكثر من أي شيء آخر في هذا الصدد .ومثالنا الذي نعتمد عليه في ذلك ،نأخذه عن ميدان معروف لنا جميعا وهو ميدان العمارة ،إذ يذكر كل منا أنه كانت هناك رغبة لإقامة بناء معماري . وليكن مسجدا أو مستشفى أو حتى عمارة سكنية ،فإن أول شيء يكون مطلوبا لإقامة هذا البناء، هو توقير التصميم الذي يمكن علي أساسه إخراج هذا البناء إلى حيز الوجود.

وعادة ما يقوم المهندس المعماري بوضع التصميم المناسب مع البناء المطلوب، الذي يضم كافة الاعتبارات اللازمة لإقامة هذا البناء من حيث الشكل والحجم والمساحة وعدد الأدوار ،وتوزيع الغرف علي الأدوار ،الفتحات والمداخل والمساقط وما إليها ،بحيث لا تواجه عملية تنفيذه عقبة لم تكن في الحسبان. وهذا معناه أن التصميم عبارة عن خطة يتصورها الشخص وتنطوي علي عناصر وإجراءات لازمة للوصول إلى الهدف من هذا التصميم ،وتأخذ في اعتبارها كافة الاحتمالات التي قد تحول دون الوصول إلي هذا الهدف عند التنفيذ .ولا يخرج تصميم البحث عن هذا المضمون ،بحيث نجد أن الباحث يضطر إلى وضع تصميم منهجي يفيده في تحقيق هدف بحثه، ومن هنا كان التصميم وسيلة للوصول إلي أهداف البحوث من إجابة علي تساؤلات، أو تحقق من فرض ،أوحل لمشكلة. ولذلك كان لابد قبل التفكير في وضع تصميم للبحث ،أن نحدد الهدف من البحث المراد وضع تصميم له ،وبناء علي ذلك نشرع في وضع التصميم المنهجي ،الذي يحدد بالتالي كافة الإجراءات والاعتبارات والاحتمالات اللازمة للوصول إلي هذا الهدف .

البحث عملية دائرية

١- يبدأ البحث بسؤال ليس له إجابة في زمن الباحث
٢- يحدد البحث هدفه في قضية واضحة تعبر عن مشكلة
٣- يقسم البحث المشكلة إلى مشكلات فرعية تبحث كل منها عن موجة من خلال فرض مناسب
٤- يضع البحث حلول مبدئية للمشكلة من خلال فروض قياسية توجه البحث نحو الوقائع
٥- يبحث البحث عن الوقائع مسترشداً بالفروض ومنها نحو المشكلة تجمع الوقائع وتنظم
٦- يفسر البحث معنى الوقائع التي تؤدي إلى حل المشكلة وهكذا يثبت أو يرفض الفروض ويقدم إجابة السؤال الذى يبدأ البحث

٢- استراتيجية البحث: research strategy

تزايد استخدام مصطلح استراتيجية البحث بين المشتغلين بالبحث الاجتماعي أخيرا.، لأنهم قد وجدوا من المفيد للباحث أن يشبه البحث العلمي بمعركة ضد المجهول، ولأنه من شأن هذا التشبيه أن يوحي بسلسلة من التشبيهات الجزئية التي تعود علي البحث بفائدة أكيدة. من ذلك مثلا حشد جميع مصادر المعلومات التي نمس جبهة البحث، وإعداد الأدوات اللازمة، والتركيز علي قطاع محدود في الميدان، والالتفاف حول مناطق المقاومة بدلا من الإصرار علي مواجهتها من الزاوية العسيرة، وعندما يفلح الباحث في أن يفتح ثغرة في جبهة المقاومة يحسن به أن يسرع بالتقدم إلي رقعة فسيحة مؤثرا التوسع في البداية علي أن يأتي التعمق في مرحلة تاليه، وهذا صحيح في البحوث البحتة والتطبيقية علي السواء.

ومن خلال الإطار العام لهذه التشبيهات، يميز البعض بين نوعين من الخطط يضطر الباحث عادة إلي استخدامها في البحث الواحد كل في الموضوع الملائم. فهناك الخطط الاستراتيجية بعيدة المدى ،وهناك الخطط التكتيكية قصيرة المدى، الأولي تعين المراحل الكبرى للبحث ،والمعالم الرئيسية لنوع المعلومات المطلوبة في كل مرحلة، ونوع الأدوات اللازمة لجمع هذه المعلومات ونوع التحليلات الكمية أو الكيفية التي سوف تجري عليها هذه الخطط الاستراتيجية يشترط فيها أن تحدد منذ البداية تجديدا واضحا، مع قسط المرونة يسمح باستحداث قرارات وتوجيهات تمس التفاصيل دون الجوهر. أما الخطط التكتيكية فهي تنشأ لمواجهة مواقف لم تكن متوقعة والتصرف فيها بما يناسبها ولا يتعارض مع جوهر الخطة الاستراتيجية. والأصل في الخطط التكتيكية المرونة وحسن التصرف في اللحظة الحرجة علي ضوء خبرات الباحث السابقة والقدرة على ابتكار الحلول غير المسبوقة.

كما أننا لو أمعنا النظر فيما توافر تحت يدنا من كتابات في هذا الميدان ، نلاحظ أن هذه التشبهات التي لجأ اليها المشتغلون في البحث الاجتماعي قد أعانتهم في التفرقة الحاسمة بين ما يعرف بالمنهج أو الاستراتيجية العامة ، وبيم ما يعرف بالطريقة أو تكتيك البحث من ناحية وأدواته من ناحية أخري ، تجنب بالتالي الوقوع في خطأ الجمع بينهما في مضمنون واحد دون تفرقة واضحة ، كما جرت عليه العادة في بعض مؤلفات البحث الاجتماعي .

ولن نعيد هنا هذا الحوار الذى يدور بين المشتغلين بالبحث الاجتماعي حول هذه المفهومات رغم أهميتها في تصميم البحث الاجتماعي ، فلقد أغنتنا الكتابات العربية في هذا الصدد عن الدخول في كثير من التفاصيل التي يعد الإلمام بها مطلوبا ضروريا في تصميم البحث الاجتماعي . وإنما سنكتفي هنا بتأكيد بعض الحقائق التي انتهت إليها تلك المناقشات .

١- ان المنهج يعتبر بمثابة الاستراتيجية العامة أو الخطة العامة التي يرسمها الباحث لكي يتمكن من حل مشكلة بحثه أو تحقيق هدفه أو هو الاستراتيجية التي تعتمد على مجموعة من الأسس والقواعد والخطوات التي يستفاد منها في تحقيق أهداف البحث والعمل العلمي.
٢- ان المنهج يمتاز بخواص ومميزات أهمها أنه يطبع البحث بطابعه ويؤثر في انقسامه إلى أنواع. والمنهج يطبع البحث بطابعه ويتلون بلونه ويحدد وصفه أو صفته على هذا الاساس فإذا كان البحث يتطلب استخدام قواعد القياس ، فإنه لا يجد مفراً من أن يستعين في هذا الصدد بالمنهج التجريبي ، الأمر الذى يكتسب معه هذا البحث بعد ذلك صفة التجريب ويقال عنه بحث تجريبي.

ولقد أمكن التميز في المنهج بين عدد من الأنواع في مقدمتها المنهج التجريبي والمنهج التاريخي. ويدرس المنهج التجريبي الظواهر الحاضرة أو الراهنة ويحاول التواصل إلى القوانين العامة أو العلاقات الثابتة بين الأشياء أو يعتمد في ذلك على الملاحظة والقياس والتجربة ويقوم على التعميم.

ويصوغ قوانينه في صورة رياضية. أما المنهج التاريخي فهو الذى يدرس ظواهر الماضي ويقوم البحث بالتنقيب عنها في وثائق التاريخ ، فهي ظواهر لا تقع مباشرة تحت الملاحظة ولا تظهر مطلقا عبر نمط واحد ، وإنما يقوم الباحث بجمع الوثائق حولها ويحاول التحقق منها ويعتمد على طريقة التحليل والتركيب العقلاني ، وذلك كله بهدف البحث عن العلاقات السببية بين الحوادث الماضية.

٣- تعتبر طريقة البحث بمثابة إحدى قواعد المنهج باعتباره مجموعة قواعد ، أو هي الوسيلة التي تنفذ بها المنهج كخطة عامة ، أو هي التكتيك الذى نطبق به المنهج باعتباره استراتيجية . فإذا كان المنهج التاريخي في دراسته لظواهر الماضي يحاول تحقيق هدفه من خلال تحليل الوثائق والسجلات المتوفرة عن الماضي حول هذه الظواهر ، فإن تحليل الوثائق والسجلات تعتبر بمثابة الطريقة أو التكتيك الذى يطبق به المنهج التاريخي استراتيجية .
٤- هناك في نطاق البحث الاجتماعي نواع متعددة ومتباينة من طرق البحث الاجتماعي منها : القياس الاجتماعي والمسح الاجتماعي ودراسة الحالة ، وتحليل الوثائق ، وتحليل المضمون ، والطريقة الاسقاطية ولكل واحد منها

استخداماتها ومتطلباته وخصائصها وعيوبها . يجب أن يكون الباحث مستوعبا للدروس التي تلقاها في هذا الصدد ؛ حتى يستطيع أن ينتقى منها ما يتناسب مع التصميم المنهجي الذى يتفق والموضوع الذى يختاره للبحث.

٥- تعتبر أداة البحث بمثابة الوسيلة التي يلجأ إليها للحصول على المعلومات والبيانات التي يتطلبها بحثه ، فقد يستعين الباحث في هذا الصدد بالملاحظة أو المقابلات الشخصية أو الاستبيان ، ولكن عليه في هذا الاستخدام أن يتذكر الدروس المستفيضة التي تلقاها حول طبيعية كل أداة ، ومتطلباتها ، واستخداماتها ، ومميزاتها ، وعيوبها وحول العوامل التي تتدخل في اختيار الأداة المناسبة لموضوع بحثه ، أو متطلبات تصميم أداة جمع البيانات ووضع البناء المناسب لها فهذا أمر له شروطه المنهجية سنتناوله بالتفصيل في فصل لاحق .

رابعاً : أهمية النظرية فى البحث الاجتماعى

أوضح تحليلنا السابق لخصائص البحث الاجتماعي حاجة البحث إلى التعبير عن مشكلته في مفهومات واضحة وإلى فروض يتلمس بها طريقه نحو أهدافه، وإلى نظرية يستعين بها في تفسير الوقائع التي يقوم بجمعها. ولما كانت المفهومات العلمية والفروض باعتبارها عناصر أساسية في تكوين النظرية العلمية، كانت محل عناية واهتمام كثير من الكتابات السابقة. والتي يعد الوقوف عليها مطلبا جوهريا لازماً لتعلم كيفية وضع التصميم المنهجي للبحث. وكذلك أسهمت هذه الكتابات في تحليل مفهوم النظرية وبيان دورها في تفسير الوقائع التي يصل إليها البحث ، فإن تناولنا لهذا المفهومات لن يتجاوز التأكيد إلى بعض الحقائق المتصلة بكل مفهوم منها ، والتركيز بخاصة على أهمية النظرية في البحث الاجتماعي ، طالما كان دور النظرية في البحث لا يتوقف عند حد مساعدته على تفسير الوقائع التي يقوم بجمعها على النحو الذى سنوضحه فيما يلى :

النظرية Theory :

تتفق الكتابات التي اهتمت بمعالجة موضوع النظرية سواء تلك التي تتناول نظرية علم الاجتماع أو التي تحلل مناهج البحث الاجتماعي أو غيرها مما اهتم بتوضيح المصطلحات والمفهومات ، فيما بينها في أنها قد ركزت على وصف مكونات النظرية وتوضيح شروطها وإبراز خصائصها والكشف عن وظائفها.

١- إذ تعتبر النظرية بمثابة نسق استنباطي يتكون من مجموعة قضايا يحتل بعضها مكانة المقدمات أو المسلمات وتحتل بعضها الثاني مكانة الفروض ويحتل بعضها الثالث مكانة النتائج العامة أو التعميمات. بحيث تكون الفروض مستنتجة منطقيا من المسلمات . وتعد النتائج العامة والتعميمات. بمثابة نتائج مستنبطة من ما يتقدمها من فروض. أو في قول آخر تعد النظرية بمثابة نسق يشتمل على مفهومات وقضايا وتعميمات وقوانين مستخلصة من نتائج البحث حول الموضوع المدروس أو من الملاحظات الواعية أو تمثل النظرية إطاراً يتمثل من حسابات صورية كالرموز والقواعد ، ومن تفسير جوهري يساغ في صورة قوانين ومقولات.

٢- وينبغي أن يتوفر مكونات النظرية المشار إليها سلفاً عدة شروط ، بحيث يجب أن تكون المفهومات محدودة بدقة ، وأن تتسق القضايا المكونة لها ببعض مع البعض الآخر، وأن تصاغ في شكل يشكل اشتقاق التعميمات بطريقة استنباطية ، وأن تكون هذه القضية خاضعة لتحقق الإمبيريقى أو الاختبارات في صور شواهد واقعية ، وأن نجد تأييداً لها في هذه الوقائع الامبيريقية .

٣- كما يجب أن تتسم مكونات النظرية بعدة خصائص . بحيث تصبح النظرية هي البناء الذى يجمع أشتات النتائج المبعثرة ويوحد بينها ، ويضم قضايا خصيبة مثمرة تستكشف الطريق نحو ملاحظات أبعد مدى وتعميمات تطور من مجال المعرفة الحالية. وتشتق هذه القضايا من الملاحظات والتعميمات ، كما تصدر عن احساس خفي خلاق يقفز وراء الأدلة والوقائع الملحوظة. وتتسم هذه القضايا المكونة للنظرية بانها ليست نهائية أو صياغة استاتيكية ثابتة ، وإنما هي

قابلة باستمرار للتغير والمراجعة. وترتبط قضايا النظرية بالوقائع الإمبيريقية وفي نفس الوقت ترتبط بمصطلحات أخرى قد تختلف عنها في بعض الجوانب والوظائف مثل المفاهيم والتطبيق والممارسة .

٤- وتقوم النظرية بعدة وظائف حيث أنها تسهم في مجال وصف الظواهر الاجتماعية باستخدام المفهومات والتعريفات ،كما تفيد في تصنيف هذه الظواهر وتحليلها وتفسيرها استنادا إلى الفروض والتعميمات ، كما يستفاد من قوانين النظرية في تحقيق أهداف التنبؤ ، الأمر الذى سنزيده إيضاحاً عند الحديث عن أهمية النظرية في البحث الاجتماعي.

النظرية والقانون :

ولكن يجب أن نذكر أن النظرية برغم أنها قد تجد ما يدعمها استنادا إلى شواهد كثيرة يمكن البرهنة عليها ، فلا يزال يعبر عنها في مصطلحات احتمالية أكثر من ربطها بالحقائق المبرهن عنها استنتاجاً والتي قد ثبتت صحتها في ظل ظروف معينة . وعندما يتم اختبار هذه الحقائق ويقبلها العلماء باعتبارها صحيحة وثابتة في ظل نفس الظروف ينظر إلى نظرية في هذه الحالة على أنها قانون اجتماعي.

والقانون الاجتماعي كما عبر عنه كارل بيرسون (K. Pearson) عبارة عن اختزال عقلي يحل محل الوصف المطلوب للتتابع بين انطباعاتنا الحية. وهكذا ، يعد القانون بالمعنى العملي أساساً ناتجا للعقل الانساني وليس له معنى بمعزل عن الانسان . فهو يدين بوجوده إلى القوة الخلاقة لعقل الانسان. والواقع أنه من الصعب صياغة القوانين الاجتماعية لان الحقائق يصعب قياسها. ومن الصعب كذلك قياس هذه الحقائق ليس لا نها فقد تفتقر إلى أدوات الدقة وإنما لأن الحقائق تتميز بالدينامية والتعقد.

ولكى نقيس الحقيقة ، يجب أن تكون هذه الحقيقة بسيطة ويجب النظر إلى هذه الحقيقة باعتبارها تظهر الصورة مرات كثيرة بنفس الصورة. ولكن الحقائق في العلوم السلوكية ليست بسيطة ولا يحتمل أن تكرر نفسها باستمرار بنفس النظام أو الصورة . كما تتميز الظواهر الاجتماعية أيضاً بأنها غير ثابتة ويصعب قياسها وأكثر من ذلك أن التنسيق والنظام في ترتيب الحقائق أمر يصعب تحقيقه مع أن الحقائق تعد أساسية للقياس.

الفروض والبحث الاجتماعي:

والملاحظ أن الشيء المشترك بين كثير من الكتابات التي عينت بإلقاء الضوء على الفروض، اهتمامها الواضح ببيان طبيعة الفرض العلمي ومصادره وأهميته أو قيمته:

١-عندما يجد الباحث أنه من الواجب عليه أن يختار من بين الخضم الهائل من الأحداث التي يلاحظها الحقائق المناسبة والجوهرية لتفسير المشكاة المدروسة بكفاءة بمعنى ضرورة أن يوضح العلاقات الجوهرية التي توجد بين العناصر المتباينة في إطار هذا الكل المعقد.

فإنه قد يستعين في هذا البحث عن الحقائق ذات الدلالة بالخبرة السابقة ،سواء كانت خبرته الخاصة أو خبرة الآخرين ؛حتي يستطيع أن يبرز تلك العوامل التي يشهد غير انها قد فسرت مواقف مماثلة في الماضي .على أنه ليس من الضروري أن تكون هذه الخبرة لها صلة بميدان العلم فقد تكون هذه الخبرة مسجلة في إطار التراث- أو الكتابات الفلسفية أو في الفنون وغيرها من الميادين التخصصية، طالما تستطيع هذه الميادين أن تمدنا بشيء من الاستبصار عن الموقف موضوع الملاحظة. وعلى اساس من هذه الملاحظات قد تبني الفروض لتوضيح العلاقات بين الحقائق. كما قد تبني الفروض علي أساس الاحتمال والتخمينات والحدس العميق، وعندما يشير الحدس إلي الفذ إلي تفسير ممكن ومحتمل لفكرة حيوية ومحورية يمكن أن تصبح أساسا لبحث مثمر ،فإنها تعد في هذه الحالة بمثابة فرضا تفسيريا أو إجرائيا.

٢- وبدون الفروض الإجرائية قد يجد الباحث أنه من الصعب عليه للغاية أو بالكاد والمجهد أو ما يضيع الوقت، أن يميز بين مجموعة العوامل المتفاعلة أمامه، ذلك لأن الفرض هو الذى يوجهه في عملية اختيار الحقائق المناسبة واللازمة

لتفسير المشكلة التي يتناولها . كما أن الفرض ينقذه أيضا من أن يضل طريقة في خضم الحقائق البعيدة عن الموضوع أو عديمة الصلة به. ويمكن إيجاز قيمة الفروض الإجرائية وأهميتها فينا يلى:

يحدد الفرض محور اهتمام البحث ،كما يساعد في تحديد الطرق أو الوجهة التي يسير فيها ،وفي رسم حدود الميدان المخصص للبحث عن طريق تميز الحقائق المناسبة التي يركز عليها عن تلك غلتي يمكن أن يستغنى عنها إلى وقت محدد على الأقل وهكذا يحول استخدام الفرض دون أن يسير البحث في غموض أولا يجعله يجمع البيانات غير المثمرة أو التي قد يثبت فيها بعد عدم مناسبتها للمشكلة موضوع البحث.

ولا يجب أن يبدأ الباحث في البرهنة علي صحة فروض. وإنما عليه أن يختبر ويقبل كلا من النتائج الإيجابية والسلبية بالروح العلمية الحقة في البحث ،وذلك لأنه يمكن أن تكون للنتائج السلبية نفس أهمية النتائج الإيجابية.

كما لا يحب أن يدافع عن الفروض حتي ولو أيدت البيانات التي تم تجمعها حديثا نتيجة تماثل بالضبط عكس النتيجة التي يعتقد الباحث اصلا أن بياناته قد تكون علي صلة بها.

ويعتبر الفرض الشهير عموما بسيطا ،ولكن البساطة هنا لا تعنى الوضوح ،فالبساطة كمطلب ضروري أو جوهري في التفسير يتطلب استبصار الباحث بالمشكلة بقدر ما يكون فرضه بسيطا.

٣- والسؤال الذي كثيرا ما يثار في قاعات الدراسة ،يتعلق بالفروق بين النظرية والفرض-وبين النظرية والقانون .وهذه المفاهيم نادرا ما يعبر عنها بوضوح حتي في الكتابات العلمية ،ذلك لأن الخطوط الفاصلة ليست واضحة دائما.

وكما لاحظنا فعلا- يعتبر الفرض مضاغا علي نحو عام قبل التحقق من الوقائع، وهو يعالج نطاقا ضيقا من الوقائع ،ويعد افتراضا أوليا يؤخذ به من أجل تفسير الحقائق التي تم ملاحظتها فقط أثناء مرحلة الاستطلاع. أما النظرية من ناحية أخرى فتعتبر بمثلبة تعميم تم التوصل إليه بعد تحقيق، وهي تعالج مجموعة من الحقائق أوسع .وغالبا ما يقال أن النظرية عبارة عن فرض تم اختباره وبلورته. والوقائع المتجمعة يترجمها الباحث إلي أبنية فرضية ومفاهيم موجوده أو مبتكرة حديثا .ثم تتجمع المفاهيم بدورها في نظرية افتراضية والتي تخضع بعد ذلك للاختبار والتحقيق لتحديد سلامتها وصدقها – إذا ثبت بعد ذلك للاختبار والتحقيق لتحديد سلامتها وصدقها- وإذا ثبت بعد هذه العمليات الدقيقة أن النظرية سليمة وصادقة فإنها توصف باعتباره نظرية علمية ،وقد تقبل علي أنها تناسب النمط الموجود من الحقائق العلمية ذات الصلة بالقضية المدروسة. وعندما يمكن اختزال سلسلة من الحقائق العلمية أو اختصارها في قضية دقيقة قد يعبر عنها في صيغة رياضية في هذه الحالة ينظر إليها باعتبارها قانونا. وليس هناك مصطلح على درجة علاية من الاحتمال مثل القانون العلمي.

المفاهيم العلمية scientific concepts

تسير عملية تنظيم البيانات واستخلاص التعميمات منها جنبا إلى جنب مع صياغة المفهومات ،وكما يدرك الباحث العلاقات بين هذه البيانات، أو يكون قادرا علي عزل مجموعة محددة من الأحداث أو أنماط السلك ويصف خصائصها فإنه يبدأ في تلخيصها في معني معين يكون ممثلا لمجموعة الأحداث أو الأنماط أو السمات في جملتها. وكل مجموعة جديدة من البيانات عزلت أو فصلت عن المجموعات الأخرى علي أساس خصائص محددة ، تعتبر بمثابة معطي أو اسما أو تسميه أو باختصار – مفهوم concept .وهذا المفهوم يعد في الواقع تحديدا مختصرا لمجموعة من الحقائق ، فالطغيان والعدوان والإحباط والاتجاه والشخص، والقلق تعبر أمثلة علي هذه المفهومات، فيها تم اختصار عدد من الأحداث أو الظواهر والأحداث تحت عنوان عام واحد، وذلك بهدف تقديم ما دار في فكرنا حول هذه الظواهر والأحداث والعمليات في صورة مبسطة.

وقد نلاحظ أنه ليس هناك مفهوم يتسهل تحديده، وذلك بسبب تباينها وتعقدها. وهناك مفهومات مثل الإحباط والعدوان أو الدافعية لا تزال أكثر صعوبة في تحديدها ،وذلك لأنها تعتبر بمثابة أبنية فرضية constructs، بمعنى أنها تمثل استنتاجات علي مستوي عال من التجريد من أحداث ملموسة ولا يمكن توصيل معناها بسهولة من خلال الإشارة إلي موضوعات معينة أو أفراد أو أحداث . وتعرف هذه العلمية ذات المستوي العالي من التجريد التي تفرض علي البيانات الخام باسم عملية صياغة المفاهيم conceptualization. وتعبر المفاهيم العلمية غالبا وبخاصة في ميدان علم الاجتماع ،بمثابة مصطلحات شائعة الاستخدام.

ولقد استخدم علم الاجتماع مصطلحات شائعة في لغة الحياة اليومية واعتبرها بمثابة مفهوماته الأساسية، واستعان بها في التعبير عن جوهر تفكيره العلمي، وتعتبر مفاهيم مثل الشخصية، والثقافة، والمجتمع المحلي، والمجتمع ،والجامعة والاتجاه ، والقيم مجرد أمثلة قليلة علي المفهومات السوسيولوجية والتي تختلف معاينها لدرجة كبيرة عندما يستخدمها عالم الاجتماع عن استخدام رجل الشارع لها.

وتتميز الأبنية الفرضية (مثل الإحباط أو العدوان) عن المفهومات البسيطة بأنها معقده، ولذلك فإن هذه الأبنية الفرضية لا تحتاج فقط إلي أن تكون محددة بعناية وإنما تحتاج أيضا إلي ترجمتها إلي أحداث يمكن ملاحظتها وعمليات أو معان معينة، سيترتب عليها بيانات يمكن أن تكون مقبولة كمؤشرات علي هذا البناء الفرضي مثل العدوان . ويعتبر ستيوارت دود s.c.Dodd هو المسئول الرئيسي عن محاولات إدخال التعريفات الإجرائية للأبنية الفرضية إلي علم الاجتماع operational Definitions بمعني استخدام سلسلة من الكلمات ترسم بوضوح أفعال يمكن ملاحظتها أو أدائها أو عمليات يمكن اختبارها والتحقق منها بمعرفة الآخرين. ويوافق المدافعون عن استخدام وتنمية التعريفات الإجرائية في علم الاجتماع علي أنه الممكن بناء مقايس خاصة أو اختبارات والتي قد تحدد موضوعيا وبطريقة قابلة للتحقق من السلوك الفعلي والاتجاهات.

تمارس النظرية تأثيرا ملزما علي البحث بأن تحدد أو تطرح المشكلات التي تحتاج لبحث ،وتبرز الموضوعات الهامة عن غيرها وتقود البحث نحو العلاقات المؤكدة. وتقود نتائج هذه البحوث بدورها إلى اختبار النظريات واقتراح مشكلات جديدة تدعو إلي صياغة مشروعات نظرية جديدة . وهكذا ، تتشابك النظرية والبحث والحقيقة الإمبيريقية في نسيج من العمل توجه فيه النظرية .ويتمثل ثمار التفاعل هذا في أنه يعد بمثابة الوسيلة التي من خلالها يتطور أو ينمو العلم الإمبيريقي.

وهكذا يسير استخدام م وتنمية النظرية في اتجاهين اثنين، الأول يتمثل في إقامة العلاقات بين القضايا النظرية أو المفهومات ، ويسعي هذا الخط في العمل نحو بناء أنساق التفسير التي تتميز بالحدة المنطقية وتسمح باشتقاق النتائج الاستقرائية ويتمثل الاتجاه الثاني في ربط النظرية بالبحث ،ونحن نهتم هنا بالاتجاه الثاني.

وبرغم أن التفاعل الوثيق بين النظرية والملاحظة الإمبيريقية تتم دائما في نطاق البحث ،فإن النظرية قد تؤثر بطرق متباينة في الخطوات المتتابعة للبحث، فقد يحدد الباحث مشكلة البحث التي يتناولها في ضوء نظرية موجودة أو يحددها في ضوء ملاحظات مشتركة عما يحدث في حياة الناس الفعلية .وأكثر من ذلك ، قد يجري البحث لاختبار نظرية قائمة سلفا . وقد يتم ذلك البحث بهدف التوصل إلي إجابة على مشكلة ملموسة . قد يسعى المرء إلى جعل نتائج بحثه ذات مغزي من خلال تفسيرها في ضوء بناء نظري قائم، قد يستخدم الباحث نتائج البحث في صياغة بعض القضايا النظرية الجديدة والواقع أن هناك مبادئ عامة عديدة يجدر الإشارة إليها هذا لفهم أثر النظرية في البحث أولا، يمكن أني يكون الإلمام بالنظرية السائدة في ميدان البحث مفيدا لدرجة كبيرة في اختيار أحد المتغيرات، وفي تحديد مجموعة البيانات التي يرغب الباحث في جمعها . ولذلك ، يجب أن يكون الباحث على دراية بالنظرية وثيقة الصلة ببحثه .

أولا : يمكن أن يكون الإلمام بالنظرية السائدة في ميدان البحث مفيدا لدرجة كبيرة في اختيار أحد المتغيرات، وفي تحديد مجموعة البيانات التي يرغب الباحث في جمعها . ولذلك ، يجب أن يكون الباحث على دراية بالنظرية وثيقة الصلة ببحثه .

وثانيا: على الباحث أن يجعل مفهوماته واضحة بقدر الإمكان بدرجة يستطيع بها أن يتعرف عاي البيانات الإمبيريقية بطريقة ثابتة ويميز بين البيانات التي يغطيها هذا المفهوم عن غيرها.

وثالثا: يجب أن ينظر الباحث إلي النظريات سواء أخذت عن التراث الموجود أو قام هو بتنميتها بنفسه باعتبارها موجهات افتراضية، وليس باعتبارها معرفة راسخة.

وبهذه الطريقة يكون الباحث متحفزا لادرك الوقائع التي تعارض النظرية ، وهكذا يكون علي أهبة الاستعداد لمراجعة النظرية لكي تتناسب مع العلم الإمبيريقي.

ورابعا: يجب على الباحث أن يعير كل اهتمامه لكل الملاحظات المحيرة التي تنشأ في بحثه، ويفكر فيها وقتا طويلا بدلا من أن يستبعدها من نطاق اهتمامه؛ لأن مثل هذه الملاحظات غير العادية تتيح فرضا ثرية لإثارة الخيال وتنمية منظورات جديدة أكثر من أي شيء آخر، فهي تعتبر مصدرا لمداخل نظرية جديدة. وإيجازا لما سبق، علي الباحث في إجرائه أن يستعين بالنظرية لتنظيم وتوجيه خطوط بحثه.، وأن يعتمد على ملاحظاته الإمبيريقية في اختيار وتنقيح قضاياه النظرية.

أسئلة المحاضرة الأولى

س١/ ((للبحث عدة خصائص منفصلة أو متميزة ، تظهر تباعا بحيث قد تبدو في نظر الباحث علي أنها عدد من الخطوات))

اشرح / اشرحى العبارة السابقة في ضوء توضيحك لخصائص عملية البحث الاجتماعي

س٢/تحدثي بالتفصيل عن المفهوم الحديث للبحث الاجتماعي

المحاضرة الثانية (مشكلة البحث الاجتماعي وتحديدها)

تمهيد :

أشرنا في الفصل السابق إلى خصائص وخطوات البحث الاجتماعي وقلنا أن البحث يبدأ بسؤال في ذهن الباحث ، أو يبدأ البحث بعقل متسائل وتواق إلى الحقيقة والمعرفة في وجود وقائع محيرة ومشكلة . وهذا معناه ، أنه لابد من وجود مشكلة ما تثير في ذهن الباحث التساؤل أو التساؤلات التي يبدأ بها بحثه ، كما أن هذا يعني أنه إذا كان علينا أن نتناول عملية البحث الاجتماعي بالتحليل والتوضيح ، وأن نبين الصدد بمشكلة البحث الاجتماعي وكيفية تحديدها ، وذلك قبل أن نفكر في وضع خطة البحث ، وتحديد البيانات اللازمة ، والإجراءات المنهجية المناسبة ، والمجتمع أو العينة الملائمة ، وقبل جمع البيانات وتصنيفها وتحليلها وتفسيرها أو كتابة أى تقرير بشأنها ، طالما كان تصورنا للتصميم المنهجي المناسب للبحث يتوقف على معرفة هدف هذا البحث ، أن نوعية وطبيعة المشكلة التي يقدم على معالجتها .

ولعل أول ما يصادفنا في الحديث عن مشكلة البحث ، ذلك الخلط الذى قد يعلق في ذهن البعض ، بين مشكلات البحث والمشكلات الاجتماعية على الرغم مما بينهما من اختلاف . ذلك المشكلة الاجتماعية عبارة عن موقف يتطلب معالجة إصلاحية وينجم عن ظروف المجتمع أو البيئة الاجتماعية ، ويستلزم تجميع الوسائل والجهود الاجتماعية لمواجهته وتحسينه . أما مشكلة البحث فهي عبارة عن موضوع يحيط بع الغموض ، أو ظاهرة تحتاج إلى تفسير أو قضية موضع خلاف أو سؤال يحتاج إلى إجابة وعن طريق البحث الاجتماعي يستطيع الوصول إلى مثل هذه الإجابة ، هذا فضلا عن البون الواضح والشائع بين مشكلة البحث والمشكلة الاجتماعية ، فإنه يمكن أن تكون المشكلة الاجتماعية من بين مشكلات البحث الاجتماعي ، لذلك فالأخيرة أوسع وأعم من المشكلات الاجتماعية وليس العكس وذلك في ضوء الخصائص التي يمكن أن تتميز بها المشكلات ، ولذلك سنخصص جانباً من هذا الفصل لمعالجة نوعية المشكلات الصالحة للبحث الاجتماعي .

ثم ننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن المصادر التي يمكن أن نستخلص منها أو نجد فيها مشكلات البحث الاجتماعي التي تثير التساؤل وتحتاج إلى تفسير . ونختتم هذا الفصل بالحديث عن كيفية تحديد مشكلة البحث الاجتماعي ، والمتطلبات المنهجية التي لا بد منها ، وحتى يتسنى استناداً إليها السير في خطوات البحث الاجتماعي بعد ذلك.

مشكلة البحث الاجتماعي وتحديدها

١. نوعية المشكلات الصالحة
٢. مصادر مشكلات البحث الاجتماعي
٣. تحديد مشكلات البحث الاجتماعي

أولاً : نوعية المشكلات الصالحة للبحث الاجتماعي

يجد كثير من الطلاب والدراسين صعوبة في فهم طبيعة المشكلة التي يمكن اعتبارها صالحة للبحث الاجتماعي . وهذا يرجع في جانب منه إلى أنهم لم يفهموا طبيعة البحث الاجتماعي ذاته وعلى حقيقته . فلقد سبق أن أشرنا إلى أنهم قد يظنون أن مجرد نقل أي مجموعة من المعلومات ووضعها في صورة مقال مكتوب تعد من قبيل البحث . غير أن هذا معناه أنهم يعتبرون النشاط أولا وقبل كل شيء – سواء أكان جميع بيانات ، أو إيجاد علاقة ، أن مضاهاة بين الجماعات ، أو المقارنة

بين أنجازهم – يعتبرونه بمثابة العنصر الأصلي بل هو البحث ذاته . والواقع أن أحد هذه الأوجه للنشاط لا تعد بمثابة مشكلة صالحة للبحث ، ذلك لأن البحث باعتباره تطبيقاً للمنهج العلمي ، أكثر من مجرد نشاط يقوم به الباحث .

وطالما كان البحث يتطلب عقلاً مستفسراً أثناء تنقيبه عن الوقائع ، وحتى بعد جمعها فإنه يقوم بالكشف عن معني هذه الوقائع والتعبير عنها في نتيجة واحدة . وكذلك ، يقال أنه عندما لا يكون هناك مجال لنضال فكري يفرض على الوقائع أن تكشف عن معانيها ، فإنه لا يكون هناك بحث . وإلا أصبح البحث عاملاً تستطيع الآلة القيام به . بناءً على ذلك ، يمكن القول أن النشاط الذى ينتهي بمجرد التوصل إلى معامل الارتباط بين مجموعة من المعطيات لا يعد بحثاً ، لأن هذا ما يستطيع الحاسب الألي القيام به وأن التوصل إلى وجود معامل ارتباط بين مجموعتين من المعطيات قدره ٠,٨٢ مثلاً ، ما هو إلا مجرد خطوة على طريق البحث ، لأنه يؤكد لنا فقط أن هناك ارتباطاً بين هاتين المجموعتين من البيانات ، ولكنه لا يجيب على كل ما يمكن أن يثيره هذا الارتباط من تساؤلات مثل : ما طبيعة هذه العلاقة ؟ وما السبب الرئيسي لها ؟ فالإجابة على هذه التساؤلات معناها تقديم تفسير لما يعنيه الارتباط المذكور ، الأمر الذي يتطلب نوعاً من الصراع الفكري الذى يجعل ذهن البحاث يدخل في معركة مع الحقائق الملحوظة ، أملاً في الكشف عن دلالة ومغزى هذه الوقائع المعبرة عن الارتباط ، وهذا ما لا تستطيع الآلة أن تقوم به . واستناداً إلى فهمنا لطبيعة البحث الاجتماعي .

<u>على هذا النحو نستطيع التقدم نحو بيان نوعية المشكلات الصالحة للبحث الاجتماعي :</u>

١- ليست المشكلات التي يمكن الإجابة عليها بنعم أو لا مشكلات مناسبة للبحث .

ليست المشكلات التي يمكن الإجابة عليها بنعم أو لا مشكلات مناسبة للبحث ، ذلك لأن موقف نعم أو لا لا تترك أي مجال لتفسير المعطيات بمعيار أو مستوي معروف ، ثم اتخاذ قرار مباشر بشأنها . ومثال ذلك التساؤل : هل الجو بارد في الخارج ؟ قد ننظر في الإجابة عليه إلى الدرجة التي سجلها الترمومتر كمعيار معروف ، وتقرأ الدرجة ٢٠ º، ثم تتخذ قراراً مباشراً ، نعم إن الجو بارد في الخارج ولكا كانت المشكلات التي يمكن الإجابة عليها بنعم أو لا تقف عند حد المستوي الأكثر عمقاً والذى قد يفسح مجالاً للتفسير ، فإنها لا تعد من قبيل المشكلات الصالحة للبحث . ولذلك ليس هناك في السؤال " هل العمل المنزلي مفيد للأطفال ؟" مشكلة تصلح للبحث . لآنه أيضا سؤال يغفل النقطة المحورية في الموضوع ، فليس محور الموضوع ما إذا كان العمل المنزلي مفيد أو لا . إنما القضية التي يمكن إخضاعها للبحث ، هي أين تكمن فائدة العمل المنزلي ؟ إذا كان كذلك أو إذا لم يكن العمل المنزلي مفيداً ، فلماذا هو كذلك ؟ بحيث يتخلل البحث فيما وراء المسائل السطحية والتي تحتاج إلى تفسير ، وبحيث أنه عندما يهتم الباحث بفهم أسباب موقف معين أو الفروق الكيفية التي تميزه عن موقف آخر ، فإنه عندئذ يدخل في ذلك النطاق من المشكلات التي يصلح أن نطلق عليها اسم البحث .

٢- لا تعد مشكلات المقارنة بمثابة مشكلات صالحة للبحث .

لا تعد مشكلات المقارنة بمثابة مشكلات صالحة للبحث ، ذلك لآن المقارنة البسيطة في ذاتها لا يمكن أن تكون غاية الجهد الذى يدخل في البحث ، وأن المقارنات تمثل خطوات وسيطة فقط في ترتيب المعطيات من أجل عرضها على ذهن الباحث بطريقة تساعده على ملاحظتها وإدراك أوجه الشبه والاختلاف بينهما ، وتعينه في البحث عن الأسباب التي تستند إليها الطبيعة المغايرة والمماثلة لهذه الوقائع . فإذا قلنا مثلاً في أحد البحوث إننا نريد المقارنة بين ظاهرة الارتداد عن النظام السياسي في ألمانيا الشرقية خلال العشر سنوات من ١٩٥٠ حتى ١٩٥٩ ، وبين مثلتها خلال العشر سنوات من عام ١٩٦٠ حتي عام ١٩٦٩ . فما عليك إلا أن تضع قائمتين اثنتين من الأعداد ، الأولي توضح عدد المرتدين في العشر سنوات الأولي والثانية توضح عدد المرتدين في العشر سنوات التالية ، وقد تعتقد بهذا أنك قد أخذت مشكلة للبحث ، وأنك قد انتهت من حلها

مكتفياً بالمقارنة بين الفترتين استناداً إلى الأعداد المتوفرة ، وأغفلت بهذا ضرورة أن يتخلل البحث فيما وراء هذه المسائل السطحية والتي تحتاج إلى تفسير .

٣- المشكلات الصالحة للبحث هي التي يشعر الباحث بأهميتها من وجهة نظره.

المشكلات الصالحة للبحث هي التي يشعر الباحث بأهميتها من وجهة نظره : ذلاك لأنه من بين ما يدفع إلى البحث هو وجود مشكلة يشعر بها الباحث ويقدر أهمية دراستها والبحث عن حل لها ، ولأنه بقدر ما يكون للمشكلة أهمية بالنسبة له ، بقدر ما يزيد ما يزيد لديه الحافز الذي يدفعه إلى التفكير في جوانبها المختلفة ، ويساعده على المثابرة في تحليل أبعادها المتباينة ، ويجعله يستمر في تحمل المشاق التي يحتمل ن تواجهه في دراستها .

٤- المشكلات الصالحة للبحث هي التي يشعر الباحث بأهميتها للمجتمع الذى نعيش.

المشكلات الصالحة للبحث هي التي يشعر الباحث بأهميتها للمجتمع الذى نعيش فيه . ذلك لأنها جاءت في الوقت المناسب ، أو لأن لها صلة بمشكلة علمية في الحياة اليومية ، أو تخص السواد الأعظم من الناس في المجتمع ، أو تحص جمهور منهم له تأثيره ووزنه ، أو لها نتائج كثيرة في مجال أوسع من المشكلات الملحة في المجتمع . ولأنه بقدر ما يكون للمشكلة أهمية بالنسبة للمجتمع أو الناس المحيطين بالباحث من أحد الجوانب ، بقدر ما يضمن تعاونهم وإتاحة المناخ الملائم لإجراء دراسته ، ومد يد العون المادى والمعنوي له وتوفير الإمكانيات التي يحتاج إليها في البحث .

٥- المشكلات الصالحة للبحث هي التي يشعر الباحث بأهميتها للعلم والتخصص الذى ينتمى إليه .

المشكلات الصالحة للبحث هي التي يشعر الباحث بأهميتها للعلم والتخصص الذى ينتمى إليه : ذلاك لأنها قد تسد ثغرة في نتائج البحث في هذا العلم أو تسمح بتعميم النتائج القائمة إلى مستوي أكثر تجريداً ، أو تصقل تعريف أحد المفهومات الهامة ، أو تبرهن عن وجود علاقة بين معطياته ، أو تطور من الملاحظة وتحسن من حليل المعطيات ، أو توفر فرصة لجمع معطيات معينة تتيح إمكانية ظهور اكتشافات مثمرة في نطاق هذا العلم أو التخصص . وبناءً على أهمية المشكلة بالنسبة للعلم والتخصص الذى ينتمي إليه الباحث من أحد الجوانب السابقة ، يزيد من عائد وآثار ونتائج دراسة هذه المشكلة على تقدم البحث العلمي في نطاق هذا العلم والتخصص ، ويرفع من مكانة الباحث بين زملائه في هذا التخصص .

٦- المشكلات الصالحة للبحث هي التي يتوافر لها الإمكانيات اللازمة.

المشكلات الصالحة للبحث هي التي يتوافر لها الإمكانيات اللازمة : إذ يفترض أن يكون الباحث مدركاً للحقيقة القائلة بأن إجراء البحث يحتاج إلى إمكانيات عديدة ومتنوعة ، وكذلك فإن المشكلة الصالحة للبحث هي المشكلة التي يتوفر لها الإمكانيات اللازمة والتي تساعد على الاستمرار في دراستها والتوصل إلى حل لها . فالواقع إن إجراء البحث يحتاج إلى وقت وجهد ونفقات ، ولابد أ يتأكد الباحث من أنه سيجد الوقت اللازم لتناول مشكلة بحثه ، وأنه يستطيع أن يبذل الجهد المطلوب لها ، ويجد جهد الأخرين الذين يحتاج إليهم في جمع البيانات ، وتفريغها ومعالجتها إحصائياً على الحاسبات الإلكترونية أو غيرها ، وأنه سيحصل على النفقات الضرورية لتوفير المراجع العلمية التي تضم الكتابات السابقة حول مشكلة البحث وتعينه على الوقوف على جوانبها المختلفة ، وأنه سيتوفر له تعاون مجتمع البحث ، والمبحوثين في إتمام البحث ومده بالبيانات التي تلزمه في هذا البحث .

<u>ثانياً : مصادر مشكلات البحث الاجتماعي</u>

١- المصادر الذاتية لمشكلات البحث الاجتماعي

- الخبرات الفردية والعلمية
- القدرة على الحدس والبداهة والتخمين
- القيم والاهتمامات والميول والمطامح الشخصية

٢- المصادر الموضوعية لمشكلات البحث الاجتماعي

- الكتابات التاريخية والأدبية والفلسفية
- نتائج البحوث الاجتماعية السابقة
- النظريات الاجتماعية

وقد يقع الباحث في حيرة وتردد وهو يخطو أول خطوة له في عملية البحث ، ذلك لأنه قد يجد من الصعوبة الإجابة على السؤال : أين توجد مشكلات البحث الاجتماعي؟ و ما هو النطاق الذى يمكن أن يمدنا بمثل هذا النوع من المشكلات ؟ وهل الباحث حر في اختيار مشكلة بحثه من أي نطاق ؟ أم أن هناك حدوداً للاختيار لا يجب عليه أن يتعداها أو يتجاوزها ؟ والواقع أن الأمر لا يستدعي هذه الحيرة والتردد إذا علمنا :

أولاً : إن مشكلات البحث قد توجد في كل مكان ، وأينما تمعن النظر في العالم المحيط بك تجده مفعماً بالمشكلات التي يمكن بحثها . ومهما كان مثار اهتمامك ومصدر حبك للاستطلاع على أساس طرحك للأسئلة التي لم تجد إجابة لها أو التي لازالت الإجابة حولها مثاراً للجدل والمناقشة ، فإنك قد تجد أرضاً خصبة للمشكلات التي يمكن إجراء بحوث حولها . إن الإنسان لم يقل بعد كلمته الأخيرة في معظم المسائل التي لها أهمية في نظره . كما أن أي قطاع في الحياة أو أي ظرف في العالم الذى يحيط بك ، أو أية ظاهرة تقع أمامك أو أي حدث يمر أمام عينيك فإنه ينطوي على مشكلات لا حصر لها تستدعي اهتمام الباحثين .

ثانياً: إن الباحث ليس حراً في اختيار مشكلة بحثه من أى نطاق وإنما هناك حدود الاختيار لا يجب عليه أن يتعداها أو يتجاوزها . ذلك أن الباحث لا يستطيع أن يختار مشكلات بحثه من بين تلك التي تقع خارج مجال اهتمامه أو بعيداً عن نطاق ميدان تحصصه الذى ينتمي إليه .

وكل ما هو مطلوب منك بعد ذلك أن تذهب إلى المكتبة وتقوم بفحص أية مجلد يضم ملخصات البحوث التي أجريت في نطاق الميدان الذى يهمك ، وستشعر مرة واحدة كيف أن عالم الحياة اليومية وعالم البحث يتداخلان ويتشابكان . وتدرك في الوقت نفسه ، وبعد مثل هذه التجربة ، أن كل ما نحتاجه للتغلب على مل قد يعترضك من حيرة وتردد عند التفكير في اختيار مشكلة البحث هو النظر إلى مجال اهتمامك وميدان تخصصك نظرة فاحصة ومتأنية ، فتستطيع بعدها تنين نوعية المشكلات الصالحة للبحث .

ولقد حاول البعض تسهيلاً لعملية البحث الاجتماعي واختيار مشكلته حصر مصادر مشكلات البحث الاجتماعي وتصنيفها إلى أربعة ميادين : ميدان المشكلات الاجتماعية ، ثم ميدان النظم الاجتماعية . وميدان المجتمعات المحلية وأخيراً ميدان النظريات الاجتماعية وعندما وجد فريق ثان من الباحثين أن هذا الحصر لمصادر مشكلات البحث الاجتماعي ليس شاملاً في نظرهم ذهبوا في إجابتهم على السؤال : من أين تجئ مشكلات البحث الاجتماعي ؟ إلى أن هناك على الأقل ثلاث مجموعات كبري من المواقف المشكلة التي تؤدى إلى البحث الاجتماعي ، يمكن تصنيفها في ثلاث فئات هي : مشكلات السياسة : ونعني بها مشكلات الحياة اليومية في المجتمع ، ثم مشكلات الفلسفة الاجتماعية أو المشكلات التي يطرحها الفلاسفة والمفكرون والصحفيون ومحبو الفنون وغيرهم . والتي برغم أنها تتميز بطبيعتها الشاملة وتجاوزها نطاق العلم الاجتماعي ، إلا أنها تثير البحث الاجتماعي وتحفزه ، وأخيراً المشكلات الأساسية لتنمية العلم الاجتماعي باعتباره نظاماً

فكرياً ، وهي ذلك النوع من المشكلات التي تتمثل في اختبار الفروض النظرية وإعادة صياغتها أو تطويرها استناداً إلى ما يعرف باسم التجربة الحاسمة .

ويضيف فريق ثالث من الباحثين إلى محاولات تصنيف مصادر مشكلات البحث الاجتماعي السابقة ، بهدف تسهيل عملية البحث الاجتماعي واختيار مشكلته ، وجهة نظر أخري تشير إلى أن هناك مجموعة متباينة من المصادر التي يمكن أن نستقى منها مشكلات البحث الاجتماعي ، يمكن ردها إلى مجموعة الفئات التالية :

الخبرات الفردية والتخمينات وقيم الباحث واهتمامه ومعتقداته وميوله ، والمحادثات الشخصية وتبادل وجهات النظر بين الباحثين ، ثم التراث المكتوب من كتب ومجلات ، ونتائج البحوث ، وأخيراً النظريات .

والواقع أنه يمكن استناداً إلى هذه المحاولات السابقة في تصنيف مصادر مشكلات البحث الاجتماعي ، وإسهاماً منا في تسهيل عملية البحث الاجتماعي واختيار مشكلته أن نلخص هذه المصادر ونردها إلى فئتين اثنتين ، نطلق على الفئة الأولي ، اسم المصادر الذاتية ، ونعطي الفئة الثانية اسم المصادر الموضوعية . على ألا يفهم من هذا التصنيف أنه يمكن الفصل تماماً بين مصادر مشكلات البحث الاجتماعي في الواقع ، وإنما كل ما نهدف إليه من هذا الفصل هو مجرد الشرح والتفصيل تسهيلاً لعملية الفهم .

- **<u>المصادر الذاتية لمشكلات البحث الاجتماعي</u>**

وتضم مجموعة المصادر التي تعبر عن ذات الباحث وإرادته ، والتي تتمثل في خبراته الفردية والعلمية وقدراته على الحدس والتخمين والبداهة ، وقيمه الخاصة في البحث والحياة واهتماماته ومعتقداته وميوله ومطامحه وما يثيره من مناقشات مع غيره من الباحثين .

١- الخبرات الفردية والعلمية :

تعتبر الخبرة الفردية والعلمية التي يتمتع ويتميز بها الباحث في مقدمة المصادر التي تمده بمشكلات البحث الاجتماعي ، وكلما اتسعت دائرة هذه الخبرة وتدعمت من خلال الممارسة والملاحظة لمواقف الحياة الاجتماعية المتباينة ، ومن خلال الاحتكاك بالدوائر العلمية في البحث المناقشة ، ومخالطة الباحثين في نفس التخصص في المناسبات العلمية والمؤتمرات ، وكذلك من خلال الاطلاع باستمرار ومتابعة آخر التطورات في نتائج الجهود العلمية في ميدان التخصص ، كلما توفر للباحث مصدراً خصباً لمشكلات البحث الاجتماعي ، لا يتوفر لغيره من الباحثين الاقل في الخبرة والدراية بهذه المجالات .

٢- القيم والاهتمامات والميول والمطامح الشخصية

وتنمو لدى الباحث استناداً إلى خبراته الفردية والعلمية ، مجموعة من القيم الخاصة والاهتمامات والميول والمطامح الشخصية ، التي تثير بدورها مجموعة أخري من مشكلات البحث الاجتماعي ، وتعد بالتالي مصدراً خصباً لمشكلات البحث الاجتماعي . فإذا كان الباحث يهتم مثلاً بالنسق الديموجرافي ويعتقد أنه أفضل الأنساق الاجتماعية فإنه قد يميل نتيجة لذلك إلى اختيار الفرض القائل بأن الجماعة الاجتماعية القائمة على أسس ديموجرافية يزيد مستوي أدائها وقيامها بالواجبات ، أو يعلو الولاء بين أعضائها ، باعتبار هذا الفرض نوعاً من أنواع المشكلات الصالحة للبحث الاجتماعي .

٣- القدرة على الحدس والبداهة والتخمين

كما قد تسهم الخبرة الفردية والعلمية للباحث في تنمية قدراته على الحدس والبداهة والتخمين وهذه الأخيرة تعد بدروها مصدراً أساسيا لاشتقاق الفروض العلمية ، التي لا تخرج عن كونها مجرد تخمينات أو حلول مقترحة أو تفسيرات مبدئية تحتاج إلى اختبار أو دراسة ، ومن ثم فإن هذه القدرات تعد مصدراً آخر يضاف إلى المصادر الذاتية لمشكلات البحث الاجتماعي .

- **المصادر الموضوعية لمشكلات البحث الاجتماعي**

وهي مجموعة المصادر الخارجة عن ذات الباحث وإرادته ، والتي تتمثل في التراث المكتوب والذى يضم الكتابات التاريخية والادبية والفلسفية ثم نتائج البحوث الاجتماعية السابقة في ميادين وفروع علم الاجتماع المختلفة ، ثم أخيراً النظريات الاجتماعية .

١- الكتابات التاريخية والأدبية والفلسفية

ليست المراجع العلمية فقط هي التي توحي للباحث بأفكار جديدة بل إن الكتابات التاريخية والأدبية والأصلية بما تحتويه من وصف حساس ودقيق لميدان خصب لمشكلات البحث الاجتماعي التي تصلح للدراسة . ورغم أن الباحث الاجتماعي لا يهدف بالطبع إلى استعمال كل الأوصاف البشرية التي تزخر بها هذه الاعمال التاريخية والأدبية الشهيرة إى أنه قد يجد في عالم الأدب والتراث التاريخي أفكاراً موحية عديدة تشير إلى متغيرات هامة في مواقف الحياة الاجتماعية ، تثير التساؤل وتستدعي البحث والدراسة

كما تنطوي الكتابات الفلسفية على مجموعة من التساؤلات والمشكلات التي طرحها الفلاسفة والمفكرون والصحفيون ومحبو الفنون وغيرهم والتي على الرغم من أنها تتميز بالشمول وتجاوزها نطاق إدراك العلم الاجتماعي إلا أنها تثير البحث الاجتماعي وتحفزه . ومع أن هذه المشكلات الفكرية قديمة قدم الفكر الإنساني ذاته ، إلا معالجتها في ضوء المناهج العلمية الجديدة يثري وينمي معرفتنا ، ولهذا اعتبرت هذه الكتابات مصدراً خصباً لمشكلات البحث الاجتماعي .

٢- نتائج البحوث الاجتماعية السابقة

أذ ينطوي ميدان التخصص في العلم الاجتماعي على عديد من الفروع التي تزايد فيها البحث ، وانتهت إلى ركام ضخم من النتائج والتي يمكن اعتبارها من أكثر المصادر الموضوعية أهمية لمشكلات البحث الاجتماعي . ومن بين فروع علم الاجتماع على سبيل المثال لا الحصر : الأسرة والاقتصاد ، والثقافة والقيم ، والسكان ، والسياسية ، والطبقات ، والجماعات ، والتنظيم ، والمدينة ، والقرية ، والتنمية ، والصناعة ، والنظم ، والتغير والمشكلات ، والانحراف ... إلخ .

ولقد اقتصر بعض الباحثين في محاولته بيان كيف يمكن اعتبار ميادين علم الاجتماع مصدراً خصباً لمشكلات البحث الاجتماعي ، على نتائج البحث في المجالات التالية .

أ - المشكلات الاجتماعية

وهي التي تتمثل في انحراف السلوك الاجتماعي عن القواعد والمعايير التي يحددها المجتمع للسلوك الاجتماعي الصحيح ، والتي يكون للمجتمع رد فعل نحوها يتراوح بين مجرد الاستنكار واللوم ، وقد يصل إلى حد العقاب الرادع .

وتأخذ المشكلات الاجتماعية صوراً متعددة ، فقد تتراوح المشكلات الاجتماعية بين البساطة كخروج بعض الأشخاص في سلوكهم عن المألوف وعدم مراعاة الذوق ، وبين الشدة والتفاقم مثل صور السلوك الانحرافي والجريمة المختلفة ، وعموماً

يواجه المرء في حياته الخاصة وأثناء معيشته في الأسرة ، وكذلك في حياته العامة في الدراسة والعمل وغيرها كثيراً من المشكلات الاجتماعية ويتخذ من بينها موضوعاً لبحثه ، بناءً على إدراكه وإحساسه بهذه المشكلة وبأهمية دراستها ، أو بناء على إدراك ومعاناة الناس ومجموعاتهم من هذه المشكلة ، أو بناءً على إدراك السلطة والحكومة بوطأة هذه المشكلات وضرورة البحث عن حل لها حتى يتسنى لها أن تغير من ظروف المجتمع إلى نحو أفضل .

وهكذا ، يعتبر مجال المشكلات الاجتماعية نطاقاً خصباً يستطيع الباحث الواعي والمدرك لظروف مجتمعه أن يختار من هذا المجال واحدة من المشكلات ويتخذ منها موضوعاً لبحثه .وبإمكاننا في هذا الصدد أن نشير إلى نماذج من المشكلات الاجتماعية التي يمكن أن يتخذ منها المرء موضوعاً لبحثه :

فعلى مستوي الفرد يمكن أن تشير إلى مشكلات الخلل العقلي والانتحار والدعارة والإقبال على تعاطى المخدرات والمسكرات وسوء التكيف الفردي ، وعلى مستوي الجماعة ، يمكن أن نذكر مشكلات التفكك الأسري من توتر وطلاق وعدم توافق زواجي ، ومشكلات جماعات العمل وتفكك العلاقات بين أفرادها ، وعلى مستوي المجتمع ، يمكن أن نذكر مشكلات تفكك المجتمعات المحلية ، حضرية وقروية ، من المناطق المتخلفة والإسكان والمواصلات وغيرها ، والأزمات السكانية والتمييز العنصري وكوارث الحرب والصراع الدولي وهكذا ...

ب - النظم والعمليات الاجتماعية

وقد يختار الباحث مشكلة بحثه من مجال النظم الاجتماعية أو العلميات ، وذلك بهدف التعرف على الكيفية التي تعمل بها هذه النظم أو الميكانيزم الذى يحكم هذه العلمية أو تلك في المجتمع أو داخل إى إطار اجتماعي آخر والواقع أن التمييز بين النظم الاجتماعية والعمليات يقوم على أساس النظر إلى النظام الاجتماعي باعتباره يمثل مجموعة من القواعد والمعايير التي يستعين بها مجموعة من الأفراد ويعتمدون عليها في توجيه جانباً من جوانب حياتهم . أما العملية الاجتماعية فهي تمثل تللك العلاقات التي تتسم بالدينامية والتي تعمل إما على تجميع أو تفرقة أعضاء الجماعة أو غيرها من صور الحياة الاجتماعية .

ومن أمثلة النظم الاجتماعية ، يمكن أن نشير إلى الأسرة والاقتصاد والطبقات والتدرج الاجتماعي وغيرها ، ويمكن أن نشير إلى عمليات التغير الاجتماعي والتكيف والتنافس والتوافق والصراع وغيرها كأمثلة على العمليات الاجتماعية .

ج - المجتمعات المحلية " القروية – الحضرية ":

وقد يختار الباحث مشكلة بحثه من مجال المجتمعات المحلية ، أو يجعل بحثه مركزاً حول دراسة مجتمع محلي معين ككل Community ، ويقصد به مجموعة من الناس يعيشون في بيئة محددة ، وينتمون إلى نسق اجتماعي معين قد يغلب عليه الطابع الحضري ، بحيث ينصرف اهتمام الباحث في هذه الدراسة إلى معرفة الجوانب المختلفة لحياة الناس في هذا المجتمع المحلي ، أو التعرف على العناصر المكونة لبناء الاجتماعي لهذا المجتمع المحلي ، ومكونات ثقافته ، والكيفية التي تترابط بها هذه المكونات وتتساند معاً في تكوين كل متكامل ، أو حتى الكيفية التي لا تترابط بها هذه المكونات والنتائج المترتبة على هذا التفكك وهكذا ....

أو قد يجعل الباحث مشكلة بحثه محصورة دراسة النظم الاجتماعية أو العمليات المختلفة التي توجد أو تظهر في مجتمع محلي معين منها ، كأن يهتم الباحث بدراسة نظام الأسرة في الريف أو الحضر ، من حيث أنماطه ووظائفه ، ومشكلاته ، أو يحدد بحثه في تناول عمليات الصراع بين العمال والإرادة في مصانع مجتمع المدينة ، أو في التعاون بين الفلاحين في مجتمع القرية وهكذا .

ولكن السؤال الذى يثار هنا هو : أي نوع من نتائج البحوث السابقة يمكن أن يصلح أكثر من غيره كمصدر لمشكلات البحث الاجتماعي ؟ وقد يكتفي البعض في اعتماده على نتائج البحوث السابقة واختياره مشكلة بحثه من نطاقها ، بمجرد تجميع أي عدد من النتائج السابقة المرتبطة بموضوع معين ، ويحدد مشكلة بحثه في القيام باختبار صحة هذه النتائج في موقف جديد من حيث الزمان والمكان ، وهو موقف البحث الذى يجريه بمعرفته ، غير أنه كلما كانت نتائج البحوث السابقة التي يتخذها الباحث مصدراً لمشكلة بحثه ، تتميز بأنها نتائج متسقة أو غريبة أو غير متوقعة ، كلما ساعد ذلك من تطوير للنظرية وإضافة أفكار جديدة أو اكتشافات مثمرة .

فلقد أدى اعتماد روبرت ميرتون على النتائج المتسقة حول ظاهرة الانتحار إلى بلورة نظريته حول أثر التكامل الاجتماعي أو تضامن الجماعة على اختلاف معدلات الانتحار ، وأن هذه المعدلات تختلف اختلافاً عكسياً باختلاف درجة التكامل أو التضامن الاجتماعي .

كما أدي اعتماد روبرت ميرتون على النتائج الغريبة في دراسته لمدينة كرافتان إلى إضافة فكرة جديدة توضح أن الإدراك يعتمد على بناء العلاقات الإنسانية في المجتمع .

أدي اعتماد ستوفر على النتائج غير المتوقعة في دراسته للجندي الأمريكي إلى اكتشافات مثمرة تتعلق بنسبية المفاهيم والتصورات واختلافها باختلاف الجماعات .

٣- النظريات الاجتماعية

ويكمن المصدر الموضوعي الثالث لمشكلات البحث الاجتماعي في التساؤلات التي قد يثيرها القضايا النظرية المتراكمة من قبل ، ولهذا النوع من التساؤلات والمشكلات أهميته ودلالته بالنسبة لميدان التخصص كنظام فكري ، ذلك لأنه يسهم في تنميته وتطويره ، كما قد يكون له أهميته ودلالته بالنسبة لحل مشكلات الحياة اليومية في الواقع . وينشأ هذا النوع من المشكلات عن الاختلاف بين القضايا النظرية القائمة وبين نتائج النظرية البحوث المرتبطة بها ، أو عن التغييرات التي يمكن إدراكها في البناء النظري ، أو عن تعثر البرهان الإمبيريقي في تدعيم القضايا النظرية المقبولة ، ويتطلب اشتقاق مشكلة البحث بالتركيز على النظرية وعلى الشواهد أو النتائج المتوفرة في تراث البحث الاجتماعي حولها ، ويكشف عن الاتفاق والاختلاف أو عن التغيرات أو عن عجز الشواهد الإمبيريقية عن دعم القضايا النظرية ، ويقوم بعد ذلك بتوسيع وتطوير البناء النظري في ضوء المعطيات الجديدة التي قد يتوصل إليها من خلال ملاحظاته ودراساته الواقعية والإمبيريقية .

ومع هذه الأهمية التي تعلق على مشكلات البحث المستقاة من النظرية ، قد يكتفي الباحث في هذا الصدد ، بأن ينتقي فرضاً واحداً أو نتيجة عامة أو تعميم من نطاق نظرية من نظريات العلم الذى يتخصص في دراسته ، ويحاول أن يجعل منه مشكلة لبحثه ، ويجتهد في التحقيق من صحته أو عدم صحته .

والواقع أن تقسيم مصادر مشكلات البحث الاجتماعي على النحو السابق ، الغرض منه محاولة فهم هذه المصادر وتوضيح جوانبها ، وهو تقسيم لا يقوم في الواقع الفعلي ، ذلك لأن هذه المصادر متداخلة بعضها مع البعض الأخر لدرجة أن المشكلة الواحدة التي قد يختارها الباحث لدراسته ، يمكن أن تقع في أكثر من مصدر في وقت واحد فإذا اختار الباحث وفي ضوء خبرته وميله واهتماماته وحدسه مشكلة التصدع الأسري في الحضر فإنه بذلك يكون قد اختار مشكلة استخلصها من المصادر الموضوعية والذاتية في الوقت نفسه ، لأنها تقع في نطاق المشكلات الاجتماعية (تصدع الأسرة) والنظم (الأسرة) ، والمجتمعات المحلية (المدينة) ، و في نطاق النظرية القائلة بأن الحياة الحضرية والتصنيع يؤثران في تصدع الأسرة .

ثالثاً : تحديد مشكلة البحث الاجتماعي

وبعد أن يفرغ الباحث من اختيار المشكلة الصالحة للبحث في ضوء الاعتبارات المنهجية السابقة ، يتطلب الأمر منه بعد ذلك أن يعرض هذه المشكلة في عبارة واضحة ، لأن هذا يسهم أولاً في توضيح الهدف الذى يكمن وراء كل الجهد المبذول في هذا البحث ، ويساعد ثانياً في الوصول إلى النتائج الكافية ووضع التفسير المناسب لها . وهذا يتطلب بدوره من الباحث أن يفهم مشكلة بحثه بوضوح ويكون قادراً على التعبير عنها بعبارات واضحة موجزة دقيقة ، وأن يتمكن من تقسيم مشكلته الأساسية إلى مجموعة من المشكلات الفرعية ويعبر عن كل واحدة منها في صورة سؤال أو فرض كما أنه يكون من الضروري لفهم مشكلة البحث أن نعرف بدقة معني المفهومات والمعطيات والمؤشرات المستخدمة في التعبير عن المشكلة الأساسية كأساس يستند إليه في بحثه ، وما هي أهم فروضه ؟ ذلك لأن كل هذه الاعتبارات في مجموعها تكون ما اصطلح عليه التعبير عن مشكلة البحث أو تحديدها .

١- عرض مشكلة البحث في عبارة واضحة

وهذا يتطلب أولاً وقبل كل شيء أن يكون الباحث قد فهم المشكلة بوضوح ، وأن يعبر عنها بكلمات قليلة بقدر الإمكان وفي عبارة لا تنطوي على عيب نحوي ، وذلك حتى يتمكن كل فرد من قراءاتها وفهمها ، أو حتى يسهل توصيل مضمونها إلى غيرهم من المهتمين . وأن يبعد في ذلك عن التعبيرات غير المكتملة والتي لا معنى لها ، والتي قد تمس فقط المشكلة من بعيد أو قريب ، وأن يقوم بحذف الكلمات التي لا فائدة لها ، وأن يحرص على أن تكون العبارة موجزة ، لأن هذا الاختصار يجعلها أكثر حيوية ، وأن يختار كلماته بدقة ، وأن يحسن استخدام أدوات التوضيح اللغوي مثل الفاصلة ، والنقطة ، والشرط والأقواس وما إليها .

٢- تقسيم المشكلة الأساسية إلى مشكلات فرعية

يدرك كل باحث واع أن المشكلة الأساسية التي يعالجها تنطوي على عناصر منطقية فرعية تعرف باسم المشكلات الفرعية ، والواقع أن حل هذه المشكلات الفرعية الواحدة تلو الأخرى هو الذى يمهد الطريق نحو حل المشكلة الأساسية للبحث ، كما تمكن هذه المشكلات الفرعية من النظر إلى المشكلة الرئيسية نظرة أكثر شمولية .

على أنه يتعين أن تكون كل مشكلة فرعية مستخلصة من المشكلة الرئيسية قادرة على أن تقف مستقلة باعتبارها مشروعاً فرعياً منفصلاً في إطار الهدف الأكبر للبحث . ومن هنا ، كان من الضروري التعبير عن هذه المشكلات في صورة سؤال ، يساعد الباحث على تركيز اهتمامه مباشرة على الهدف من بحث هذه المشكلة الفرعية .

ولكن مع ذلك ، يحذر من التمادي في تفريع أو تقسيم المشكلة الرئيسية إلى أكثر من عدد محدود قد يصل إلى خمسة مشكلات . ويستطيع الباحث تجنب الأمر إذا تجنب الخلط بين مشكلات البحث وغيرها من المشكلات المنهجية والتي تعد بمثابة قرارات وإجراءات منهجية لازمة لإنجاز مشروعه ، وذلك مثل ، ما هي أفضل طريقة لاختيار عينة البحث ؟ وما هو الحجم الذى يجب أن تكون عليه العينة الممثلة ؟ وما هي الادوات التي يجب الاعتماد عليها في جمع البيانات ؟....إلخ ، وإذا استطاع الباحث أن يجمع كل مجموعة من المشكلات الفرعية في مشكلة فرعية واحدة – وبطريقة منطقية ، وإذا تجنب الوقوع في خطأ توسيع نطاق بحثه ليشمل مناطق وأهداف يعجز عن إنجازها .

ومن هنا ، صار ضرورياً على الباحث أن يقوم برسم حدود مشكلته ، ويوضح ما هي الحدود الدقيقة لها وما الذى سيضمنه الباحث في بحثه ؟ وما الذى سوف لا يدخل ضمن حدود هذا البحث ؟ وما هي حدود تفكيره ؟ وأين تكون النهاية المناسبة للمشكلة ؟ وكيف تكون البداية المحتملة ؟ ذلك لأننا نفترض أن الباحث عندما يعبر عن مشكلته الأساسية ومشكلاتها الفرعية ،

يدرك تماماً معانيها ومتطلباتها والتزاماتها ، كما يفترض أنه يكون مستعداً للوقوف بصلابة وراء كلماته ويحاول جاهداً الدفاع عنها ....

٣- توضيح المسلمات :

تستند القضية التي تعبر عن مشكلة البحث ومشكلاته الفرعية إلى مجموعة من المسلمات الأساسية ، والتي بدونها لا يكون لهذه المشكلات وجود . والمسلمات هي ما يفترضه الباحث جدلاً دون ما حاجة إلى برهان أو تدليل . وإن معرفة ما يسلم به الباحث يعد أمراً أساسياً لمتابعة سير العمل ، وتقييم ما يرتبه على هذه المسلمات من نتائج .

وقد يعتقد البعض أن تحديد المسلمات هو تحديد لشيء واضح ، ولكن نتيجة لأننا لا نحاول أن نترك للبحث شيئاً للصدفة ، ونحول دون حدوث سوء التفاهم ، نري ضرورة تحديد المسلمات بوضوح وبدون تحفظ لأن هذا سيساعد كما ذكرنا على تسهيل مهمة تقدير المشكلة على نحو أفضل .

٤- تعريف المصطلحات :

يستعين الباحث بعدد من المصطلحات والمفهومات في التعبير عن معني مشكلة بحثه ومشكلاته الفرعية . وبدون معرفة ما الذى يعنيه كل مصطلح منها صراحة لا نستطيع تقييم البحث أو تحديد ما إذا كان الباحث قد أجري بحثه على ما تعنيه مشكلة بحثه أم لا ، ونجد هنا من المناسب أن نتناول هذه الأمور بالتفصيل : ونعنى المصطلحات ، وتعريفها ، وما يثيره كل منها من مشكلات .

أ - المصطلحات والمفهومات :

تعتبر المفهومات من أكثر الرموز أهمية فيما تنطوي عليه لغة الفكر الإنساني في أي مجال من مجالاته ، فالمفهوم عبارة عن مصطلح أو رمز يمثل أوجه الشبه بين عدد متباين من الظواهر . فالرغم من أن الرجال يختلفون فيما بينهم في كثير من سماتهم الفردية ، إلا أنهم يصنفون كلهم في فئة واحدة تعرف باسم الثدييات ، علي أساس التماثل فيما بينهم في خصائص بيولوجية معينة ... وهناك إلى جانب المفهوم مصطلح أخر له أهمية مساوية هو التغير ، وهو بعد يمكن قياسه للمفهوم مثل طول أو ارتفاع الرجال . وينطوي علم الاجتماع على رصيد ضخم من المفاهيم والمتغيرات التي قد يعتمد عليها الباحث في التعبير عن مشكلة بحته ، وذلك مثل مفاهيم المكانة والدور والمعيار والتفاعل

ب- التعريفات والمؤشرات :

ولمعرفة المفاهيم والمصطلحات المستخدمة في التعبير عن مشكلة البحث وفهمها لابد من الوقوف على تعريفاتها ، ومعانيها ، وتطبيقاتها ، أو مؤشراتها . إذ تصدر معاني المصطلحات والمفهوم باعتبارها رموزاً لغوية عن تعريفاتها . والتعريف عبارة عن قول يحدد استخدام الرمز بطريقة معينة ، بمعنى أن التعريف يوضح لنا ما الذى يعنيه المصطلح . فمثلاً قد نعرف الانتحار بأنه قتل النفس بالنفس . والتعريفات ليست قوانين علمية أو شواهد تؤدي إليها . ويتسم التعريف بطبيعته التعسفية ، ولذلك فلا تعد التعريفات صواباً أو خطأ ، حقيقة أو كذاباً ، وإنما هي مجرد قول قصد به استخدام المصطلح أو المفهوم بطريقة معينة ، أو هي أقوال اتفاقية. ونستطيع أن نميز بين نوعين من التعريفات : **اسمية و إجرائية .**

وتستخدم <u>التعريفات الأسمية</u> في الحالات التي تكون فيها الكلمة المقصودة مرادفة لتعبيرات معينة أخري ، أولها معانٍ مستقرة بالفعل . مثال ذلك تعريف التجاذب الشخصي على أنه ما يؤدي إلى الاقتراب بين الأشخاص . وفي هذا النوع من

التعريفات يمكن إبدال المصطلحات المعرفة بالكلمة المحددة . ويتميز هذا النوع من التعريفات بأنه يمدنا بطريقة اختزالية في الاتصال .

أما <u>التعريف الإجرائي</u> فيتمثل في عملية تعيين الأبعاد التي يمكن قياسها وملاحظتها في التعرف على ما يشير إلى المصطلح أو المفهوم المحدد . بحيث أنه إذا أمكن تقديم تعريف إجرائي واضح ، يمكن التوصل إلى نتائج ، وبالتالي سهل التحقق من فروضنا . غير أن التعريفات الإجرائية لمفهومات البحث تواجه مجموعة مشكلات منها ، مشكلة تحديد الظواهر موضوع البحث ، فإذا أردنا مثلاً تقييم المشاعر التي يكونها أعضاء جماعة صغيرة متماسكة بين بعضهم البعض ، والتي قد توصف بمفهوم التضامن ، وتحدد اسمياً بأنها قوة العلاقات الشخصية الإيجابية المتبادلة بينهم ،

فإننا نواجه بمشكلة التعرف على الإجراء المناسب لقياس هذه القوة أو العواطف الإيجابية والمشاعر بين أعضاء الجماعة ؟ . وقد نهتدي إلى أن حساب عدد المرات التي يبتسم فيها الأعضاء ويسألون عن صحة وحالة زملائهم الآخرين ، يمثل قياساً لقوة العلاقات بينهم ، ولكن هذه الابتسامات قد يكون بعضها مهذباً والآخر غير ذلك ، فهل يكون القياس منصباً على نوع دون الآخر ؟ كما أن هذه المشكلة تزداد حدتها في البحوث ذات الطابع الحضاري المقارن ، نظراً لاختلاف التعبير بالابتسامة من مجتمع إلى أخر . كما تعد مشكلة توفر الملاحظين ذوي الكفاءة والمدربين على القياس بمثابة نموذجاً آخر على أنواع المشاكل التي تواجه عملية التعريف الإجرائي للمفهومات .

وللتقليل من اللجوء إلى التعريف الإجرائي في البحث ، والتغلب على مشكلاته ، ولربط المتغيرات المجردة بالواقع موضوع الملاحظة ، يمكن استخدام المؤشرات ، حيث تحدد مثلاً لمفهوم مثل القيادة أبعاداً عديدة منها الوضع الأعلى والسمعة والقدرة على اتخاذ القرارات ، والمشاركة الاجتماعية .

ولما كان من الصعب تحديد كل هذه الابعاد بطريقة إجرائية ، يكتفي الباحث باختيار مؤشر منها أو أكثر للدلالة على المفهوم ، حتى يسهل عليه ربطه بالملاحظة ويجري دراسته على أساس علمي . هذا ، ويعتمد اختيار واستخدام المؤشرات على توافر البيانات ، واحتمال الحصول على أنواع معينة منها ، وعلى النظرية التي توجه الباحث ... وتتأكد فائدة المؤشرات عندما تكون المفهومات المستخدمة غامضة ، ولا يتوافر لها المقاييس المباشرة .

٥- صياغة الفروض :

أو بلورة مشكلة البحث في صورة فرض أو فروض تساعد في اكتشاف حلها وتهديك في تحديد الوجهة التي تسير فيها بحثاً عن الوقائع . وما الفروض إلا مواقف مبدئية أو تخمينات ذكية يقدمها الباحث لتعينه على تنظيم تفكيره في حل مشكلة البحث – ولهذه الفروض أهميتها ، لأن الباحث في حاجة إلى بعض النقاط التي يهتم بها البحث والتي من خلالها يتجه نحو البيانات المناسبة ، ولأن هذه الفروض تسمح للباحث ولغيره بإدراك وفهم مشروع البحث في جملته التي تحفز الباحث على العمل.

هذا ، وقد يعبر عن المشكلات الفرعية في البحث في صورة فروض ، وهنا يكون لدينا عدد من الفروض بطريقة معقولة . وعلى نحو يوضح الارتباط بين بعضها الآخر في خطة البحث ومشروعه . على أن نأخذ في اعتبارنا الشروط المنهجية في صياغة الفروض العلمية ، واشتقاقها من مصادرها المعروفة . وفي تحديد مشكلة البحث الاجتماعي على النحو السابق ،

والذى يمدنا بصورة واضحة عن هذه المشكلة ، لا يجب أن يغفل الباحث ضرورة الإشارة إلى أهمية البحث ، ويوضح في اختصار الأسباب التي دفعته إلى إجرائه ، ويبين دلالتها وأهميتها النظرية ، ويشير في الوقت نفسه إلى قيمتها العلمية أو التطبيقية ، الأمر الذى سنزيده تفصيلاً عند حديثنا عن تصميم خطة البحث الاجتماعي في المحاضرة التالية .

<u>اسئلة المحاضرة:</u>

السؤال الاول:

((الباحث ليس حراً في اختيار مشكلة بحثه من أي نطاق وإنما هناك حدود الاختيار لا يجب عليه أن يتعداها أو يتجاوزها.))

اشرح / اشرحى العبارة السابقة في ضوء شرحك لمصادر مشكلات البحث الاجتماعي

السؤال الثاني:

تحدثي / تحدث بالتفصيل عن نوعية المشكلات الصالحة للبحث الاجتماعي

المحاضرة الثالثة (أسس البحث الاجتماعي،خطة البحث الاجتماعي)

تمهيد :

كشف لنا توضيح المفهوم الحديث للبحث الاجتماعي وبيان خصائصه عن مدى حاجة البحث إلى خطة محدودة ، وإلى تصميم مسبق وتوجيه مبدئي وبينا عند الحديث عن المفهومات الاساسية في تصميم البحث الاجتماعي ، وخاصة مفهوم تصميم البحث ، إن وضع أو تصور هذا التصميم يتوقف على مدي معرفة هدف البحث أو موضوعه أو مشكلته ، وإنه في اللحظة التي يتفرغ فيها الباحث من تحديد مشكلة بحثه على النحو الذى أوضحناه في المحاضرة السابقة يجد من الضروري عليه أن يشرع في تصور خطة البحث أو ينشغل في وضع التصميم المنهجي المناسب ، وهنا نتسأل ما هذه الخطة التي يحتاجها الباحث ؟ وما طبيعتها ، وما مستلزماتها أو متطلباتها ؟ وما وظيفة الخطة وأهمية التخطيط في البحث الاجتماعي ؟ وما أهداف الخطة وما الأسلوب الذى تكتب به ؟ وما العناصر التي تتكون منها ؟

وما الخصائص التي يجب أن تتميز بها ؟ ولما كانت مجموعة هذه التساؤلات تتصل في جملتها بموضوع واحد هو خطة البحث الاجتماعي ، خصصنا المحاضرة الحالية لإلقاء الضوء على هذا الموضوع ، ولمحاولة البحث عن إجابة على هذه التساؤلات قسمنا المحاضرة إلى العناصر التالية :

خطة البحث الاجتماعي

- أولاً: طبيعية خطة البحث الاجتماعي ومستلزماتها.
- ثانياً: وظيفة الخطة وأهمية التخطيط في البحث الاجتماعي .
- ثالثاً : هدف وأسلوب الخطة.
- رابعاً: مكونات الخطة .
- خامساً: خصائص الخطة.

أولاً: طبيعية خطة البحث الاجتماعي ومستلزماتها:

تعد عبارة مشروع البحث Research Proposal أو مسودة البحث أو معالم البحث أو قضية البحث أو الخطة المبدئية للبحث بمثابة تسميات واحدة ومترادفة عرفت في تراث البحث الاجتماعي وأطلقت على ما نتعارف عليه تحت اسم خطة البحث .

وعندما يقوم الباحث بوضع خطة البحث الذى يزعم القيام به ، فإنه في هذا يكون مقدما على القيام بعملية تصميم لهذا البحث ، ولذلك فإن الحديث عن خطة البحث لا ينفصل عن تصميمه .

وسبق أن أوضحنا بالمثال في محاضرة سابقة مبدئياً معنى تصميم البحث ، وذكرنا أننا سنعود إليه مرة ثانية عند الحيث عن خطة البحث ، لنزيد الأمر تفصيلاً ووضوحاً.

وقلنا أنه عندما يصمم المهندس المعماري بناء المنزل فإنه يأخذ في اعتباره كل قرار يكون من الواجب عليه اتخاذه في عملية تشييد هذا البناء كأن يأخذ في اعتباره القرار المتعلق بحجم المبنى وعدد الحجرات والمواد التي تبنى منها وهو يفعل كل ذلك قبل أن يبدأ عملية التشييد الفعلية. والواقع أن المهندس يشرع في هذا التصميم لأنه يرغب في تصور الصورة الكلية للبناء في جملته قبل أن يبدأ في تشييد أي جزء منه ، لأنه يستطيع بواسطة هذه الصورة أن يصحح الأخطاء ويدخل التحسينات والتعديلات اللازمة قبل أن يبدأ البناء ومن هنا كان معنى التصميم وضع خطة ، أو كان

تصميم بعبارة أخري عن عملية اتخاذ القرارات قبل أن يتحقق الموقف الذى سينفذ في هذه القرارات ، كما أنه يعد عملية توقع مقصودة وموجهة تحت ايجاد موقف يخضع للضبط والتحكم.

وليس من الصعب تطبيق هذه الأفكار على البحث الاجتماعي ، إذا يمكن قبل أن نجرى البحث رسم خطة تشتمل على مجموعة قرارات مثل :

١- ما الذى تدور حوله الدراسة وما هو نوع البيانات المطلوبة ؟
٢- لماذا تجري الدراسة ؟
٣- وأين يمكن أن نجد البيانات المطلوبة ؟
٤- وأين أو في أي المجالات سوف تطبق الدراسة ؟
٥- ومتى أو في أي فترة زمنية ستجري الدراسة ؟
٦- وما مقدار المادة أو كم عدد الحالات التي سندرسها ؟
٧- وأي طرق جمع البيانات سنأخذ بها ؟،،،،،إلخ

وهكذا تتكون خطة الدراسة أو التصميم الدراسة من الاعتبارات التي تدخل في اتخاذ القرارات المتعلقة بماذا وأين ومتي وكم وبأي الوسائل....إلخ ، بحيث يفهم من ذلك كله أنه إذا توقعنا كل ما تحتاجه مشكلة البحث وأمكن لنا أن نقرر ما سنفعله مسبقاً بشأنها، فإننا بذلك سنزيد من فرصتنا في التحكم في عملية إجراء البحث.

وكما أن المهندس المعماري لا يستطيع أن يحتفظ بكل قراراته في ذهنه وحتى إذا استطاع ذلك فقد تواجهه صعوبة تصور ارتباط كل هذه القرارات ببعضها فإنه نتيجة لذلك يحرص على تسجيل قراراته مستخدما الرموز والرسومات وما إليها ، بمعنى أنه يسجل ويجد العلاقات المتداخلة بين قرارته إما في صورة رقمية أو بيانية أو في صورة نموذجية تأملية ، ويعتبر النموذج المعماري بمثابة تمثيل بالرسم يوضح العلاقات المتداخلة بين كل القرارات التي قد اتخذت .

ويستطيع المصمم في العلم الاجتماعي بالمثل أن يسجل باستخدام الرموز مختلف قرارات البحث التي يتخذها في صيغة واحدة ، ويطلق على هذا التصور أن البناء الرمزي الناتج والذى يتكون من مفاهيم وتصورات نموذج البحث أو استراتيجية أو مشروع أو خطة البحث كما قد أشرنا في بداية هذا الحديث.

ويعتبر تصميم البحث بمثابة التخطيط المنسق والمنطقي الموجه لمراحل البحث ، أو هو الخطة الشاملة لتتابع الخطوات التي يقصد الباحث إتمامها أو إنجازها لكى يحقق مجموعة أهداف بحثه . وقد ينظر إلى التصميم باعتباره تطبيقا إجرائيا للمنهج العلمي ، إذ يعين هذا التصميم منهج البحث والطرق التي يختار الباحث استخدامها في بحثه ، إلى جانب الفكرة أو الأساس النظري الذى يستند إليه البحث فضلاً عن كل الخطوات الإدارية لتنفيذ هذا التصميم كما تنطوي مسودة التصميم على توقع للطرق البديلة التي يحتمل اللجوء إليها في تنفيذ بعض خطوات البحث .... إلخ ، وهكذا يعتبر التصميم بمثابة وصف تفصيلي لقرارات الباحث ولأسباب كل قرار منها ، والتي يتخذها استناداً إلى معايير العلمية المتفق عليها.

ويفهم مما سبق أن عملية تصميم البحث ووضع خطته عملية تقوم في جوهرها على المعقولية والرشد وتحتاج إلى معرفة فنية متخصصة ، أكثر منها نوعا من الفن يمكن أن يكتسب من خلال الخبرة الشخصية والممارسة ، أو متابعة البحث أثناء قيامه بهذا العمل .

وكما يتلقى المهندسون المعماريون دروساً منظمة في عملية تصميم المنازل ويتسلحون بالمعرفة بخصائص مواد البناء التي يستخدمونها والبناء القائم على الجمع بين هذه المواد ، بحيث تفقد قدرة المهندسين المعمارين ويعجزون عن تحقيق أهدافهم النهائية بدون هذه المعارف المتخصصة.

فإن عملية تصميم البحث تتطلب بالمثل معرفة فنية متخصصة بالطرق البديلة وخطواتها وبمعايير تفضيل طريقة على أخري عند تناول مشكلات البحث، هذا كله إلى جانب القدرة علي الابتكار أيضا التي تتطلبها عمليات تصميم البحث وصياغة المفاهيم أو تصور الطرق والمناهج والأدوات وأساليب تحقيقها ..... إلخ.

ثانيا :وظيفة الخطة وأهمية التخطيط في البحث الاجتماعي :

١- وظيفة خطة البحث ٢- أهمية التخطيط للبحث

وقد يتساءل البعض هنا عن قيمة وضرورة وأهمية ووظيفة تصميم البحث أو وضع خطته ، أو قد يحذر البعض من أن تخطيط مشروع البحث قد يحتاج إلي قدر هائل من الوقت والموارد ، أو قد يرى البعض الثالث أنه يمكن للباحث أن يدخل إلي مشكلة بحثه ويقوم بجمع هذه البيانات حول هذه المشكلة التي يطرحها بحثه .

ولقد كشفت لنا الخبرة العلمية أن جهود البحث غير المخطط لها أو التي تأخذ بتخطيط جزئي غالبا ما تواجه بنوعين من الصعوبات فهي إما أن تنتهي إلى بيانات غير وثيقة الصلة بمشكلة البحث ، أو توصله إلى بيانات كثيرة إلي درجة يرتبك معها الباحث برغم أن هذه البيانات لها صلة مباشرة بمشكلة بحثه . وكثيرا ما يشكو الباحثون غير ذوى الخبرة قائلين (لدينا كل هذه البيانات ولكننا لا نعرف ما الذي نصنعه بها) ، والواقع أن التصميم يقصد به تجنب مثل هذه الصعوبات وغيرها.

١- وظيفة خطة البحث

يعد مشروع البحث أو خطته أمرا جوهريا يتوقف عليه نجاح البحث كما يتوقف بناء المنزل مثلا علي الرسم الهندسي الذي يقدمه المهندس المعماري ،ولا يستطيع أحد البدء في تشيد المنزل من خلال الشروع في حفر بئر في الأرض من أجل تأسيسه ولكن قبل الإقدام علي حفر هذه الأرض علي هذا النحو، هناك تساؤلات كثيرة يجب الإجابة عليها، وقرارات عديدة لا بد من اتخاذها: أي نوع من المنازل تخطط لبنائه؟ هل سيكون من نموذج: منزل من طابقين ، أم مزرعة مواشى ؟ كيف سيكون وضع المنزل علي موقع البناء؟ أين سيكون اتجاه الفتحات؟ وهكذا يمكن أن نستمر في طرح التساؤلات.. ولكل واحد من هذه التساؤلات اهميته النسبية ويجب الإجابة علي واحد منها خاصة قبل أن نتمكن من البدء في تشيد المنزل ، وحتي بعد أن تتخذ كل من هذه القرارات، فلا يمكن أن نبدأ الحفر في الحال لأنه لا تزال هناك جوانب أولية أخرى .

فالمهندس المعماري يرسم خطة البناء كله، ويوضح بنسب معلومة بالضبط أين سيكون وضع كل جزئية تفصيلية ولا يترك أي شيء للصدفة، طالما كان كل ذلك ممكنا ، وهذا ما يفعله بالمثل كاتب مشروع أو خطة البحث .

ففي القسم من مشروعه الذي يكون عنوانه البيانات ومعالجتها مثلا يشير بدقة إلى كل تفاصيل البيانات ومعالجتها إحصائيا وتفسيرها ، ومع استمرار المماثلة بعمل المهندس المعماري ، فإنه يقوم بعد ذلك برسم المسقط الرأسي للبناء، الذي يوضح الوجه الخارجي لكل الجوانب ويحدد بدقة كيف سيبدو البناء عند الانتهاء منه ، وهذا ما يفعله الباحث بدقة في رسم معالم الدراسة المقترحة في ذلك القسم المخصص لمشروع البحث .

ذلك لأنه في بناء المنزل بطريقة أخرى غير التي فرغنا من وصفها ودون سند من التصميم ، يحتمل أن تزيد التكاليف ، والتعرض للخطأ ويفتح مجالا للتخبط، كما يترتب علي هذه الطريقة التي تستند علي المحاولة والخطأ، صرف مبالغ كبيرة من المال ، وهناك أيضا في إجراء البحث حاجة في استثمار الوقت والجهد والمال، الأمر الذى يصعب تحقيقه بدون تصميم مخطط بوضوح ، لا يمكن أن تترك إجراء البحث للنزوة أو للصدفة ، وإنما يجب أن تتخذ قرارات هادفة وحكيمة ، وينظر بعين الاعتبار وبعناية إلي تفاصيل الإجراءات الهامة ويوضع التصميم قبل أن يشرع في أي عمل لجمع البيانات .

وينبغي أن يتم التفكير في كل خطوة هامة من خطوات العملية الشاملة للبحث ، ويجب أن تحدد كتابة وبوضوح كما أنه لا بد من إخضاع كل ذلك لنوع من التقييم والدراسة الأولية قبل البدء الفعلي في هذا العمل ، وتتمثل وظيفة مشروع البحث في إتاحة الفرصة لهذه الموضوعية والتفكير النقدي .

٢- أهمية التخطيط للبحث :

يعد التخطيط الواضح والمنسق أمرا جوهريا لإنجاح البحث علي كل مستوي وأهمية التخطيط لجهود البحث لا تقل عن أهمية البحث عن سبب المرض أو وصول الإنسان للقمر . وبرغم أن هذه المشروعات الأخيرة أكثر تعقيدا وتطورا عما قد تقوم بتخطيطه ، فإن هذا لا يغير الحقيقة القائلة بأن مشروع البحث محتاج إلى تخطيط منسق وشامل قبل أن يبدأ النشاط الفعلي ، ويعتبر مشروع البحث جوهر كل عمليات تخطيط البحث ، ويعد المشروع أمرا جوهريا لكل جهد يبذل في البحث مثلما يعتبر الرسم الهندسي أساسا لتشيد البناء فكل منهما عبارة عن خطة أساسية للعمل وكل منهما يتناول المشكلات ، ويحدد الموضوع ، والتعرف علي البيانات والمادة التي يجب استخدامها في حل الموضوع ويرسم معالم المنهج، الذي سيفاد به من المادة وسيتم به معالجة البيانات وتفسيرها .

ولمشروع البحث أهمية كبري من حيث أنه يمد البحث وغيره من المتهمين بالبحث بالفرصة لتقييم التصميم في جملته قبل إنفاق أي جهد ووقت أو استثمار أي مال في المشروع ، كما أن الفحص الواعي لمشروع البحث سيكشف عن قدرة الباحث علي التفكير في تفاصيل بحثه وسيوضح ما إذا كان قد استطاع تصور أبعاد هذه المهمة وما إذا كان قد أخذ في اعتباره المشكلات التي تنطوي عليه عملية التوصل إلي البيانات وما يلى ذلك من معالجة وتفسير .... ويحول مشروع البحث الجيد دون الوقوع في الخطأ، والشعور بالإحباط المترتب علي الجهد الذى أسئ توجيهه في بحث غير مفهوم، وكما تستطع النظر إلي الرسوم الهندسية وتوضح لنا ما إذا كان البناء المقترح سيكون كافيا للهدف الذي وضع من أجله ، فهكذا ومن خلال النظر بعناية إلى مشروع البحث يمكن أن يقول لنا الباحث ما إذا كانت مناهج البحث التي أشار إليها والبيانات التي سوف يوفرها ستؤدى إلي الحل المحتمل لمشكلته .

وتعتبر القدرة علي بناء مشروع بحث فعال بمثابة مهارة يتزايد الطلب عليها كما أن المقدرة علي عرض الأفكار من الاهمية بمكان مهما كان الميدان الذي يتخصص فيه الباحث . ويساعد كتابة مشروع البحث علي تركيز التفكير علي التفاصيل الهامة والحاسمة ، وعلي فصل القضايا المحورية وعلي الاهتداء إلي أفضل إجراء يمكن القيام به في حل المشاكل .

<u>ثالثاً : هدف وأسلوب البحث وخطته :</u>

يهدف مشروع البحث إلى عرض المشكلة المراد بحثها بوضوح وبدون غموض ، ومناقشة الجهود السابقة للبحث التي قام بها باحثون آخرون لتناول مشكلات ذات صلة بمشكلات البحث أو مشتركة معها ، وتحدد بدقة البيانات الضرورية لحل المشكلة ، وتشير إلي الكيفية التي ستعالج بها البيانات وتفسيرها علي وجه الخصوص . ويجب أن يشير مشروع البحث كذلك إلي أسباب الدراسة ، ويقدم فكرة عن الباحث ، ويشير إلي قائمة أساسية بالمراجع الصادرة في ميدان مشكلة البحث .

فلا يجب أن يكون مشروع البحث بمثابة عناصر محكومة بغير نظام ويعوزها الترابط . وإنما يبدأ مشروع البحث بقضية واضحة المعالم تعبر عن المشكلة المراد بحثها ، قضية تقف علي قدميها ولا تحتاج إلي أية دعامات تفسيرية . ولا تكون هناك ضرورة لمقدمة أو تمهيد أو توضيح للأسباب التي أصبح من أجلها الباحث مهتما بالمشكلة، أو يشعر بالحاجة الماسة إلى دراستها .

وينبغي أن نستبعد كل ما ليس من شأنه أن يسهم مباشرة في تناول المشكلة وحلها . ويشبه مشروع البحث الرسم الهندسي من حيث أنه واضح واقتصادي، ولا يحتوى إلا علي كل ما هو ضروري ويزيد علي ذلك من التفاصيل .

وليس الرسم الهندسي عملا فنيا، وكذلك مشروع البحث لا يعد من قبيل الإنتاج الأدبي، وذلك لأن مهمتهما ليست فنية ، وإنما يهدفان كلاهما إلى توصيل الفكرة بوضوح، وكما تعرض الرسوم الهندسية فكرة التشييد مع الاقتصاد في الخطوط والدقة في القياس ، فهكذا مشروع البحث يعرض المشكلة مع الاقتصاد في الكلمات والدقة في التعبير ويشير إلى الكيفية التي يجب بها إدارة مشروع البحث وانجازه ولا يعطى الفرصة للتعبير الفني أو التكوين الأدبي ولا التعبيرات اللفظية الزائدة عن الحد .وإنما على العكس تماماً ، إن مشروع البحث عموماً يكتب بأسلوب صارم ومعبر عنه بطريقة غير مثمرة ،ويتيح الفرصة للتعبير عن الأفكار والمعتقدات والإجراءات في قضايا واضحة ودقيقة ويتيح لكتابه فرصة توضح إلى أي حد يستطيع التعبير بوضوح ودقة عن مشكلة البحث .

وكيف يستطيع أن يصف بدقة الأسلوب العلمي في معالجة البيانات وبأي طريقة يستطيع تحقيق الصدق المنطقي لنتائجه . وعادة ما يتم تنظيم أفكار البحث من خلال أسلوب يعرف باسم تحديد المعالم ، وحيث توضع في هذا التنظيم الأفكار الأساسية قريبة من بعضها ثم توضع الأفكار الثانوية والأقل في الأهمية إلى جانب بعضها ويعطى لكل فكرة رقم يلى السابق لها ويوضح مستوى الاهمية النسبية لكل فكرة وإن كان لهذا الأسلوب عيوبه أو حدوده فهو لا يسمح إلا بالتعبير عن مجموعة من الكلمات أو بجملة مختصرة للدلالة على الفكرة .

وإن كان أسلوب الكتابة التقليدي للفقرات يسمح لنا باتباع طريقة العناوين التي يستطيع القارئ فهمها مباشرة بحيث يمكن تنظيم الأفكار بالاعتماد على طريقة العناوين والذى يبدأ بالعنوان المحوري الذى يعبر عن المشكلة الأساسية ، ثم العناوين الجانبية يلها عناوين الفقرات الفرعية .... وهكذا.

رابعاً : مكونات خطة البحث

هناك محاولات عديدة في تراث البحث الاجتماعي حاول بها أصحابها وضع تصميمات للبحوث متباينة وتحديد العناصر التي يجب أن ينطوي عليها التصميم المنهجي للبحث ، وكلها محاولات ، لها قيمتها في هذا الصدد . ولقد اتضح بناءً على هذه المحاولات أن هناك طرقا كثيرة يمكن الاعتماد عليها في تصميم وتحديد العناصر المكونة لكل خطة بحث .

ولكن لوحظ أن هذه المحاولات كانت تشترك فيما بينها في اعتمادها على معايير البساطة والمنطقية ، والمحافظة على سير الباحث في الطريق الصحيح المؤدي إلى بلوغ الهدف في تحديد عناصر الخطة وتنظيم مشروع البحث . وعلى ضوء هذه المعايير ، يتصور البعض عملية تصميم البحث باعتبارها تمر بعدة مراحل متعاقبة ، تمثل تتابع العمل الذى يلتزم به الباحث في ضوء مسودة التصميم هي :

١- تبرير البحث باعتباره حلاً للمشكلة .
٢- تاريخ المشكلة
٣- الاطار التصوري للمشكلة
٤- أهداف البحث
٥- المجتمع المدروس
٦- البيانات المطلوب جمعها
٧- إجراءات جمع البيانات
٨- تحليل البيانات التي تم جمعها
٩- تنفيذ البحث

وليس معنى هذا أن تصميم البحث الذى يشتمل على هذه المراحل هو وحده التصميم الصحيح أو الفريد ، وإنما يمثل تصميم البحث حلا وسطاً تمليه اعتبارات عملية كثيرة في مقدمتها بنوعية المشكلة التي يقوم ببحثها . والخلفية النظرية والمنهجية للباحث وما إليها.

ولهذا عندما يقدم الباحث تصميمه للأخرين في صورة مشروع بحث مكتوبة ، فإنه قد لا يلتزم بهذه الخطوات أو العناصر أو حتى بالتتابع الذى جاءت به . ومن هنا قد تختلف البحوث في درجة تركيزها على المراحل المتباينة لتصميم أو خطة البحث ، فقد يتطلب بعضها إعطاء الإطار التاريخي قدراً بسيطاً من الاهتمام ، بينما قد يكون لهذا الاطار في بحث آخر دوراً حاسماً في حل مشكلته ، ومع أخذ هذه التحفظات في الاعتبار يمكن أن نعتمد على هذا التصور لمراحل عملية تصميم البحث أو مكوناته ونعالج كل مرحلة منها بالتفصيل على النحو التالي :

١- التبرير Justification:

تبدأ عملة التصميم بمحاولة الباحث إيجاد صلة وثيقة بين البحث الذى يقترحه وبين النظرية ذات الصلة أو مشكلة التطبيق والبحث الذى يبدأ بعيداً عن هذه المحاور لا يصل إلى نتائج ذات قيمة نظرية أو تطبيقية ، اللهم إذا حدث ذلك اتفاقاً أو كانت له نتيجة غير مباشرة ومهمة الباحث في هذه المرحلة هي أن يحدد ما إذا كان البحث الذى يقوم به ضرورياً في الواقع لحل مشكلة ما تواجه التطبيق أو مدى أهميته في حل بعض المشكلات النظرية في نطاق تخصصه .

وتجعل مرحلة التبرير في عملية تصميم الباحث يحتاط من العمل في بحث ليس له فائدة محتملة في حل مشكلة أو غاية أو بلوغ هدف أياً كان أو من القيام بعمل لا يدفع له أي مقصد أو غاية .

٢- التاريخ Literature:

(أ) البيانات المتوفرة على مراحل زمنية والتي تكشف عن الاتجاهات التي صارت فيها المشكلة المدروسة .

(ب) الجهود السابقة في صياغة هذه المشكلة وتوضيح أبعادها ونتائج بحوث الأخرين في تقويم وسائل استخدمت سابقاً لتحيق أهداف مماثلة . ويمد الاستعراض التاريخي الباحث بالمعلومات عن كل ما هو معروف لكي يؤرخ لمشكلة الطرق المستخدمة في تناولها ويفيد مثل هذا الاستعراض في حماية الباحث من الاجابة على تساؤلات سبق أن توفرت عنها فعلاً اجابات من قبل أو على تساؤلات ليس هناك ضرورة لدراستها.

ومن هنا ، فإن المعلومات المتجمعة تمد أيضا الباحث بخلفية أو أساس لتحديد سير المراحل المتبقية من التصميم .

٣- الإطار التصوري:

تساعد الخبرة التي اكتسبها الباحث بنفسه من المرحلتين الاثنتين السابقتين لعملية تصميم البحث ، أن يقوم ببناء إطار منطقي لبحثه المقترح. وينبغي أن يتضمن مثل هذا الإطار كل من القضايا التي يسلم بها كمعطيات أو باعتبارها قضايا معروفة (وتمثل المسلمات التي يستند إليها هذا البحث المتوقع) وتلك القضايا التي ينظر إليها على أنها غير معروفة (ومن ثم فهي تتطلب برهان من خلال البحث).

وسيعين هذا الاطار :

أ - المتغيرات المعتمدة والتي تشمل هدف البحث .

ب- المتغيرات المستقلة والتي تضم وسائل تحقيق الأهداف.

ج- الصلات العلية أو السببية التي تربط بين هذين النوعين من المتغيرات وبالمتغيرات المحتملة الأخرى التي تدخل جانباً في التحليل ، ويحدد الإطار التصوري الحدود المنطقية للبحث ويمثل الدليل الذى يمكن به للباحث أن يحكم على ما هو ذا صلة ببحثه أو ما هو غير ذلك .

٤- أهداف البحث

كما يمكن الإطار التصوري الباحث من صياغة أهداف البحث الذى يخطط له . ونعنى بمصطلح أهداف البحث القضايا المحددة التي تمثل موضوع البحث . وتعد هذه القضايا بمثابة عبارات تتعلق بالعلاقة بين الأهداف والوسائل ذات الصلة بمشكلة البحث والتي تترتب مباشرة على الاطار التصوري وتأخذ صورة تساؤلات تحتاج إلى اجابة أو فروض مطلوب التحقيق منها ، وتحدد الوجهة التي يسير فيها البحث وكذلك تشير أهداف البحث إلى الوحدات التي تنصب عليها الملاحظة ، وما الذى يجب ملاحظته بصدد هذه الوحدات ؟ وكيف تتم عملية الملاحظات من أجل هذه تحقيق هذه الأهداف ؟ وتتبلور هذه القرارات في الخطوات الباقية من تصميم البحث .

٥- جمهور البحث :

ويتطلب تصميم مرحلة جمهور البحث اتخاذ أربع قرارات :

أ- تعيين وحدة الملاحظة.

ب- تصميم جمهور الوحدات الذين سيتم ملاحظاتهم.

ج - تنبي إجراء لاختيار أو ترتيب الوحدات من أجل الملاحظة.

د - تحديد عدد الوحدات التي ستلاحظ .

وينبغي على الباحث في انجاز هذه المرحلة أي يميز بين جمهور البحث أو المجموع الفعلي من الأشخاص والأهداف أو الأحداث الذين يخضعون للملاحظة ، وبين الجمهور الهدف Target Population الذين سيتمكن الباحث من أن يطبق عليهم فعلاً أدواته في البحث أو ملاحظاته وغالباً ما لا يكون هناك فرق بينهما وهذا يتوقف على درجة التماثل بينهما والتي تحدد المدي الذى يمكن به أن تنطبق نتائج ملاحظات جمهور البحث على جمهور الهدف.

٦- البيانات :

ينبغي على الباحث أن يعين البيانات التي يلزم جمعها من جمهور البحث ويتم تحديد البيانات من خلال التعرف على المفاهيم الأساسية التي يشتمل عليها منطوق أهداف البحث أو بعد بلورة تعريفات إجرائية على هذه المفاهيم.

وتأخذ هذه التعريفات شكل المتغيرات ، والتي تشير بدورها إلى البيانات المطلوب جمعها . وتفيد هذه المجموعة من التحديدات المفصلة في حماية الباحث من جمع بيانات غير ضرورية أو ليس لها صلة في الموضوع في النهاية .

٧- جمع البيانات .

ومع تحديد البيانات التي يجب جمعها ، ينبغي على الباحث أن يقرر فيما بعد الاجراءات المناسبة لعملية جمع البيانات ، مع أخذ ظروف البحث في الاعتبار ويجب عليه أن يصف بالتفاصيل الأساليب اللازم استخدامها والادوات وتعاقب الخطوات التي يجب اتباعها في استخدام هذه الطرق والأدوات وإذا كان لا بد من استخدام أدوات معينة ، يجب أن يقوم بوصف طرق بناء هذه الأدوات ، وسوف يتوقف على تصميم إجراءات جمع البيانات لدرجة كبيرة ثبات وصدق البيانات التي تجمع.

٨- تحليل البيانات :

وعندما يتم مراجعة البيانات التي يتم جمعها على الباحث في نفس الوقت أن يحدد الاجراءات المناسبة لتحليلها ، وهنا عليه خاصة أن يقرر كيف سيتم تصنيف البيانات وتنظيمها في مجموعات من المتغيرات المحددة ؟ وكيف يتم التأكد من

وجود نوع من العلاقة بين المتغيرات ؟ ولاتخاذ مثل هذه القرارات ، يتوقع الباحث بعض النتائج التي تتطلبها أهداف البحث وعلى هذا الأساس يختار الاجراءات التي يحتمل أن توصل إليها . وفى الحقيقة تمثل هذه الخطوة لتحليل البيانات اختباراً حقيقياً لتصميم البحث والذى يتطلب أيضا من الباحث أن يتوقع حدود الاستنتاجات التي سيستخلصها .

٩- إدارة وتنفيذ البحث :

في اللحظة التي يعرف فيها الباحث الجمهور المدروس ، وطبيعية البيانات التي يجب جمعها وأنواع الاجراءات المستخدمة في جمع وتحليل هذه البيانات هنا يتوفر للباحث أسس لاتخاذ سلسلة من القرارات الإدارية .

فعلى الباحث أن يقدر المال والوقت والأفراد والتنظيم الذى سيتطلبه البحث المقترح. ويلاحظ أن طبيعية هذه القرارات هي التي ستحدد ما إذا كان هذا البحث ملائم أو معقولا وهى التي تعين لنا الفوائد تعود علينا من بحث مخطط مثل هذا الأمر الذى لا يمكن التوصل إليه بدونه ، على أنه يجب أن تزيد هذه الفوائد على التكاليف الإدارية لأجراء هذه الدراسة وهذا لا يمنع أحياناً من أنه قد تفوق تكاليف التوصل إلى نتائج البحث كثيراً الفوائد المترتبة عليه .

وقد ينظر إلى هذا العدد الفعلي من مراحل التصميم المشار إليها سلفا على أنه ينطوي على نوع من التعسف. وقد يختلف الباحثون ذو الخبرة وهيئات التمويل عن بعضهم الأخر في هذا الصدد.. وهكذا ، قد يجمع بعضهم مثلا بين المرحلتين الثالثة والرابعة (الإطار التصوري ، وأهداف البحث) في مرحلة واحدة. وقد يجمع غيرهم بين المرحلتين (٧ ، ٨) ونعنى جمع البيانات وتحليل البيانات في مرحلة واحدة ، وبالمثال قد يختلف الباحثون فيما بينهم في تأكديهم النسبي على المراحل المتباينة ولكنهم في النهاية يعتبرون المراحل من ٤ إلى ٩ (أهداف البحث وجمهور البحث. وتحديد البيانات وجمعها وتحليلها ،وإدارة البحث) وهى الجوانب الفنية في البحث يعتبرونها بمثابة جوانب جوهرية في تصميمه .

وقد يحذف الكثيرون المراحل الثلاث الأولى (التبرير ، والتاريخ ، والإطار التصوري) غير أن هذا الموقف الأخير في انتقادنا ينطوي على غلطة خطيرة ، لأننا نرى أن لهذه المراحل الثلاث الأولى من تصميم البحث أهمية خاصة بالنسبة للبحث العلمي ، وذلك لأن الفشل في تقديم تبرير للبحث معناه تعريض الفائدة المحتملة للبحث المقترح للخطر.

وعدم استعراض تاريخ مشكلة البحث قد ينجم عنه إعادة اكتشاف الباحث لخبرة موجودة بالفعل ، كما أن القيام بالبحث دون إطار تصوري يعنى العمل بدون معيار للصدق والذى سيجعل من الصعب في النهاية على الباحث أن يميز بين نتائج البحث الصادقة لتحقيق أهدافه وتلك غير الصادقة .

وكما أشرنا سلفا أن الترتيب الذى قدما به مراحل التصميم قد يختلف عن الترتيب الذى تنظم به مشروعات البحث الأخرى ، غير أن التتابع الذى استخدمناه يعد بمثابة التتابع العلمي والفعلي المعمول به عند التخطيط للبحث. وعندما يقوم الباحث بكتابة مشروع البحث يمكن له أن يعيد ترتيب هذه المراحل ليتناسب ما تمليه عليه الهيئة الممولة والتي ستلتزم به أو تحقق المستويات المطلوبة .

وعموماً يجب أن يكون التصميم ملائماً للوقت المتاح للبحث والطاقة والمال المخصصين له ، ومتمشياً مع إمكانية توافر البيانات اللازمة ، وتعاون الأشخاص أو التنظيم الاجتماعي الذى نلجأ إليه للحصول على البيانات المطلوبة .

خامساً : خصائص الخطة

وقد يفهم البعض من عرض مكونات الخطة ومراحل تصميم البحث على النحو السابق أن خطة البحث ما هي إلا سلسلة من الخطوات المحددة والمتعاقبة أو المتراكمة ، الأمر الذى قد يضفي عليها طابع والاستاتيكية ، غير أن المفهوم الحديث للبحث وخطته بالتالي قد أوضح لنا الطبيعية الدينامية التي يمتاز بها الباحث . فمن أهم خصائص خطة البحث وتصميمه

أنها تعد في واقعها عملية دينامية وبمعنى أنها من ناحية قابلة للتغيير Tentative ، ومن ناحية أخري تنطوي على تفاعل وتأثير متبادل بين عناصرها ، أو مراحلها ، أو مكوناتها :

١- إذ يعتبر تصميم البحث أو خطته أمراً قابلا للتغير باستمرار ، وتمر هذه الخطة بتعديلات وتغيرات كلما تقدمت الدراسة وتعمق الاستبصار بموضوعها حيث أنه كلما تقدم العمل في هذه الدراسة ظهر إلى النور جوانب جديدة لم تكن معروفة منذ البادية وحدثت ظروف جديدة لم تكن متوقعة وتكشفت علاقات وثيقة ، ولذلك كان من الضروري تغيير الخطة كلما استعدت الظروف ذلك.

. لذلك قرر البعض أن جمود وتعقيد وعدم مرونة الخطة يمكن أن يقضى تماماً على فائدة البحث في جملته . كما أن الانغلاق يمثل خطر يهدد التصميم ، ولذلك ينبغي أن يكون الباحث متفتحاً ومدركاً للحاجة إلى إدخال تعديلات على تصميم البحث أثناء تنفيذيه ، ومن هنا كان البحث الذى أحسن تصميمه على النحو الذى يسمح بالتعديل أكثر احتمالا لتحقيق الأهداف من غيره الذى يفتقر إلى مثل هذا النوع من التصميم .

٢- ويعتبر تصميم البحث أو خطته بمثابة عملية دينامية تنطوي على تفاعل وتأثير متبادل بين عناصرها أو مراحلها :

فمثلاً تتبع منطقياً المراحل الثلاث الأولى – التبرير – التاريخ – والإطار التصوري – الواحدة منها تسبق الأخرى أو تسهم في عملية تعيين أهداف البحث في المرحلة الرابعة كما تنطوي عملية التطبيق الفعلي للخطة على عمليات تفاعل هام أو تتداخل أو تأثير متبادل . فمثلا، يترتب على استعراض تاريخ المحاولات السابقة لمعالجة المشكلة المدروسة بالضرورة تعديل في الطرق البديلة والمحدودة فى الخطوة الاولى .

وبالمثال ، عندما يحاول الباحث بلورة الإطار التصوري فسوف يطرأ على فهم الباحث للمشكلة (في المرحلة الأولى) بالضرورة بعض التعديل – لذلك من المفيد أن ننظر إلى هذه المراحل الثلاث باعتبارها مجموعة فرعية ونقوم بتنفيذها على المشروع المكتوب على أنها عملية فرعية واحدة وهكذا قد يكتب الباحث بعض الملاحظات فقد على مبررات البحث مبنية على اكتشافه بطرق عمل بديلة ومعقولة

ويستمر بدلا من ذلك في عرضه التاريخي لمحاولات التي عالجت المشكلة والتي توضح ما تنطوي عليه من علاقات محتملة قبل أن يبدأ في كتابة عباراته التبريرية واستعراضه التاريخي الاطار التصوري كل في صورته النهائية
وبالمثال، هناك قنوات تأثير متبادلة هامة وتكون عمليات فرعية بين المراحل المتبقة من عملية التصميم ، إذ يشير تعيين أهداف البحث في المرحلة الرابعة إلى الوحدات التي تمثل موضوع البحث ، وإلى خصائص هذه الوحدات التي يجب ملاحظتها وإلى طريقة التي تتم بها هذه الملاحظة وكفية تطبيق منهج البحث .

وهكذا ، يترتب على العبارات الموضحة لأهداف البحث في المرحلة الرابعة خطوطاً إرشادية نحو جمهور الدراسة في المرحلة الخامسة وتحدد البيانات التي نحتاج إلى جمعها (المرحلة السادسة) وإلى إجراءات جمع هذه البيانات (المرحلة السابعة) وكيفية تحليل البيانات (المرحلة الثامنة) وكل هذه الوجبات العملية ينظر إليها عادة باعتبارها تكون تصميم البحث الفعلي ، ولكن هنا ثانية تؤثر كل واحدة من هذه المراحل المتتابعة في غيرها بحث تسهم في تعديل العبارات الموضحة لأهداف البحث (فى المرحلة الرابعة) .

فمثلاً ، في تحديد جمهور الدراسة ، يجب أن يجد الباحث مجموعة من وحدات الملاحظة والتي يكون من السهل فعلا إجراء الملاحظة عليها وهذا الجمهور الذى يمكن التواصل إليه قد يختلف من بعض الجوانب عن ذلك الذى قصد إليه في العبارات الموضحة لأهداف البحث . ولكن طالما كان هو الجمهور الذى يمكن التواصل إليه والذى ستنطبق عليه النتائج فإن هذه الاختلافات يجب أن تؤثر في المرحلة الرابعة أو يكون لها نتائجها على هذه المرحلة بحيث تعدل العبارات الموضحة لأهداف البحث طبقا لذلك .

وبالمثل في الخطوة السادسة عندما تتم صياغة المفاهيم التي تنطوي عليها العبارات الموضحة لأهداف البحث بطريقة إجرائية في صورة متغيرات يمكن قياسها أو ملاحظتها فإنها تأخذ معاً أكثر دقة وأحياناً أكثر اختلافا بعض الشيء عن تلك المعاني التي تنطوي عليها صورتها الأصلية . وهذه الاختلافات قد يكون لها أثارها المنعكسة على المرحلة الرابعة ، حيث تعدل العبارات الموضحة لأهداف البحث طبقاً لذلك وعندما يتم في المرحلة السابعة تصميم إجراءات جمع البيانات ،

قد تتطلب ظروف معينة مثل خصائص وحدات الملاحظة والأخذ بأساليب ملاحظة معينة من شأنها أن تحدد الجمهور الذى يتم ملاحظته ، والبيانات التي تجمع ، ولذلك فإن هذه التعديلات لها تأثيرها المرتد على المرحلة الرابعة ، حيث تعدل أهداف البحث طبقاً لذلك وهناك بين المراحل (٦ ، ٧ ، ٨) تأثيرات متبادلة من نوع خاص ، إذ يعتمد التحديد الإجرائي للمفاهيم التي نحتاج إلى ملاحظتها أو قياسها والتي أخذ بيها في المرحلة السادسة ، تعتمد لدرجة كبيرة على الإجراءات التي نأخذ بها لجمع هذه البيانات ، ذلك القرار الذى يتخذ في المرحلة السابعة ، وبالمثال سوف تؤثر القرارات التي تم التوصل إليها في المرحلة الثامنة (تحليل البيانات) على الصورة التي يتم بها جمع البيانات في المرحلة السابعة. وتحدث كل هذه الخطوات بعض التعديلات في الأدوات المستخدمة . كما يجب أن يكون لها تأثيرها المنعكس على المرحلة السابعة ، حيث يمكن إدخال تعديلات أخرى طبقاً لذلك . والخلاصة أنه برغم أن الباحث قد يعالج قرارات المراحل الثلاث بترتيب ، إلا أن نتائجه يجب أن ينظر إليها باعتبارها قابلة للتعديل حتى ينتهى من اتخاذ قراراته في هذه المرحلة الفرعية ، وهكذا ينصح بتنفيذ المراحل (٦ ، ٧ ، ٨) باعتبارها وحدة فرعية .

وتقف المرحلة التاسعة عموما باعتبارها خاتمة عملية تصميم البحث ، معتمدة على القرارات المتراكمة التي اتخذت في كل المراحل السابقة . وحتى هنا ، على أية حال لا نجد استثناء : فعندما تكون الموارد المتاحة لإجراء البحث ثابتة ومعروفة منذ البداية ، فإن هذه الحقيقة يجب أن يكون لها تأثير مرتد على المرحلة الرابعة لدرجة أن الجوانب الإجرائية من تصميم البحث في المراحل (٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨) يمكن أن تتأثر بالقيود المالية وعلى أي الأحوال وبعد ما يتم تقدير تكاليف إجراء البحث في المرحلة التاسعة ، فإن هذا التقدير يجب أن يكون له أثاره المرتدة على المرحلة الأولى كاختبار نهائي لمبررات البحث المقترح ، ويحدد ما إذا كانت تكاليفه تتجاوز فوائده المتوقعة أم لا .

ولذلك ، من المهم علي الباحث أن يجعل التصميم مرنا في كل مرحله من مراحل هذه العملية ، وبدلا من أن يضع عبارات نهائية توضح كل مرحله منها ، يجب علي الباحث الواعي أن يقتصر في كل قسم علي الخطوط المبدئية. وبعد ذلك واستناد إلي المرحلة الأخيرة، يمكن له أن يعود ويعين القرارات ويعدلها لتناسب بعضها الآخر في تصميم نهائي متكامل. ويلاحظ أن هذه المراحل التسع والتي قصد بها أن تكون موجهات عامة قد تم التعبير عنها بمصطلحات عامة لكي تناسب معظم مشروعات البحث وإن لم يكن كلها.

ويضطر الباحث أن يحدد توقعاته للظروف الفعلية التي يحتمل أن تواجهه في كل مرحلة من مراحل البحث عند وضع مسودة التصميم، ومن ثم يعتبر البحث في جوهره بمثابة تقرير وضع مبدئيا ليوضح هذه القرارات الكثيرة قبل أن تواجهنا هذه الظروف الخاصة. ولكن حتى الباحث الأكثر خبره لا يستطيع أن يتنبأ بكل صعوبة يحتمل أن تنشأ في أثناء البحث المخطط، وهذا ما يفسر أهمية الدراسة الاستطلاعية لتصميم البحث أو التطبيقات علي نطاق ضيق التي يمكن من خلالها أن يتعرف الباحث علي العقبات والتي ستزيد-لا محالة- من استبصاره إذ تمكن المعلومات التي توفرها دراسة استطلاعية واحدة الباحث من أن يعدل تصميم بحثه أو يعيده.

ومع هذا ، وحتى عندما يكون البحث مناسبا وقابلا للتطبيق في النهاية فإن الباحث سيكون مضطرا إلى اتخاذ بعض القرارات والتي برغم العناية الفائقة بها لا يمكن له أن يتنبأ بأهميتها.

ولهذا يعد تصميم البحث الذي أحسن كتابته بمثابة نتاج لقدرة كبيرة علي الملاحظة والقراءة والتشاور والتفكير في المشكلة المدروسة وفي أسلوب تناولها وقتا طويلا.

أسئلة المحاضرة الثالثة

س١/ ((هناك محاولات عديدة في تراث البحث الاجتماعي حاول بها أصحابها وضع تصميمات للبحوث متباينة، هذه المحاولات كانت تشترك فيما بينها في اعتمادها على معايير البساطة والمنطقية))

عدد/ عددي مكونات خطة البحث مع شرح ثلاثة منهم

س٢/ تحدثي / تحدث باختصار عن خصائص خطة البحث الاجتماعي؟

المحاضرة الرابعة

تمهيد :

يمثل البحث الاستطلاعي أحد صور البحث الاجتماعي، ويقف بمثابة حلقة أولى في سلسلة الحلقات التي تنقسم إليها هذه الصور المتباينة للبحث الاجتماعي، ويتخذ هذا النوع من البحوث وضعا متميزا بين غيره من البحوث الاجتماعية استنادا .

- **أولا :** إلي مجموعة الأهداف التي يختص بتحقيقها دون غيره من أنواع البحوث الأخرى ،
- **وثانيا:** أهميته الجوهرية في ميدان النظرية الاجتماعية
- **وثالثا:** إلى اعتماد أنواع البحث الاجتماعي الأخرى عليه.

وتأسيسا على هذا التمايز في الأهداف والأهمية للبحث الاستطلاعي، ينفرد هذا النوع من البحث باعتماده علي مجموعة من الإجراءات المنهجية التي تعينه علي تحقيق هذه الأهداف وتأكيد تلك الأهمية. حيث يعتمد البحث الاستطلاعي علي أساليب مسح التراث أولا، ثم يفيد من عملية استشارة ذوى الخبرة، وأخيرا يجرى دراسة حالة متعمقة لبعض الحالات المفيدة في هذا الصدد.

والواقع أن التطور في نطاق البحث الاجتماعي عموما وأنواع البحث الاجتماعي بوجه خاص الذى نشهده اليوم .، قد انعكس علي تلك الاساليب المنهجية، وأضاف إليها أبعادا جديدة أسهمت في توضيح طبيعة كل إجراء منهجي منها، وتنوع الوسائل التي يفيد منها وكيفية تطويعه لأهداف البحث الاستطلاع.

ولهذا خصصت الفصل الحالي لمناقشة الكيفية التي يمكن بها تصميم البحث الاستطلاعي من خلال توضيح طبيعة هذا البحث وعلاقته بالبحوث الاجتماعية الأخرى والإجراءات المنهجية التي ينبغي اتباعها في تصور التصميم المنهجي له ، والإشارة إلي بعض الأمثلة التطبيقية في إجراء البحوث الاستطلاعية.

أولا: البحوث الاستطلاعية بين البحوث الاجتماعية الاخرى

توضح العناوين التي وضع تحتها هذا النوع من البحوث، الاستطلاعية والاستكشافية (Expiratory) طبيعة هذه البحوث وتبين أن التركيز الأساسي لها ينصب على اكتشاف الأفكار الجديدة والاستبصار المتباينة التي تعين على فهم المشكلة المدروسة في البحث . وهذا التوصل إلي الاستبصارات أو بلورة فروض، دون محاولة اختبار هذه الفروض أو حتي التدليل على صحتها. والواقع أن هذا التحديد للبحث الاستطلاعي يمكن أن يفيدنا في توضيح علاقة البحث الاستطلاعي بالبحوث الاجتماعية الأخرى، فإذا كانت هذه البحوث الاستطلاعية تختص بمهمة استكشاف الفروض فإنه يمكن النظر إلى هذه البحوث الاستطلاعية باعتباره أول خطوة في سلسلة البحث الاجتماعي ، وأن هناك أنواع أخرى من البحوث تنصرف باهتمامها نحو اختبار إمكانية تطبيق أو التحقق من صحة وسلامة تلك الفروض التي قامت الخطوة الأولى في البحث – ونعنى البحث الاستطلاعي- ببلورتها.

وعلى هذا ينظر إلي البحث الاستطلاعي في ذاته باعتباره خطوة أساسية بين مجموعة خطوات أخرى تنطوي عليها عملية البحث الاجتماعي المستمرة، ويتوقف العمل في مراحل البحث الأخرى التي تلى الدراسات والبحوث الاستطلاعية، وخاصة

الاختيار الواعي للمناهج التي يعتمد عليها في البحوث الأخرى، في جانب كبير منه، علي البداية الصحيحة والملائمة التي يخطوها البحث الاستطلاعي، كما يتوقف علي فعالية هذه الخطوة في التغلب عاي المشكلات والصعوبات التي قد تواجهها تلك المجموعة من البحوث الأخيرة .

ثانيا: أهداف البحث الاستطلاعي وأهميته

تهدف الكثير من البحوث الاستطلاعية إلي بلورة مشكلات تحتاج إلى بحوث أكثر دقة فيما بعد. كما تهدف هذه البحوث الاستطلاعية إلي بلورة بعض الفروض حول هذه المشكلات، ولكن هذا لا يمنع من أن يكون للبحث الاستطلاعي بعض الوظائف الأخرى، حيث أنه قد يهدف إلى زيادة ألفة الباحثين بالظواهر التي يرغبون في تعميق دراستها بإجراء بحوث آخري أكثر دقة في مواقف يطلون لإجراء بحوثهم المستقبلية حولها، وكذلك قد يهدف البحث الاستطلاعي إلى توضيح بعض المفهومات ، فضلا عن أنه يهدف إلي تحديد الأولويات بين الموضوعات التي تحتاج بحوث مستقبلية أو قد يهدف كذلك إلي جمع معلومات تتعلق بالإمكانيات الفعلية اللازمة لإجراء بحوث علي مواقف الحياة الواقعية، وكذلك قد يهدف البحث الاستطلاعي إلى إحصاء المشكلات التي قد ينظر إليها المشتغلون بأحد الميادين الاجتماعية باعتبارها مشكلات ملحة تحتاج إلي بحث فورى.

وتفرض ظروف الحداثة النسبية التي تميز علوم المجتمع وكذلك ندرة البحوث الاجتماعية ، ضرورة إجراء المزبد من مثل هذه البحوث الاستطلاعية، ولهذا فإن البحوث الاستطلاعية، ستظل تلعب دور الريادة في مجال البحث الاجتماعي لفترة طويلة، ذلك لأن الباحثين في مجال العلوم الاجتماعية يواجهون بعض الصعوبات خاصة تلك المتمثلة في طابع العمومية الذي لازال يميز النظرية في هذه العلوم والذي يحتاج إلي توفير مزيد من الشواهد والأدلة الواضحة من خلال البحث الإمبريقى، ويحتل البحث الاستطلاعي في إطار هذه الظروف مكانة هامة وذلك بفضل ما يعاق عليه من أهمية في توفير تلك الخبرة الواقعية التي ستكون لها فائدتها في بلورة الفروض المناسبة والتي تحتاج إلى بحوث أكثر تعمقا بعد ذلك، فلنفرض مثلا أن لدينا اهتماما بالتوصل إلي قدر من الفهم والاستبصار بالعمليات التي تؤثر من خلالها البيئة الاجتماعية في الاضطرابات السيكولوجية وبالرغم من توفر الكثير من الكتابات التأملية حول هذا الموضوع .

وكذلك وجود بعض البحوث الواقعية ذات الصلة غير المباشرة بهذا الموضوع، فقد يجد القائمون بالبحث الذين يدخلون إلي هذا المجال أنفسهم في موقف لا يسمح لهم بتقديم أية فروض دقيقة تتصل بهذا البحث .

وتصبح هذه المهمة شاقة وصعبة المنال إذا أقدموا على هذا العمل بدون تسلحهم ببعض المعرفة المتعلقة بهذا المجال والمرتبطة بالمتغيرات الاجتماعية الرئيسية التي تؤثر في الاضطرابات السيكولوجية، وكذلك المعرفة التي تدور حول المواقف التي تحدث فيها مثل هذه المتغيرات. ولهذا توصف كل محاولة مسبقة في هذا المجال لبلورة بعض الفروض بالسذاجة، ومن ثم تكتسب الدراسة الاستطلاعية أهميتها في هذه المواقف التي يدور فيها البحث حول مشكلات لم يتوافر بصددها القدر الكافي من المعروفة بحيث يكون من المناسب تناول هذا النوع من المشكلات استنادا إلى إجراءات البحث الاستطلاعي .

ومن المؤسف مع هذا ان نجد هناك بين المشتغلين بالبحث الاجتماعي اتجاها للتقليل من أهمية البحوث الاستطلاعية والنظر إلي البحوث التجريبية علي أنها تمثل النوع الوحيد من البحث الذي يكتسب صفة العلمية. والواقع أنه إذا كان للبحث التجريبي قيمة نظرية أو اجتماعية فإن هذه القيمة مستمدة من توفر مجموعة من القضايا الأعم من تلك التي تتناولها التجارب والتي

يمكن استخلاصها من خلال الكشف المدقق عن أبعاد المشكلة وزيادة الاستبصار حولها، وهذا ما يختص به البحث الاستطلاعي.

ولقد أشار نورث روب (north rop) إلى أنه كثيرا ما ينغمس الباحثون في تناول موضوعات دراساتهم ، ويرسلون الاستبيانات، ويجمعون كما هائلا من المعطيات، أو حتي قد يجرون تجارب توصلهم في النهاية إلى مجموعة نتائج لا تحقق الأهداف التي يسعون إليها بقدر ما تثير في نفوسهم التعجب والتساؤل عن ما الذى يبرهن عليه كل هذا الجهد، كما قد يتأثر البعض الآخر بمدى النجاح الذى يحققه منهج علمي معين في أحد الميادين ثم يتسرعون في تطبيق هذا المنهج بدون تيقين من جانبهم بطبيعة هذا المنهج ، الأمر الذى يوصلهم إلى نتائج أخري قد يقفون إزاءها متعجبين . وتدل كل هذه الخبرات على أنهم قد أخذوا في الشروع في البحث وأقدموا على هذا الجهد دون حرص منهم على تقدير أهمية البحوث الاستطلاعية التي يمكن أن يتجنب معها الباحثون كل هذا التعجب والدهشة ، باعتبار هذا النوع من البحث قد يعيننا فى التعرف على إمكانية الاستفادة من تلك الاجراءات المنهجية قبل الاعتماد عليها فى البحث .

ثالثاً: الاجراءات المنهجية فى تصميم البحث الاستطلاعى:

هناك عدد من الإجراءات المنهجية المحدودة التي اتضح انها أكثر إثماراً في التعرف على المتغيرات الهامة وفى التوصل إلى الفروض ذات المغزى والاهمية ، أو بعبارة أخري ، هناك بعض الاجراءات المنهجية التي تسهم في مساعدة البحث الاستطلاعي على تحقيق أهدافه ، والقيام بدوره في نمو المعرفة ، ولذلك من المتوقع أن تشمل كل محاولة لوضع استراتيجية منهجية للبحث الاستطلاعي أو اختيار الاجراءات المنهجية في تصميم هذا النوع من البحث ، على مثل هذه الاجراءات المنهجية .

وتشتمل هذه الاجراءات المنهجية على :

١. مسح تراث العلم الاجتماعي الذي له صلة بالموضوع المدروس ، وكذلك جوانب التراث الأخرى التي تسمح لنا باستخلاص نتائج تلقى الضوء على هذا الموضوع .
٢. مسح الخبرات العلمية بين الأشخاص الذين اهتموا بالمشكلة موضوع الدراسة .
٣. دراسة بعض الحالات التي تثري من فهمنا وتزيد من استبصارنا بالمشكلة المدروسة .

وقد تستفيد معظم الدراسات الاستطلاعية من واحد أو أكثر من هذه الاجراءات المنهجية في وقت واحد. ولكن مهما كان الإجراء المنهجي المستخدم والمختار في هذه الدراسة فإنه ينبغي أن ينطوي هذا الاستخدام على قدر من المرونة ، حيث أنه من الضروري مع كل تغيير يطرأ على المشكلة المدروسة من حالة كانت تتسم فيها المشكلة بالغموض في البداية إلى حالة تكتسب فيها المشكلة معنى أكثر دقة ، من الضروري أن تتغير أيضا إجراءات البحث لتناسب جميع المعطيات التي تسمح ببلورة الفروض المتعلقة بهذه المشكلة ، والتي تعيين في الوقت نفسه على أخذ الجوانب المتباينة للمشكلة المدروسة في الاعتبار.

١- مسح التراث:

تستند أهمية عملية مسح التراث إلى المكانة المتميزة التي يضيفها هذا العمل على الباحثين ، ذلك لأنه كلما ذاد مقدار ما يعرفه الباحث من نتائج البحوث ذات الصلة بدراسته ، زادت قدرته على تناول مشكلته وإلقاء الضوء عليها. وتهدف هذه

العملية عموما إلى إعادة النظر مرة ثانية فيما هو متاح من تراث (التقارير التي أعداها أخرون) في الميدان المتعلق بموضوع البحث أو حتى في ميدان أخر يمكن أن تثري فهمنا بهذا ا لموضوع.

ولعملية مسح التراث أهداف عديدة ، فهي تساعد الباحث وتعيينه على تناول مشكلة بحثه ، باعتبارها محوراً لكل جهود البحث ، ذلك أنه في اللحظة التي يكون فيها الباحث قد اختار مشكلة معينة فإنه ينبغي أن يتجه بكل جهده نحو البحث عن حل لهذه المشكلة . ويساعد وقوف البحث على ما قام به غيره من جهد في هذا الصدد ، على مده بالاستبصار والمعرفة المناسبة التي تعينه على تناول هذه المشكلة . **ويمكن لمسح التراث أن يفيد الباحث من النواحي التالية :**

- يمكنه من الكشف عن النتائج التي توصل إليها باحثون سبق أن تناولوا هذه المشكلة وتوضيح كيفية معالجتها لما ينطوي عليها هذه المشكلة من مواقف.
- يمكنه من الإشارة إلى المنهج أو الطريقة التي يمكن بها معالجة موقف المشكلة كما يمكن أن تقترح عليه أساليب التغلب على الصعوبات المماثلة التي يحتمل أن تواجهه .
- يمكن أن يوضح للباحث مصادر المعطيات أو البيانات التي قد لا يعلم عن وجودها شيئا.
- يمكن أن يعرفه بالباحثين الذين يشهد لهم بالكفاءة والأهمية ، والذين قد يعلم الباحث عن جهودهم في البحث أي شيء.
- يساعد الباحث على أن يكون نظرة تاريخية مقارنة بمشكلة بحثه من خلال ربطها بالمحاولات السابقة التي تناولت نفس المشكلة أو مشكلة شبيهة .
- يمكن أن يمد الباحث بأفكار جديدة ومداخل لم يسبق له العلم بها .
- يمكن الباحث من تقييم جهوده في البحث بالمقارنة بينها وبين الجهود المماثلة الأخرى ذات الصلة .

وعموماً تنحصر مهمة مسح التراث في الوقوف على النقاط التي انتهى إليها الأخرون قبلنا ، والتعرف على أهم أوجه النشاط التي كانت تشغلهم .

ولهذا كله ، تعتبر عملية مسح التراث والتأسيس على الجهود التي قام بها بالفعل باحثون أحرون من بين أهم الطرق التي يمكن من خلالها الاقتصاد في الجهد المبذول في أي بحث . وفى الدراسة من النوع الذى نناقشه هنا ينصب المسح على الفروض التي يمكن أن تؤدى إلى بحوث أخرى في المستقبل . وهذه الفروض يعبر عنها صراحة باحثون سابقون في كتاباتهم المختلفة. ومن ثم فإن مهمة مسح التراث هنا تنحصر في عملية جمع تلك الفروض المتباينة والتي سبق التوصل إليها وذلك حتى يمكن تقييم فائدتها كأساس لإجراء بحوث أخرى في المستقبل ، والنظر في إمكانية أن تساعد هذه الفروض على بلورة غيرها من الفروض الجديدة ، خاصة وأنه كثيراً ما تهتم البحوث الاستطلاعية بالمجالات التي لم يتم بعد بلورة فروض حولها ، ولذلك فإن مهمة مسح التراث هنا تنحصر في التعرف على المادة المتاحة والمعطيات المتوفرة وتحسس الفروض التي يمكن اشتقاقها من تلك المادة.

وتأسيساً على هذه الأهمية والاهداف التي يسعى إليها مسح التراث كإجراء منهجي في تصميم البحوث الاستطلاعية ، قد تثار تساؤلات مؤداها : ما هو هذا التراث الذي نقدم على مسحه ؟ وأين نجده؟ وكيف يمكن مسحه والإفادة منه ؟

والواقع أنه إذا سلمنا بأن الهدف العام للبحث الاستطلاعي يتمثل في محاولة بلورة فروض عملية تتعلق بمشكلة جديدة بالنسبة لنا أو مشكلة أخري تقل خبرتنا النظرية أو التطبيقية بها ونريد أن يزداد فهمنا لها من خلال هذه الفروض ، فإن حديثنا السابق عن الفروض العلمية ومصادر تكوينها ، التي تنحصر في نتائج البحوث السابقة ، والنظريات العلمية ، والكتابات

الأدبية والتاريخية والفلسفية ، قد يساعدنا في التعرف على طبيعة التراث الذى ينبغي أن نرجع إليه ونجرى الاستعراض اللازم لهذه الدراسة الاستطلاعية.

إذ هناك مصادر متباينة تمدنا بالمزيد من المعلومات المتعلقة بنتائج البحوث السابقة وخلاصة المناقشات النظرية وتصدر في صور بحوث أو مقالات علمية أو ملخصات أو غيرها ، ويمكن أن نذكر من هذه المصادر : الفهارس Indexes والملخصات Abstracts ، والقوائم البيلوجرافية Bibiografy والمجلات والدوريات العلمية Journals والكتب والمراجع العلمية Texts.

وقد يعتقد البعض أن مسح القوائم البيلوجرافية سوف يستغرق وقتا طويلاً وأن الباحث سوف لا يعثر على بحث له دلالته وأهميته فيما يتعلق بالميدان الذى يهتم به . والواقع ان هذا الاعتقاد بعيداً عن الصواب ، وربما كان الذين يتمسكون به هم أولئك الباحثون الذين يفشلون في بناء جهودهم استناداً إلى جهود باحثين سابقين عليهم . إذ ليس هناك ما يبرر القول بعدم توفر مادة وثيقة الصلة بالموضوع ، بدون البحث المتكامل فى نطاق المجالات التي يحتمل أن تضم مقالات حول الموضوع المختار للدراسة .

وكذلك بغير البحث في نطاق منشورات من نوع الملخصات والقوائم البيليوجرافية وقوائم رسائل الدكتوراه التي أجيزت في الجامعات والتي وضعت نسخ لها في كافة المكتبات وكذلك ملخصات الرسائل التي تمدنا بها أجهزة الميكروفيلم والبحث . هذا فضلا عن مصادر أخرى حكومية وتنظيمات غير رسمية أو تطوعية والتي تقوم بنشر قوائم أو ملخصات للبحوث التي تجري في ميدان اهتمامنا ، والتي تصدر مجلات تضم تقارير للبحوث حول مثل هذه الموضوعات أو القضايا ذات الصلة بالعلاقات الاجتماعية أو غيرها ، إذ تعتبر التنظيمات المهنية وجماعات البحوث ، والتنظيمات التطوعية بمثابة مصادر للمعلومات المتعلقة بالبحوث غير المنشورة في ميدان اهتمامها .

وقد يجانبنا الصواب عندما نحصر أنفسنا في مسح نتائج البحوث والدراسات التي لها صلة مباشرة بالموضوع الذى يشغل اهتمامنا ، وربما كانت هناك وسيلة أخرى أكثر إثماراً في تنمية الفروض أو تكوينها تتمثل في محاولة مسح المفاهيم والنظريات التي تمت بلورتها في ميادين أو سياقات للبحث مماثلة أو مغايرة تماماً عن الميدان الذي ينشغل بدراسته الباحث. وهكذا قد تمدنا النظرية المتعلقة بمستويات التوافق والتي تمت بلورتها في نطاق دراسة المشكلات السيكولوجية بمماثلات مثيرة تفيد المهتمين بدراسة العوامل ذات الفعالية : وقد تمدنا نظرية مستوى الطموح بأفكار مناظرة يفيد من يدرسون الأهداف المتغيرة في المجتمع المحلي ، وكذلك قد تمدنا نظرية التعليم بشيء من الفهم والاستبصار بالعمليات ذات الصلة بتغيير اتجاهات الفرد ، وبمفهوم الدور ، والاغتراب السياسي والمعايير الاجتماعية ، والحاجات السيكولوجية ، والاحباط ، وبناء الجماعات وغيرها من الموضوعات التي قد توجه انتباهنا نحو المتغيرات الهامة في كثير من المواقف الجديدة التي يمكن أن تخضع للدراسة .

كما تعد الاوصاف الحساسة التي تنطوي عليها الكتابات الأدبية والتاريخية والفلسفية خاصة التي وضعها المألوفون ذوي القدرات الخلاقة بمثابة مصدر خصب للفروض التي تحتاج إلى دراسة . إذ يمكن للمشتغلين بالعلوم الاجتماعية أن يستفيدوا من ثراء أوصاف الروايات الأدبية ، كما أنه قد يجدون في التراث الأدبي العالمي كثيراً من الإشارات أو التلميحات المثيرة والمتعلقة بالمتغيرات الهامة في المواقف التي يرغبون في دراستها ، فمثلاً تنطوي الكتابات (آلان باتون) (Alan Paton) بعنوان الصرخة ويلد المحبوب ، ومؤلف (جان بول سارتر) عن صورة المعارض ، وكتاب (ريتشادر رايت) عن الأبن الوطني ، وكتاب (الدريدج كليثر) عن روح فوق الجليد ، تنطوي كلها على تحليلات متعمقة توضح أسباب التعصب ونتائجه.

اسئلة المحاضرة

السؤال الاول:

((ينصب التركيز الأساسي للبحوث الاستطلاعية على اكتشاف الأفكار الجديدة والاستبصار المتباينة التي تعين على فهم المشكلة المدروسة في البحث))

تحدثي / تحدث بالتفصيل عن أهداف البحث الاستطلاعي وأهميته.

المحاضرة الخامسة (استراتيجيات البحث الاجتماعي الأساسي)

الاجراءات المنهجية في تصميم البحث الاستطلاعي

هناك عدد من الإجراءات المنهجية المحدودة التي اتضح انها أكثر إثماراً في التعرف على المتغيرات الهامة وفى التوصل إلى الفروض ذات المغزى والاهمية ، أو بعبارة أخري ، هناك بعض الاجراءات المنهجية التي تسهم في مساعدة البحث الاستطلاعي على تحقيق أهدافه ، والقيام بدوره في نمو المعرفة ، ولذلك من المتوقع أن تشمل كل محاولة لوضع استراتيجية منهجية للبحث الاستطلاعي أو اختيار الاجراءات المنهجية في تصميم هذا النوع من البحث ، على مثل هذه الاجراءات المنهجية .

وتشتمل هذه الاجراءات المنهجية على :

١- مسح تراث العلم الاجتماعي الذي له صلة بالموضوع المدروس ، وكذلك جوانب التراث الأخرى التي تسمح لنا باستخلاص نتائج تلقى الضوء على هذا الموضوع .
٢- مسح الخبرات العلمية بين الأشخاص الذين اهتموا بالمشكلة موضوع الدراسة .
٣- دراسة بعض الحالات التي تثري من فهمنا وتزيد من استبصارنا بالمشكلة المدروسة .

وقد تستفيد معظم الدراسات الاستطلاعية من واحد أو أكثر من هذه الاجراءات المنهجية في وقت واحد. ولكن مهما كان الإجراء المنهجي المستخدم والمختار في هذه الدراسة فإنه ينبغي أن ينطوي هذا الاستخدام على قدر من المرونة ، حيث أنه من الضروري مع كل تغيير يطرأ على المشكلة المدروسة من حالة كانت تتسم فيها المشكلة بالغموض في البداية إلى حالة تكتسب فيها المشكلة معنى أكثر دقة ، من الضروري أن تتغير أيضا إجراءات البحث لتناسب جميع المعطيات التي تسمح ببلورة الفروض المتعلقة بهذه المشكلة ، والتي تعيين في الوقت نفسه على أخذ الجوانب المتباينة للمشكلة المدروسة في الاعتبار.

١- مسح التراث:

تستند أهمية عملية مسح التراث إلى المكانة المتميزة التي يضيفها هذا العمل على الباحثين ، ذلك لأنه كلما ذاد مقدار ما يعرفه الباحث من نتائج البحوث ذات الصلة بدراسته ، زادت قدرته على تناول مشكلته وإلقاء الضوء عليها. وتهدف هذه العملية عموما إلى إعادة النظر مرة ثانية فيما هو متاح من تراث (التقارير التي أعداها أخرون) في الميدان المتعلق بموضوع البحث أو حتى في ميدان أخر يمكن أن تثري فهمنا بهذا ا لموضوع.

ولعملية مسح التراث أهداف عديدة ، فهي تساعد الباحث وتعيينه على تناول مشكلة بحثه ، باعتبارها محوراً لكل جهود البحث ، ذلك أنه في اللحظة التي يكون فيها الباحث قد اختار مشكلة معينة فإنه ينبغي أن يتجه بكل جهده نحو البحث عن حل لهذه المشكلة . ويساعد وقوف البحث على ما قام به غيره من جهد في هذا الصدد ، على مده بالاستبصار والمعرفة المناسبة التي تعينه على تناول هذه المشكلة . ويمكن لمسح التراث أن يفيد الباحث من النواحي التالية :

- يمكنه من الكشف عن النتائج التي توصل إليها باحثون سبق أن تناولوا هذه المشكلة وتوضيح كيفية معالجتها لما ينطوي عليها هذه المشكلة من مواقف.
- يمكنه من الإشارة إلى المنهج أو الطريقة التي يمكن بها معالجة موقف المشكلة كما يمكن أن تقترح عليه أساليب التغلب على الصعوبات المماثلة التي يحتمل أن تواجهه .
- يمكن أن يوضح للباحث مصادر المعطيات أو البيانات التي قد لا يعلم عن وجودها شيئا.

- يمكن أن يعرفه بالباحثين الذين يشهد لهم بالكفاءة والأهمية ، والذين قد يعلم الباحث عن جهودهم في البحث أي شيء.
- يساعد الباحث على أن يكون نظرة تاريخية مقارنة بمشكلة بحثه من خلال ربطها بالمحاولات السابقة التي تناولت نفس المشكلة أو مشكلة شبيهة .
- يمكن أن يمد الباحث بأفكار جديدة ومداخل لم يسبق له العلم بها .
- يمكن الباحث من تقييم جهوده في البحث بالمقارنة بينها وبين الجهود المماثلة الأخرى ذات الصلة .

وعموماً تنحصر مهمة مسح التراث في الوقوف على النقاط التي انتهى إليها الأخرون قبلنا ، والتعرف على أهم أوجه النشاط التي كانت تشغلهم .

ولهذا كله ، تعتبر عملية مسح التراث والتأسيس على الجهود التي قام بها بالفعل باحثون أحرون من بين أهم الطرق التي يمكن من خلالها الاقتصاد في الجهد المبذول في أي بحث . وفى الدراسة من النوع الذى نناقشه هنا ينصب المسح على الفروض التي يمكن أن تؤدى إلى بحوث أخرى في المستقبل . وهذه الفروض يعبر عنها صراحة باحثون سابقون في كتاباتهم المختلفة. ومن ثم فإن مهمة مسح التراث هنا تنحصر في عملية جمع تلك الفروض المتباينة والتي سبق التوصل إليها وذلك حتى يمكن تقييم فائدتها كأساس لإجراء بحوث أخرى في المستقبل ، والنظر في إمكانية أن تساعد هذه الفروض على بلورة غيرها من الفروض الجديدة ، خاصة وأنه كثيراً ما تهتم البحوث الاستطلاعية بالمجالات التي لم يتم بعد بلورة فروض حولها ، ولذلك فإن مهمة مسح التراث هنا تنحصر في التعرف على المادة المتاحة والمعطيات المتوفرة وتحسس الفروض التي يمكن اشتقاقها من تلك المادة.

وتأسيساً على هذه الأهمية والاهداف التي يسعى إليها مسح التراث كإجراء منهجي في تصميم البحوث الاستطلاعية ، قد تثار تساؤلات مؤداها : ما هو هذا التراث الذي نقدم على مسحه ؟ وأين نجده؟ وكيف يمكن مسحه والإفادة منه ؟

والواقع أنه إذا سلمنا بأن الهدف العام للبحث الاستطلاعي يتمثل في محاولة بلورة فروض عملية تتعلق بمشكلة جديدة بالنسبة لنا أو مشكلة أخري تقل خبرتنا النظرية أو التطبيقية بها ونريد أن يزداد فهمنا لها من خلال هذه الفروض ، فإن حديثنا السابق عن الفروض العلمية ومصادر تكوينها ، التي تنحصر في نتائج البحوث السابقة ، والنظريات العلمية ، والكتابات الأدبية والتاريخية والفلسفية ، قد يساعدنا في التعرف على طبيعة التراث الذى ينبغي أن نرجع إليه ونجرى الاستعراض اللازم لهذه الدراسة الاستطلاعية.

إذ هناك مصادر متباينة تمدنا بالمزيد من المعلومات المتعلقة بنتائج البحوث السابقة وخلاصة المناقشات النظرية وتصدر في صور بحوث أو مقالات علمية أو ملخصات أو غيرها ، ويمكن أن نذكر من هذه المصادر : الفهارس Indexes والملخصات Abstracts ، والقوائم البيلوجرافية Bibiografy والمجلات والدوريات العلمية Journals والكتب والمراجع العلمية Texts.

وقد يعتقد البعض أن مسح القوائم البيلوجرافية سوف يستغرق وقتا طويلاً وأن الباحث سوف لا يعثر على بحث له دلالته وأهميته فيما يتعلق بالميدان الذى يهتم به . والواقع ان هذا الاعتقاد بعيداً عن الصواب ، وربما كان الذين يتمسكون به هم أولئك الباحثون الذين يفشلون في بناء جهودهم استناداً إلى جهود باحثين سابقين عليهم . إذ ليس هناك ما يبرر القول بعدم توفر مادة وثيقة الصلة بالموضوع ، بدون البحث المتكامل فى نطاق المجالات التي يحتمل أن تضم مقالات حول الموضوع المختار للدراسة .

وكذلك بغير البحث في نطاق منشورات من نوع الملخصات والقوائم البيليوجرافية وقوائم رسائل الدكتوراه التي أجيزت في الجامعات والتي وضعت نسخ لها في كافة المكتبات وكذلك ملخصات الرسائل التي تمدنا بها أجهزة الميكروفيلم

والبحث . هذا فضلا عن مصادر أخرى حكومية وتنظيمات غير رسمية أو تطوعية والتي تقوم بنشر قوائم أو ملخصات للبحوث التي تجري في ميدان اهتمامنا ، والتي تصدر مجلات تضم تقارير للبحوث حول مثل هذه الموضوعات أو القضايا ذات الصلة بالعلاقات الاجتماعية أو غيرها ، إذ تعتبر التنظيمات المهنية وجماعات البحوث ، والتنظيمات التطوعية بمثابة مصادر للمعلومات المتعلقة بالبحوث غير المنشورة في ميدان اهتمامها .

وقد يجانبنا الصواب عندما نحصر أنفسنا في مسح نتائج البحوث والدراسات التي لها صلة مباشرة بالموضوع الذى يشغل اهتمامنا ، وربما كانت هناك وسيلة أخرى أكثر إثماراً في تنمية الفروض أو تكوينها تتمثل في محاولة مسح المفاهيم والنظريات التي تمت بلورتها في ميادين أو سياقات للبحث مماثلة أو مغايرة تماماً عن الميدان الذي ينشغل بدراسته الباحث. وهكذا قد تمدنا النظرية المتعلقة بمستويات التوافق والتي تمت بلورتها في نطاق دراسة المشكلات السيكولوجية بمماثلات مثيرة تفيد المهتمين بدراسة العوامل ذات الفعالية : وقد تمدنا نظرية مستوى الطموح بأفكار مناظرة يفيد من يدرسون الأهداف المتغيرة في المجتمع المحلي ، وكذلك قد تمدنا نظرية التعليم بشيء من الفهم والاستبصار بالعمليات ذات الصلة بتغيير اتجاهات الفرد ، وبمفهوم الدور ، والاغتراب السياسي والمعايير الاجتماعية ، والحاجات السيكولوجية ، والاحباط ، وبناء الجماعات وغيرها من الموضوعات التي قد توجه انتباهنا نحو المتغيرات الهامة في كثير من المواقف الجديدة التي يمكن أن تخضع للدراسة .

كما تعد الاوصاف الحساسة التي تنطوي عليها الكتابات الأدبية والتاريخية والفلسفية خاصة التي وضعها المألوفون ذوي القدرات الخلاقة بمثابة مصدر خصب للفروض التي تحتاج إلى دراسة . إذ يمكن للمشتغلين بالعلوم الاجتماعية أن يستفيدوا من ثراء أوصاف الروايات الأدبية ، كما أنه قد يجدون في التراث الأدبي العالمي كثيراً من الإشارات أو التلميحات المثيرة والمتعلقة بالمتغيرات الهامة في المواقف التي يرغبون في دراستها ، فمثلاً تنطوي الكتابات (آلان باتون) (Alan Paton) بعنوان الصرخة ويلد المحبوب ، ومؤلف (جان بول سارتر) عن صورة المعارض ، وكتاب (ريتشادر رايت) عن الأبن الوطني ، وكتاب (الدريدج كليثر) عن روح فوق الجليد ، تنطوي كلها على تحليلات متعمقة توضح أسباب التعصب ونتائجه.

<u>المسح التقليدي والإلكتروني للتراث :</u>

ولكن أين نجد كل مصادر التراث السابقة ؟ وكيف يمكن الإفادة منها وعرضها بطريقة تفيد في تحقيق أهداف عملية مسح التراث هذه ؟

الواقع أن المكتبات العامة والخاصة تمدنا بكثير من الفهارس ، والملخصات والقوائم ، والمؤلفات ، وإذا اردنا أن نعرف الكيفية التي يمكن بها التعامل معه المكتبة ، وأن نتعرف على الطرق التي يسهل من خلالها الإفادة من الأنواع الهائلة من المعلومات المتوافرة بها ، علينا أن نأخذ باعتبارنا بعض التوجيهات المثمرة التي قد تفيد الباحث المبتدئ وهو يشرع في استعراض التراث ذو الصلة ، خاصة عندما يعتمد على أسلوب المسح التقليدي .

المؤلف عنوان المقال أو الدورية أو الكتاب ، واسم الدورية أو عنوان الكتاب ، والناشر وبلد النشر والتاريخ والصفحات المقتبسة منها ، ومصدر المعلومات البيلوجرافية ، والمكتبة التي توجد بها ، والعلاقة بالمشكلة موضوع البحث ، ثم تعليق.

وفيما يلي مثال هذا النوع من الكروت وما يشتمل عليه من عناصر :

رقم مسلسل :

المؤلف :

عنوان المقال :

عنوان المجلة :

الجزء : **الصفحة :** **الشهر :** **السنة :**

مكان النشر : **الناشر :** **تاريخه :** **الطبعة :**

مصدر المعلومة البيلوجرافية بها :

رقم الكتاب في المكتبة :

العلاقة بالمشكلة موضوع البحث :

التعليق :

ويمكن للباحث أن ينسخ أكثر من صورة لهذا الكارت كلما كان ذلك ضروريا ، حتى يستطيع ترتيب هذه الكروت مرة حسب اسم المؤلف ، ومرة حسب الرقم المسلسل ، وأخري حسب الموضوع ، حتى يمكن الاختصار في الوقت والمجهود والبعد عن التكرار .

ومن المفيد ربط الفكرة التي ينطوي عليها كل كارت بالجوانب العديدة لمشكلة البحث ، أو محاولة تقسيم هذه الفكرة ووضعها تحت عناوين مختلفة حيث تساعد كل هذه الخطوات على إضفاء طابع الدقة والتنسيق والاهتمام على جهد الباحث وتوفر الكثير من وقته .

ومن الضروري أن يحرص الباحث على ربط النقاط التي تنطوي عليها الكروت بالمشكلة المدروسة ، بأن يضع مشكلة بحثه أمام عينه باستمرار ، ودائما ما يسأل نفسه كيف ترتبط هذه النقطة من نقاط التراث بالمشكلة موضوع البحث .

ذلك لأن الكشف عن هذه العلاقة لا توقع الباحث تحت إغراء عملية تجميع قدر ضخم من التراث بطريقة غير منظمة .

ولكن كيف يعرض الباحث هذه المعلومات بطريقة تحقق له أهداف عملية مسح التراث ؟ ذلك لأنه قد يجد الكثير من الباحثين صعوبة في الإفادة من هذا المسح الذى أجراه لتراث بحوثهم ، بل كثيراً مالا يعرفون كيف يتصرفون بشأنه ، أو كيف يعرضون نتائج التوثيق الذى قاموا به ، وكيف يفيدون من الاقتباسات التي أخذوها أثناء قراءتهم .

ويمكن الإشارة هنا إلى بعض التوجيهات التي قد تساعد الباحث على تحقيق هذا الهدف.

أن ربط الباحث مشكلة بحثه ومناقشته له لها في صلتها بجهود الاخرين ، وتركيزه على عناصر التراث ذي الصلة ، يجعل الباحث يدرك أو يفهم موضوع بحثه في الإطار المناسب . ومن شأن هذا المسح الواعي للتراث أن يضع أمام الباحث الإمكانيات التي قد لا يكون مدركا لها ويضفى حرص الباحث على تخطيط وتنظيم عناصر التراث ، أهمية كبيرة على هذا الجهد ، ولهذا كان على الباحث أن يرسم معالم مناقشته ويسترشد في ذلك بالمشكلة التي يقوم بدراستها ، لأنها تشير عليه بالمجالات المناسبة التي تحتاج إلى مناقشة كما ترشيده إلى الوجهة التي يجب أن تأخذها عملية مناقشة التراث هذه .

فهناك أولاً الدراسات الكلاسيكية والكتابات ذات الوجهة التاريخية التي مهدت الطريق أمام جهود البحث في هذا المجال ، وهى دراسات تتناول نطاقات أو موضوعات أوسع قد تقع في إطارها مشكلة البحث ،ويساعد الرجوع إليها على ربط نطاق الاهتمام الخاص بالأفاق التاريخية الأوسع ، وعلى تنمية منظور تاريخي يوجه جهود الباحث الخاصة.

وهذا يعنى أن يبدأ الباحث مناقشته للتراث ذي الصلة من منظور شامل يشبه الهرم المقلوب ، القاعدة العريضة ثم يمكن له أن ينتقل بعد ذلك إلى تحليل الدراسات الأكثر تخصصاً والتي لها صلة مباشرة بالمشكلة المدروسة.

المسح الالكتروني للتراث :

وإذا استعان الباحث بأسلوب المسح الإلكتروني للتراث الذى ظهر حديثاً ، وسهل عملية مسح التراث ، يلاحظ أن استخدام الكمبيوتر للاتصال بشبكة المعلومات العالمية يمكننا من استخدام قواعد البيانات الالكترونية من أجل :

١- البحث عن كلمات في عنوان أو ملخص عناصر في قاعدة البيانات المرتبطة بالموضوع محل الاهتمام.
٢- البحث عن كلمات عن طريق أي عنصر مفهرس في قاعدة البيانات .

ومع أن قواعد البيانات ربما تتضمن الكتب ، إلا أن الغالبية العظمى من العناصر عبارة عن مقالات في دوريات ، وسوف نقوم في عرضنا هذا باستخدام كلمة مقال . وتطلب بالدوريات من المؤلفين أن يوفر الكلمات الدالة Keywords وأيضا ملخص عن الموضوع ، وتوفر بعض قواعد البيانات خدمة البحث عن هذه الكلمات الدالة أيضاً في نفس الوقت مثلما توفر العناوين والملخصات.

وهناك عدد من قواعد البيانات الالكترونية المهتمة بالبحوث الاجتماعية والمتاحة من خلال شبكة المعلومات العالمية ، ويحتوي كل منها على تفاصيل النشر في مجال الدوريات المرتبطة بموضوع الدراسة ، كما يتم إدراك بعض قواعد البيانات الرئيسية لفروع معينة من المعرفة في قائمة . ومن المهم أن نلاحظ من ناحية أخري أن هذا المجال متغير باستمرار. وتتضمن التفاصيل على قواعد البيانات عادة ملخصات – ولكن ليس دائما – وأحيانا تتضمن نص المقالات كاملا.

ومعظم قواعد البيانات باللغة الانجليزية ، وتركز على الدوريات الأساسية المنشورة باللغة الانجليزية ، على الرغم من أن مجالها يمتد ليشمل جميع أنحاء العالم . وتحمل بعض قواعد البيانات ملخصات باللغة الانجليزية لمقالات بلغات أخري وتشير كل قاعدة بيانات إلى التاريخ الذى تم فيه وضع ملخص لدورية معينة .

ومن المشكلات التي تواجه المستعرض للتراث هي المفردات المختلفة ، والتهجئة المستخدمة في البلدان المختلفة وفى فروع المعرفة المختلفة . أيضا ، تتغير اللغة بمرور الزمن ، ومع ظهور موضوعات جديدة فإن المفردات ربما لم تصل بعد إلى اجماع على شكل معين لها أو قواعد لضبطها . والطريقة المستخدمة تحتاج إلى استرجاع البطاقة واسعة الانتشار Wild-Card (والتي تقوم مقام أي حروف من الأبجدية أو أي مجموعة من الحروف). وهكذا ، فالبحث عن كلمة يدرس Teach نموذج شائع لاختيار التدريس Teaching ، ومدرس Teacher ، ومدرسيين Teachers ، وأيضا يدرس Teach . وربما أيضا نختار مدرسين Teacher's و Teachers، مع أن استرجاع علامات الترقيم تتنوع بين قواعد البيانات . وهذا المصطلح أو المفردة سوف لن يختار بالطبع درس Taught.

وتستخدم قواعد البيانات معيار بولين الجبري Boolean على نطاق واسع لتوحيد مفردات المسح . وعمليات بولين الأربع الأساسية المستخدمة هي : و Andأو OR، لا NOT ، الأقواس أو علامات الحصر ، وتستخدم العديد من قواعد البيانات أيضاً عمليات : علامات التنصيص ( ) ، وقريب Near .

ويمكن استخدام مبادئ بولين الجبرية للمسح بطريقة أكثر تطوراً . على سبيل المثال ، المسح البسيط لكلمة عصابات وعنف Gangs AND violenee يمكن أن تضيق نطاق المسح إلى المقالات التي تناقش نمطاً معيناً من عنف العصابة باستخدام مسح أكثر تحديداً العنصرية والعصابة والعنف racism AND Gang AND Violence؛ ويمكن للمسح أن

يكون أكثر اتساعاً ليتضمن أيضاً المصطلحين الأولين مع العنف Violence؛ لكى نبحث عن مقالات عن العنف ترتبط بالعصابات ، ومقالات عن العنف ترتبط بالعنصرية متضمنة المقالات التي تشير إلى كليهما.

وفى معظم قواعد البيانات ، فإن كتابة عبارة داخل علامات التنصيص يحصر المسح في هذه العبارة بالضبط كما تمت كتابتها داخل تلك العلامات أكثر من البحث من خلال الكلمات المفردة . على سبيل المثال ، بينما تسترجع عبارة المجتمع المحلي والرعاية Community AND care كل المقالات التي تظهر فيها كلا الكلمتين في أي مكان سواء في العنوان أو الملخص – ولكن ليس بالضرورة أن يكونا معاً أو بنفس الترتيب – وعندما نكتب داخل علامات التنصيص العبارة التالية مثلاً " Community care" فإن ذلك سوف يحصر مجال المسح في المقالات التي تظهر فيها تلك العبارة بالضبط.

ويمكن فحص ومراجعة الأسلوب غير المألوف المستخدم من خلال قواعد البيانات لترى المصطلحات الأقرب لموضوع دراستك ، وأيضا من أجل الحصول على المصطلحات الملائمة. على سبيل المثال ، البحث عن مصطلح واحد غير مألوف Home for the Aged on Medlime بيوت المسنين في ميدلاين – نظام مفهرس للعلاج – سيكون أكثر دقة من البحث المساوي له – ولكن عائده مشابه – في النظام غير المفهرس مثل :

Care home * OR home* for the aged OR institutional care OR old people's home* OR old peoples home * OR out of home placement*.

وهذا بالطبع يمكن من توحيد بحوث النظام المفهرسة باستخدام نفس المبادئ بالنسبة إلى النظم غير المفهرسة التي ذكرنها سابقا. وتقع قواعد البيانات المفهرسة ضحية إلى أخطاء وجهل المفهرسين ، مع أن هذا النظم تتطور باستمرار في هذا المجال من الاهتمام . وإذ لم يكن ما مفهرس على نحو ملائم ، فإن المسح الذى يستخدم مصطلحات الفهرس ربما لا يستطيع إيجاد المقال ، في حين أنه من المحتمل أن يجد نص البحث.

ومن الممكن في العديد من قواعد البيانات أن نجعل البحث محدداً إذا أخذنا في اعتبارنا الجوانب التالية : اللغة ، وسنة النشر ، والفترة الزمنية التي كتبت فيها الموضوعات ، ونوع المؤلف . ويوفر المسح عن طريق توظيف نوع البحث ميزة مفيدة على وجه الخصوص ، بشرط أن يتضمن المؤلفون هذه المعلومة في ملخصاتهم على المصطلحات في منهج العلوم الاجتماعية . ومع أن المسح يركز بصفة عامة على الموضوعات .

إلا إنه إذا كان لديك تحديد لمؤلف معين كعالم أساسي في المجال الذى تقوم فيه بالمسح ن فإن ذلك يعد أحد المداخل للتغلب على محدودية ومميزات البحث الحالية، وذلك عن طريق البحث عن اسم الشخص ، وبذلك يسترجع المادة التي كتابها ، والتي ربما لم يتم اختيارها من خلال نص بحثك أو مصطلحات الفهرس .

إن البحث عن الملخصات عن طريق المسح الإلكتروني ذو فاعلية عالية وعملي من حيث التكلفة ، وذلك لكونه يمكننا من مسح كمية كبيرة من المواد البيلوجرافية والتي تكون غالباً المراجع التي لا يمكن الحصول عليها بشكل كامل من خلال الطرق التقليدية على أي حال، لا يجب أن ينظر إلى تقنية المسح الالكتروني على أنها كاملة أو مضمونة فإنه من الممكن دائما أن يكون هناك مرجع هام لا تتوفر له الكلمات التي يجب أن نستخدمها في المسح الذى نجريه سواءً في عنوانه أو ملخصه ، أو ربما تكون قاعدة البيانات التي نستخدمها لا تفهرس الدوريات .

وعلى هذا ، يعتبر الاخذ بنصيحة الزملاء والخبراء ، وتطوير إحساسنا بالإصدارات الهامة ما عن طريق ملاحظة ما يعرضه المؤلفون . والدوريات بانتظام مفيد لبناء نظرة شاملة وعميقة للتراث كخطوة أساسية باتجاه التجميع الهادف لمعظم البحوث المهمة .

(٢) استشارة الخبرة العلمية :

لا ينطوي التراث المكتوب وعناصره المختلفة إلا على جانب بسيط من المعرفة أو الخبرة المتاحة ، وذلك لان هناك الكثير من الناس الذين يحتلون أوضاع تسمح لهم في معرض خبراتهم اليومية لتكوين جانب أخر من الخبرة والمعرفة التي يحتفظون بها في ذاكرتهم إلى لأن الظروف لا تساعدهم على نشرها ، إذ يحتمل أن يكون لدى مدير دار إيداع مثلاً قدر من الفهم والاستبصار يتعلق بخصائص الجانحين الأحداث وفاعلية الأساليب المتباينة في التعامل معهم ، وقد يكتسب القائم بالخدمة الاجتماعية في ميدان الطب النفسي حساسية للظروف البيئية التي تعوق تكيف المرض المفرج عنهم من مؤسسة عقلية ، وكذلك قد ينمو لديه فهم لتلك العوامل التي تدعم هذا التكيف ، بحيث يكتسب مثل هؤلاء المتخصصين في مجري حياتهم العملية رصيداً من الخطة قد يكون لها قيمة كبيرة في مساعدة المشتغلين بالعلوم الاجتماعية وتجعلهم على دراية بالمؤثرات الهامة التي لها فاعليتها في أي موقف قد تتركز عليها دراساتهم الاستطلاعية.

انتقاء الخبرات :

وتملى علينا خاصية الاقتصاد في البحث ضرورة قيام عملية مسح الخبرات على الانتقاء الواعي ، وطالما كانت عملية مسح الخبرات تهدف إلى تحقيق نوع من الفهم والاستبصار بالعلاقات بين المتغيرات أكثر من اهتمامها بالتقارير الإحصائية المتعلقة بهذه المهنة . كان من الضروري انتقاء ذوى الخبرة الذين يحتمل أن يقدموا لنا أكثر من غيرهم في هذه الاستبصارات التي نبحث عنها أو بعبارة أخري انتقاء عينة من الأشخاص العاملين في الميدان الذى نهتم بدراسته .

بحيث يستبعد من مسح الخبرات هذه الأشخاص قليلي الكفاءة أو الذين يفتقرون إلى الخبرة الملائمة أو من تعوزهم القدرة على توصيل خبراتهم إلى الاخرين . وان يشمل المسح كل شخص ينظر إليه باعتباره إخباري نشطاً ، وربما كانت الطريقة المباشرة لانتقاء الاخباريين هي التي نطلب فيها من القائمين على أمر الإدارة والعاملين في الميدان الذى يريد الباحث دراسته بأن يشيروا لنا إلى الأشخاص الذين تتوفر لديهم معلومات أكثر وخبرة أنسب وقدرة أفضل على التحليل . وبرغم من هذه الطريقة قد تضمن لنا التوصل إلى الاشخاص الذين لديهم خبرة تحفزنا على الاستبصار والفهم إلا أنها قد توصلنا إلى الاشخاص ذوى السمعة بما لديهم من خبرة وأفكار جديدة بحيث يزداد اكتمال التواصل إلى الاخباريين الأكثر فائدة إذا أوصي أكثر من مصدر واحد مغاير للآخر فى وجهة نظره بضرورة الرجوع إلى الأشخاص معيين .

وعلى الرغم من أن العينة العشوائية من المشتغلين في الميدان الذى يهتم به البحث قد لا تكون لها قيمة كبيرة في عملية مسح الخبرات إلا انه من المهم أن ننتقي هؤلاء الإخباريين بصورة تحقق لنا شرط تمثيل النماذج المتباينة في وجهات النظر وفى أنواع الخبرة . فمن الجوهري مثلا في مسح الخبرات حول العوامل المؤثرة في الروح المعنوية بين المشتغلين بالصناعة ، أن تجري مقابلات شخصية مع إخباريين من بين صفوف الإدارة والعمال ، وإخباريين على مختلف المستويات في كل جماعة – العمال - ملاحظي العمال - شئون الأفراد - مديري النقابة ، وهكذا للتوصل إلى وجهات نظر متباينة .

سؤال الإخباريين :

ومن الضروري قبل القيام بأي محاولة منظمة لجم الاستبصارات من الاخباريين أن تكون لدينا بعض الأفكار الأولية المتعلقة بالقضايا الهامة في الميدان الذى نهتم بدراسته. ويعد مسح التراث والقوائم البيلوجرافية من أحد مصادر هذه الأفكار كما أشرنا سلفا ، ينبغي عند تكوين دليل للمقابلة الشخصية وتوجيه الأسئلة المنظمة للإخباريين أن تجري مقابلات غير مقننة مع الأشخاص الذين عرفوا بخبراتهم المكثفة في ميدان البحث ونتناول معهم او نعرض عليهم تلك المعلومات التي استخلصناها من مسح التراث .

وعلى الرغم من أن إضفاء طابع التقنين والتنظيم على المقابلات الشخصية قد يسهم في ضمان الإجابة على التساؤلات التي يطرحها الباحث ، إلا أن الاحتفاظ بقدر من المرونة في المقابلة يتيح الفرصة أمام الإخباري لإثارة القضايا والتساؤلات التي لم يأخذها الباحث في اعتباره سلفا من قبل . ومن المفيد عموماً في بلورة تساؤلات يعتمد عليها دليل المقابلة الشخصية مع الإخباريين ، أن نوجه انتباهنا نحو العوامل المؤثرة التي تسهم في إحداث التغير ، ذلك لأن العاملين في الميادين الاجتماعية التطبيقية . والذين ينتبهون بالضرورة إلى الحاجات الملحة التي يحتاج إليها العمل الذي يشغلهم ، يتجهون باهتمامهم نحو تحقيق التغير ونحو العوامل المؤثرة فيه.

ويحتمل أن أكثر فهما وقدرة على الإجابة علي السؤال المصاغ في عبارة تطبيقية من الإجابة علي سؤال آخر يغلب عليه الطابع المجرد. ويتيح ذلك التركيز علي التغير أمام الباحث فرصة جمع استبصارات بالعمليات التي تستمر في التأثير عبر فترة زمنية، والتي يعمل الوضع الفريد لهؤلاء المنفذين علي سهولة ملاحظتها.

وإذا لم يكن اهتمام الباحثين منصرفا فقط نحو العلاقات النظرية المحتملة بين المتغيرات وكانوا يهتمون أيضا بمضامين هذه العلاقات ذات الصلة بالسلوك الاجتماعي ، فإنهم في حاجة ألي أن يعرفوا كيف تميل هذه المتغيرات إلي التجمع في جوانب حياتنا اليومية ، وكيف أن هذه المجموعات من المتغيرات التي توجد دائما تدعم أو تعوق عملية تحقيق الأهداف المرعوبة من الناحية الاجتماعية .

ويحتمل عموما أن تطول المقابلة التي تهدف إلى جمع الخبرات ، وتستمر لساعات عديدة ، ومن المفضل بالنظر إلي طبيعة المعلومات المرغوب فيها، أن تعطى فرصة للإخباري ليستعد قبل عقد المقابلة بأسبوع وتسليمه نسخة من التساؤلات المطلوب مناقشتها. ويعطى هذا الإجراء للإخباري فرصة لكي يمدنا بأفكاره المتطورة ويمكنه في الوقت نفسه من استشارة زملاءه والوقوف علي معارفهم التي اكتسبوها من خبراتهم الخاصة.

وكذلكـ يمكن لعملية مسح الخبرات كمصدر مناسب لاشتقاق الفروض، أن تمدنا بمعلومات تتعلق بالإمكانيات العلمية اللازمة لإجراء نماذج متباينة من البحث وتجيب علي عدة تساؤلات مثل :أين يمكن أن نجد التسهيلات التي يحتاجها البحث؟ وأي العوامل يمكن التحكم فيها ؟ وأيها يصعب التحكم فيها بخاصة في المواقف التي نريد دراستها؟ وإلي حد يمكن أن تتعاون مختلف الهيئات والعاملون والمواطنون العاديون في مشروعات البحث الذي تتطلب وتتناول مشكلات هامة والتغلب عليها؟ وقد تمثل الإجابات علي هذه التساؤلات وغيرها من المشكلات العلمية المماثلة أحد النتائج الجانبية لعمليات مسح الخبرات خاصة تلك التي تتم بطريقة مخططة بعناية فضلا عن أن مثل هذا النوع من المسح قد يمدنا بفهم المشكلات إلي ينظر إليها باعتبارها ملحة من جانب العاملين في ذلك الميدان الذي تهتم بدراسته. كما يكون لهذا الفهم فائدته القصوى في أولويات الموضوع التي يمكن أن تتناولها برامج البحث.

وليكن واضحا تماما أن مسح الخبرات قد يفقد قيمته أنلم يستند إلي عينة ممثلة من العاملين في الميدان الذي تدرسه، وتزداد الفائدة بزيادة ما يعرضوه علينا من فهم و استبصارات وأساليب أكثر من أشارتهم إلي كل ما هو نموذجي في هذا الميدان .

<u>دراسة الحالات المثيرة للاستبصار:</u>

وجد الكثير من المهتمين بدراسة الميادين الحديثة نسبيا أو الموضوعات التي لم يتوافر حولها إلا قدر ضئيل من الخبرة ، أن الدراسة المتعمقة لمجموعة منتقاه من الحالات يمكن أن تمثل إجراءً منهجيا مثمرا في إثارة الاستبصارات وتنمية الفروض التي تحتاج إلى بحوث أخري في المستقبل.

فلقد أدت دراسات الحالة المتعمقة التي أجراها فرويد علي المرضى إلي بلورة كثير من استبصارا ته النظرية ذات الدلالة . كما طرأ علي تصوراتنا للعلاقات بين السلوك الإنساني والمجتمع قدر كبير من التغير بفضل الدراسات الإنثروبولوجية لبعض الثقافات ، وخاصة جوانبها اللامادية أو غير التكنولوجية .

ولا يقصد بدراسة بعض الحالات هنا تطبيق دراسة الحالة بالمعني الضيق علي تحليل السجلات التي تحتفظ بها الهيئات الاجتماعية في العلاج النفسي مثلا، وإنما يقصد بها إجراء دراسة مركزة أو متعمقة لعدد منتقي من الحالات في نطاق الظاهرة التي نهتم بدراستها.

وقد يكون التركيز هنا علي أفراد ، أو مواقف ،أو جماعات ،أو مجتمعات محلية، كما قد نعتمد في هذه الدراسة علي فحص السجلات المتاحة ، وإجراء مقابلات غير مقننة أو ملاحظة بالمشاركة أو غيرها من أساليب البحث الاجتماعي.

وهناك عدد من السمات المميزة لدراسة بعض الحالات علي هذا النحو تجعلها بمثابة إجراء منهجي مناسب لاستثارة الاستبصارات، فهي تسهم في تنمية استعدادات الباحثين وقدراتهم في سعيهم وراء الفهم والتعرف علي معالم الموضوع والاهتمام بعملية إعادة الصياغة والتوجيه كلما ظهرت لهم معلومات جديدة، أو كلما تغيرت نوعية المعطيات التي يقومون بجمعه.

كما تمتاز هذه الطريقة في الدراسة بدرجة من التعمق لظروف الحالات التي تتناولها سواء كانت فردا أو جماعة أو مجتمعا محليا، أو ثقافة، أو مواقف، أو حادثة مختارة في مثل هذا البحث، والذي يجتهد الباحث من خلاله في التوصل إلي المعلومات الكافية التي تعينه في تمييز وتفسير كلا من الخصائص الفريدة التي تميز الحالة المدروسة وتلك الخصائص التي تشترك فيها مع حالات أخرى. وذلك عن طريق إجراء فحص متعمق لكل من المواقف الراهن لهذه الحالات ولتواريخ حياتهم .

كما تمتاز طريقة دراسة الحالات هذه بأهميتها في تحقيق التكامل بين جهود الباحثين ودعم قدراتهم علي تجميع مجموعة متباينة من المعلومات والتعبير عنها في تفسير موحد. ولقد أدت هذه السمة الأخيرة بكثير من النقاد في نظرتهم التحليلية لطريقة دراسة الحالات المثيرة للاستبصار هذه إلي اعتبارها نوعا من الطرق الإسقاطية التي تعكس ميول المفحوصين موضع الدراسة. ولكن مع تقديرنا هذا النقد إلا أنه لا يقلل من أهمية هذه الطريقة، طالما كان هدفها هو استثارة الفروض وليس اختبارها.

وعموما ، وجد المشتغلون بالعلوم الاجتماعية الذين استعانوا بهذه الطريقة أن دراسة عدد قليل من الحالات قد تسهم في مدنا بثروة من الاستبصارات الجديدة، وذلك بالمقارنة بحصاد الطرق الأخرى الذي لا يزيد عن عدد بسيط من الأفكار الجديدة

وبرغم صعوبة وضع قواعد بسيطة تفيد في انتقاء بعض الحالات وإخضاعها للدراسة. فلقد ساعدت الخبرة بالبحوث الاستطلاعية علي حصر نماذج معينة من الحالات تفيد أكثر من غيرها في هذا الصدد .

١- الحالات المتطرفة :(الغرباء- الهامشيون- المنحرفون):

فقد يكون الغرباء والقادمون الجدد أكثر استجابة لخصائص وسمات المجتمع المحلى والتي تخفى على الباحث الذي نشأ في ظل هذه الثقافة، وقد يكون الشخص الغريب أكثر حساسية للعادات الاجتماعية والممارسات التي يقر بها أعضاء المجتمع المحلي دون مناقشة بحيث تؤدي الدهشة الناتجة عن ذلك أو حب الاستطلاع إلي توجيه الانتباه نحو خصائص معينة أو معالم للحياة في هذا المجتمع المحلي لا يلاحظها أعضاء المجتمع لأنهم قد تعودوا عليها.

ويماثل هؤلاء الغرباء والقادمون الجدد من بعض الجوانب فئة أخري من الأفراد الهامشيين أو الجماعات والذين يتنقلون كثيرا من جماعة ثقافية إلي أخرى ويعيشون علي هامش الجماعتين. ونتيجة لوضع هؤلاء الهامشيين المتردد بين جماعتين، فإنهم يعانون من الضغوط المتعارضة من جانب هاتين الجماعتين، بحيث يكون باستطاعتهم الكشف بوضوح ظاهر عن المؤثرات الرئيسية التي تلعب دورها في كل جماعة.

ذلك لأن دراسة المهاجرين ة الأشخاص المبعدين مثلا والذين يحاولون أن يتوقفوا مع الجماعات الثقافية الأخرى ، أو النساء اللاتي يعملن في مهن يغلب عليها نسبة الذكور علي الإناث يحتمل أن تمدنا بزاد وافر من المعرفة حول العلاقات بين الجماعات . وكذلك قد تفيد دراسة الأفراد والجماعات الذين يتنقلون من مرحلة إلي أخري من مراحل النمو في زيادة معارفنا، فمثلا ، يحتمل أن تمدنا الدراسة المتعمقة للأطفال أو المراهقين أو النساء في فترة اليأس بقدر من الاستبصار بعملية التغير الاجتماعي، وبالخصائص النفسية الاجتماعية التي تميز مراحل النمو المتعاقبة. وبالمثل قد تلقي دراسات حالات كالمنحرفين والمعزولين وغيرهم من الحالات المرضية الضوء علي الحالات العادية أو غير المرضية، فقد تلقي دراسة جماعات المنحرفين مزيدا من الضوء علي المعايير الاجتماعية والممارسات التي انحرفوا عنها ، وتشير في الوقت نفسه إلي نماذج الضغوط التي تؤدي إلي الامتثال، وكذلك تجعلنا نقف علي النتائج النفسية الاجتماعية لعدم الامتثال.

وربما قد يساعد ذلك علي الكشف عن الطرق التي تتحقق من خلالها التغيرات الاجتماعية. كما قد يساعد تحليل جماعات المعزولين، بالمثل، علي إبراز العوامل التي تسهم في تحقيق التماسك في جماعة معينة أو في المجتمع المحلي، وقد تكشف أيضا عن الأسلوب الذي تتغير به الاتجاهات والمعلومات في الجماعة.

٢-الحالات الوسط:

كما أن الحالات الوسط pure تعد أيضا حالات مثمرة في إثارة الفهم والاستبصار. مثل ذلك دراسة (ليفي)Levy عن تزايد رعاية الأم لأطفالها وأسبابه ونتائجه علي الأطفال، وكيف يمكن التغلب علي الصعوبات الناشئة عنها؟ ومن خلال تحليله لتقارير الحالات التي تعالج في بعض عيادات توجيه الأطفال،

وانتقائه لحالات دراسته المتعمقة بناء علي معيارين اثنين: الأول الأمهات اللاتي يبالغن في رعايتهن لأطفالهن من الارتباط الشديد بهم، ومعاملة الأم لأطفالها باعتبارها رضع، ومنع الأمهات أطفالهن من الاستقلال في سلوكهم، والثاني يمثل الحالات الوسط بمعني حالات الأمهات اللائي لا يبالغن في رعاية أطفالهن، وفي الوقت نفسه لا يمهلن هؤلاء الأطفال علي أساس أن الجمع بين الرعاية والإهمال يختلف عن التزيد في الرعاية في حد ذلته، وقد يكون له أسباب ونتائج مغايرة. ولقد أسهم هذا الإجراء في توفير قدر معقول من المعلومات حول سلوك الطفل ،وأنواع المشكلات المترتبة عليه، وحول فعالية العلاج.

كما قد يساعد انتقاء الأفراد الذين يمثلون أوضاعا متباينة في البناء الاجتماعي علي مدنا بنظرة دائرية للوضع الذى يشغلونه. وقد يجد الباحث في معظم الجماعات الاجتماعية قدرا من التباين في المكانة الاجتماعية وتخصص الأدوار أو الوظائف، ويحتمل أن يتوافر لدي الأفراد الذين يشغلون هذه الأوضاع المتباينة فهما مغايرا للموقف الذي ندرسه

ويعد هذا التباين مصدر خصب للاستبصارات التي نسعي إليها. وهكذا لا تقل عملية مقابلة العمال في مشروع عمل عن عملية مقابلة المدراء. ويسهم هذا في إظهار التباين وكذلك التماثل في النظرة الاجتماعية لهؤلاء الأفراد الذين يشغلون أوضاعا متباينة أو ينجزون وظائف مختلفة. في الوصول إليها، ونعني بها، مسح التراث واستشارة الخبرة العملية، ودراسة الحالات المثيرة للاستبصار، كما يوضح في الوقت نفسه أهمية البحوث الاستطلاعية، بحيث أنه إذا حدد الباحث مشكلة بحثه من بين واحد من الأهداف المعروفة للبحث الاستطلاعي والمشار إليها سلفا ، لا يجد مفرا من الالتزام بهذه الأساليب المنهجية الخاصة بالبحث الاستطلاعي وأخذها في اعتباره وهو يفكر في تناول المشكلة ويضع التصميم

المنهجي المناسب لها. وهذا ما حاولت الهيئة التي أشرفت علي إجراء بحث السرقة عند الأحداث عندما حددت هدفها في التعرف علي عوامل جريمة السرقة التي انتشرت بين الأحداث في مدينة القاهرة في محاولة منها لزيادة الفتها بهذه الظاهرة .

وحتي يتسنى لها تمهيد الطريق أمام البحوث الأخرى التالية والأكثر تعمقا، وقامت بإتباع الأساليب والاجراءات المنهجية المخصصة للبحث الاستطلاعي، بأن أجرت مسحا للتراث، وعقدت لقاءات مع ذوى الخبرة بظاهرة جناح الاحداث من رجال البوليس والقضاء ، وقامت أخيرا بإجراء دراسة حالة ابعض الاحداث الذين عرف عنهم التطرف في السرقة لتلقى من خلال ذلك الضوء علي الظروف الفيزيقية، والنفسية ، والبيئية ، والاقتصادية ، والاجتماعية لهؤلاء الاحداث ، وتبلور عدد من النتائج المتعلقة بالأحداث منن حيث فئاتهم ، وطفولتهم ، وأسرهم ، واتجاهاتهم الدينية والخلقية، ومواقفهم من التحقيق، ومن حيث أنواع السرقة وأماكن ارتكاب جرائم السرقة وظروفها وعلاقة المجني عليه بالجناة -نتائج كما هو واضح زادت من ألفة هيئة البحث بهذه المشكلة، وأوضحت جوانبها المختلفة، وحددت عناصر لها الأولوية وتستوجب الدراسة المتعمقة بعد ذلك، وخاصة ظاهرة النشل عند الأحداث، وبهذا مهدت دراساتهم الاستطلاعية للسرقة الطريق أمام بحوث أخري أكثر تعمقا حول هذا الجانب الهام ،وهو النشل عند الأحداث فيما بعد.

وكانت الهيئة المشرفة علي بحث الهجرة الداخلية معنية أيضا بإجراء بحث استطلاعي لهذه الظاهرة من خلال حصرها للدراسات العلمية المختلفة لنفس هذه الظاهرة في مجتمعات أخرى، وتحليلها للتقارير الاحصائية التي أمكن الحصول عليها، ومن خلال دراسات حالة لمجموعة من المهاجرين إلي مدينة القاهرة من خلال اللجنة المركزية للإحصاء، والمتخصصين في القوي العاملة، ولقد ساعدتهم هذه الإجراءات المنهجية في إلقاء الضوء علي ظاهرة الهجرة الداخلية ، من حيث مناطق طرد المهاجرين وعوامل جذبهم في المدينة، ووسائل هجرتهم، وأساليب تكيفهم، وجوانب حياتهم التي طرأ عليها التغير بعد الهجرة..... إلخ

أسئلة المحاضرة الخامسة

س١/ ما المقصود بالمسح الإلكتروني للتراث ؟

س٢/ ((أن الدراسة المتعمقة لمجموعة منتقاه من الحالات يمكن أن تمثل إجراءً منهجيا مثمرا في إثارة الاستبصارات وتنمية الفروض التي تحتاج إلى بحوث أخري في المستقبل.))

اشرحى / اشرحي العبارة السابقة

المحاضرة السادسة

استراتيجيات البحث الاجتماعي الأساسي تصميم البحث التاريخي ونماذج على تنفيذه

تمهيد :

مع التحولات الفكرية التي يشهدها العلم الاجتماعي في مطلع القرن الحادي والعشرين، والانتقالات التي وجهت إلى الوضعية والبحث الكمي ، تزايد الاهتمام بالبحث الكيفي باعتباره وسيلة للتغلب علي هذه الانتقالات- وقد أعيد الاهتمام بالبحث التاريخي باعتباره نموذج خالصا علي البحث الكيفي في العلن الاجتماعي ، واحتل البحث التاريخي وضعا متميزا بين غيره من البحوث الاجتماعية الأخرى ، وتأكدت أهميته وأهدافه في فهم الظواهر الاجتماعية.

ويحاول البحث التاريخي الاستعانة بالمنهج التاريخي وما يتطلبه من إجراءات خاصة الاعتماد علي تحليل الوثائق التاريخية، كمصدر أولى للبيانات وبعد التأكد من مصدقتيها، ثم تناول مقولة الزمن و تحقيب التاريخ ، وإجراء المقارنات اللازمة، وقد تداخل عمل دراس التاريخ، أو المؤرخ مع ما يقوم به القائم بالبحث التاريخي في العلم الاجتماعي ، ويحاول الاستعانة بالمنهج التاريخي في البحث.

ولذلك برزت هناك حاجة إلي الوقوف علي الكيفية التي يمكن بها وضع تصميم منهجي مناسب للبحث التاريخي في العلم الاجتماعي تجنبا لهذا التداخل، والوقوف علي الحدود الفاصلة في استخدام المنهج التاريخي بينهما.

وبناء علي ذلك يحاول الفصل الحالي توضيح أبعاد هذا التصميم والإشارة إلي بعض النماذج علي تنفيذه في الواقع ،وإلقاء الضوء علي الإجراءات المنهجية اللازمة لوضع تصميم مناسب للبحث التاريخي، بدءا بصياغة مشكلة البحث التاريخي في صورة فروض عملية ،ثم ضرورة تحديد مدي زمني للبحث ، و تحقيب هذا المدى إلي فترات تاريخية فرعية ، وعملية التنقيب عن البيانات والمادة التاريخية والتأكد من مصداقيتها ،ثم استخدام أسليب التحاليل الكيفي في معالجة بيانات البحث التاريخي ومناقشة مجموعة النماذج المتاحة على تنفيذ البحث التاريخي في الواقع استناداً إلى متطلبات تصميم البحث التاريخي ، والكشف عن إيجابياتها وسلبياتها ، وربما أسهم ذلك في تقليل احتمالات الوقوع في الأخطاء المنهجية الشائعة والتي أخذت تتزايد بين الباحثين في الآونة الأخيرة عند إجراء بحوث تاريخي .

أولاً: البحث التاريخي بين البحوث الاجتماعية الأخرى :

لاشك أن تنوع البحوث الاجتماعية ، وتباين حلقاتها ، قد تزايد في الآونة الأخيرة على نحو ملحوظ ، ربما ليتنوع قضايا البحث ومشكلاته ، أو لتطور أساليب البحث وأدواته ، أو اكتشاف قواعد منهجية جديدة ، أو إلى كل ذلك مجتمعاً.

ولعله من المنطقي قبل الدخول في تفاصيل الكيفية التي يمكن بها تصميم البحث التاريخي باعتبارها واحداً من أشهر أنواع البحوث وأهمها ، وأن نحاول تسليط الضوء على طبيعة العلاقات بين هذه الحلقة في البحث وبين غيرها من حلقات البحث الاجتماعي الأخر .

فالبحث التاريخي يعد من أقدم أنواع البحوث الاجتماعية على الإطلاق ، فمنذ ما يزيد على سبعة قرون ، ذهب عبد الرحمن ابن خلدون إلى القول : " أعلن أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفائدة ، شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضيين ...وأعلم أنه لما كانت الحقيقة للتاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم .. ولما كان الكذب متطرقاً للخبر كان ضروريا تمحيص الخبر على تميز الصدق من الكذب.. " ، وقد انتقل ابن خلدون من رصد مصادر الكذب في اخبار المؤرخين وكيفية تجاوزه ، إلى استخدام الحقائق التاريخية في دراسات الاجتماع

الإنساني وانتهى إلى عدة قوانين من أهمها قانون الأطوار الثلاثة للمجتمع الإنساني .. ومنذ ذلك الوقت أخ الباحثون في عالم الاجتماع يتوسعون في استخدام البحث التاريخي ، لما يضيفه من ثراء في فهم الظواهر الاجتماعية .

والبحث التاريخي يمثل نموذج البحث الكيفي الأصيل ، لأنه يختار مشكلاته نوعية ويعتمد على مادة كيفية ، ويستعين بأساليب التحاليل الكيفي دون سواه في معالجة هذه المادة ، وفى نتائجه يميل إلى الطبع الكيفي وإن كانت هناك بحوث أخري اجتماعية تقترب من نموذج البحث الكيفي مثل البحث الاستطلاعي خاصة عندما يجري مسحاً للتراث والدراسات السابقة ، أو يتناول بالتحليل بعض الحالات المثيرة للاستبصار ، إلا أنه قد يستفيد من بعض عناصر البحث الكمي الأخرى في تحقيق أهدافه ، مثل دراسة عينه ذوي الخبرة . وقد تنطوي بحوث المستقبل بالمثل على بعض عناصر التحليل الكيفي ، خاصة ذلك النمط من البحوث المستقبلية الذى يعرف باسم البحوث المستقبلية المعيارية خاصة عند استناده إلى مادة كيفية وتحليلاته لحقب تاريخية ، هذا بينما تعتمد البحوث المستقبلية الاستطلاعية على عناصر كمية ، من أهمها المادة والبيانات الكمية ، وأساليب التحاليل الإحصائي المناسبة لها .

ويعتبر البحث التاريخي من أكثر أنواع البحوث الاجتماعية صعوبة وتعقيداً وصعوبة ، وهو ما يتضح من اعتماده على مادة تاريخية يحصل عليها من مصادر ووثائق مختلفة ، ويراعى ان تكون معظم مادته هذه من مصادر أولية ، وهى نادراً ما تتوافق ، ويحتاج التنقيب عنها إلى جهد مضن ن والبحث في أماكن مختلفة ويتطلب الحث التاريخي ضرورة تحقيب التاريخ وتقسيم الزمن الذى يغطيه البحث إلى فترات زمنية فرعية.. هذا ناهيك عن صعوبات التحليل الكيفي للمادة التي تم جمعها ، من حيث الاختصار والعرض ، والاستنتاج . ولكل هذا كان البحث التاريخي غير مرحب به ، وينفر من الباحثون ويتجهون إلى ما هو أسهل في مادته وتحليلاته ، وذلك أيضاً ، كان القيام ببحث تاريخي ينطوي على شجاعة وإقدام واختيار السير في الطريق الصعب .

والجدير بالذكر أيضاً أن البحث التاريخي ينطوي على درجة عالية من المرونة ، بمعنى إمكانية تعديل وتبديل عناصره وخطواه وإجراءاته ، وذلك في مقابل ودرجة التقنين والتحديد التي قد نلاحظها في أنواع البحوث الاجتماعية الأخرى ، والبحث الوصفي يلتزم بمبادئ الاقتصاد في الوقت والجهود والإمكانيات ، ويتوقف على توافر معرفة سابقة بالموضوع أو الظاهرة التي يقوم بوصفها ، والبحث التدريجي يلتزم بالضبط والقياس ،وتوفير مجموعات متساوية ، وظروف قياس موحدة ...إلخ ، والبحث التقويمي يظل مرتبط بالبرنامج موضوع التقييم منذ الخطوة الأولى له في وصوله إلى نتائجه . وتفوق درجة المرونة الملحوظة في البحث التاريخي ما قد يظهر من مرونة في البحث الاستطلاعي .

ثانياً: أهداف البحث التاريخي واهميته في العلم الاجتماعي:

ربما ساعدنا التعرف على استخدامات التاريخ في البحث الاجتماعي على معرفة أهدافه وأهميته فنادراً ما يناقش الباحثون الاجتماعيون قيمة البحث التاريخي ، وهم بطبيعة الحال قد يختلفون حول الكيفية التي يجب أن يستخدم من أجل تحقيق أهداف البحث العلمي الاجتماعي ، وحول مسألة مكانته المناسبة في إطار الميدان الأوسع للبحث الاجتماعي . وهناك قضيتان لهما دلالاتهما الجوهرية . يتعلق بعضها بمسائل كيفية تصور العلاقة بين الماضي والحاضر وترتبط الأخرى بكيفية تقدير أهمية الفهم التاريخي للظواهر الاجتماعية على وجه الخصوص . ونتوقع من خلال تناول العلاقة بين الماضي والحاضر الوقوف على أهداف البحث التاريخي في العلم الاجتماعي .

١- فصل الماضي عن الحاضر:

إن التصور الشائع ، وليس السائد للعلاقة بين الماضي والحاضر هو أن الماضي يفهم على أنه أشبه بعالم منفصل ، خاصة من الناحية الأمبريقية والتصورية ، أو ينعزل عن الحاضر. وفى إطار هذا التصور هناك فصل جذري للماضي والحاضر ، ويفهم الماضي أساساً على أنه مصدر أو مورد Resource ويتشكل من مستودعاً ضخماً من الأمثلة (

التاريخية) حول التنظيمات الاجتماعية والتفاعلات الاجتماعية والسلوك الاجتماعي ، ويمكن أن يستخدم كمخزن هائل والاستفادة منه لأغراض البحث الاجتماعي . فعلى سبيل المثال يمكن النظر على الماضي على انه يشتمل على معلومات امبيريقية حساسة يمكن على أساسها اختبار فروض معينة ، أو البناء عليها وإقامة تعميمات محدودة وبالتبادل ،قد ينظر إلى الماضي على أنه يشتمل على حصيلة من العينات الجديرة بالاهتمام حول الظواهر الاجتماعية .

والتي ربما تمت دراستها وبحثها على أنها (حالات) ، وربما كجزء من مشروع بحث اجتماعي يهدف إلى بناء تصور للنماذج المثالية ، أو مهيأ نحو بناء هذه النماذج . وعلى الرغم من التباينات في النسخ المحدودة في هذا التصور ، فإن كل منها يتخيل مهمة البحث التاريخي على أنها تتمثل في توفير البيانات الضرورية ، والتفاصيل التاريخية اللازمة لتسهيل اجراء مشروع البحث الاجتماعي المعنى . وقد تشتمل الأمثلة على مثل هذا البحث التاريخي :

١- بحث الحالات الماضية للانهيار الاقتصادي ومحاولة التعرف على شواهد للإحياء الديني المعاصر التي قد تخدم في اختبار الفرد الذى مضمونه أن التدهور الاقتصادي قد ينشأ صوراً من الإحياء الديني .
٢- دراسة لبريطانيا في أواسط القرن التاسع عشر على أنها حالة مثالية تمثل الرأسمالية الصناعية الكلاسيكية .
٣- دراسة المجتمعات المسيحية في القرن الثالث في أنها مثال من الطائفة الدينية ، وبناءً عليها ، يمكن تصور بناء النماذج المثالية لكنيسة والطائفة .

ومع هذه الأمثلة المشار إليها ، فسوف يعتمد النوع المحدد للبحث التاريخي الذى يمكن إجرائه على الطريقة الخاصة التي يتم بها تصور الماضي على أنه مصدر أو مورد ، وعلى الكيفية التي يفهم بها الباحث الاجتماعي مهمته ، سواءً أكانت بناءً تصويراً لمجموعة من التعميمات " تشبه القانون لتفسير التحول التاريخي والفروض المرتبطة بها ، أو تطوير ودعم المخزون العلمي الاجتماعي من النماذج والانماط المثالية .

٢- الاستمرارية بين الماضي والحاضر :

هذا الفهم الخاص للعلاقة بين الماضي والحاضر ، وبين البحث الاجتماعي والتاريخ لم يمض دون تحد . فلقد كان الفصل الجذري للماضي عن الحاضر والتصور المرتبط به والذى يعتبر الماضي بمثابة مورد وليس أكثر من ذلك ، كان موضع تشكيك . وكذلك كانت الفكرة عن البحث الاجتماعي باعتباره يجسد ويتطلع إلى نوع من الفهم ليس تاريخيا في ذاته كانت أيضاً محل معارضه . فعلى المقابل من هذه المواقف ، تمت الإشارة إلى أن الكثير من الحاضر يعد محصلة للماضي ، ونتاج لأفعال سابقة ونشاطات وحتى أحداث ، باختصار ، إن الكثير من الماضي ، ليس بعيداً أو انتهى او ذهب ، وإنما يظل حولنا يحيا وفى حالة جيدة . ومن هذا المنظور فإن العالم الاجتماعي الذى نعيش فيه أو نقطنه ليس منفصلاً على نحو ظاهر عن الماضي ، وإنما دخل في صنع العالم ويمثل وضعاً يعاد توارثه بشكل متكرر وتمر عليه الاجيال المتعاقبة ، واذلك تستمر القضية .

وإن كثير من الظواهر الاجتماعية الجارية تعد ظواهر تاريخية في طبعها ويتعذر استئصالها ، وهى تحمل على نحو متكرر علامات على جذورها ويتطلب الأمر فهمها من خلال مصطلحات تاريخية وهذه الوجهة للنظر والبديلة تتصور دوراً متميزاً للبحث التاريخي ، ليس ببساطة باعتباره يوفر شواهد مصنوعة عبر التاريخ وأمثلة يستخدمها البحث الاجتماعي ، وإنما باعتباره شريكاً كاملا في المشروع العلمي الاجتماعي الأوسع .

ومن ثم فإن البحث التاريخي قد ينظر إليه باعتباره صورة خاصة للبحث الاجتماعي ، حيث يهدف البحث على سبيل المثال ، إلى التعرف على أو كشف وتحليل الأصول والمصادر والأسس والأسباب التي تقف وراء الظواهر الاجتماعية الجارية ، فقد يعزز اهتمام البحث العلمي الاجتماعي بظاهرة القومية Nationalism على سبيل المثال ، بحث يسعى إلى التعرف على أو تتبع نشأة وتشكل قوميات الأقلية خلال عملية إعادة بناء الجوبولتيكا (الجغرافيا السياسية) ، سواء

عن طريق مؤتمرات إعادة رسم خريطة القوي في العالم ، كما حدث في فرساليا في عام ١٩١٩ ، أو عن طريق ما يتحقق من خلال الغزو العسكري وثروات الحروب .

ومثل هذا البحث يحتاج إلى أن نسير بعناية ؛ لكى نتجنب فهم الأصول المضللة ، كما يبدأ ببساطه خلال الزمن ، وفهم الأصول باعتبارها تفسيرات سببية . فقد تكون هناك مجموعة واحدة من العوامل هي المسئولة عن ظهور موقف معين إلى الوجود ، بينما قد تعمل مجموعة مغايرة تماماً من العوامل على استمرار واستدامة بقائها حية لاحقاً. لقد لعبت الأخلاق البروتستانية فيما يري فيبر Weber دورها في نشأة صورة من السلوك أدت إلى نشاطات رأسمالية ، ولكن في اللحظة التي تأسست معها هذه النشاطات ، فإنها قد تستمر تمثل المصدر الذى تدعيه على نحو مستقل . وفى الواقع ، إن الخلافات التي أحاطت بالجدل حول قضية فيبر عن أصول الرأسمالية كشفت عن بعض المثالب ونطاق سوء الفهم الذى صاحب عموماً محاولات توفير تفسيرات تاريخية وعوامل للظواهر الاجتماعية الجارية .

وهكذا يصبح من الواضح أن هناك أهداف محددة يسعي إليها البحث التاريخي في العلم الاجتماعي ، تبلورت بناء علي تصور العلاقة بين الماضي والحاضر، بحيث أن التسليم بأن الماضي منفصل عن الحاضر ، تجعلنا نعتبر التاريخ موردا أو مصدرا يوفر لنا أمثلة وعينات وحالات، يمكن الاستفادة منها في البحث التاريخي ، وفي بناء تعميمات أو اختبار فروض، أو بلورة نماذج مثاليه ،حول ظواهر اجتماعية كثيرة، مثل التدهور الاقتصادي وإحياء الديني والطائفية الدينية والرأسمالية أو غيرها ومن ناحية أخري إن التسليم بأن الحاضر استمرار للماضي، يجعلنا نعتبر العالم الاجتماعي الذي نعيشه اليوم ، تكرار لما حدث في الماضي، وأن الظواهر الاجتماعية تاريخية في طبيعتها، ويتطلب فهمها البحث عن جذورها في الماضي، وتحليل أصولها ومصادرها وأسسها وأسبابها، بمثل ما حاول فيبر البحث عن نشأة الرأسمالية في الأخلاق البروتستانتية ، وفي ضوء هذه الأهداف التي تحددت للبحث التاريخي في العلم الاجتماعي يمكن التقدم نحو بيان الأهمية التي تعلق علي هذا النوع من البحث .

لقد شغل تاريخ المجتمع الإنساني وظواهره والقوي الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية التي تقف وراء التاريخ، اهتمام رواد علم الاجتماع، بدءا من ابن خلدون واستمر هذا الاهتمام حتى وقتنا الحاضر، بل لا نبالغ في القول أنه قد أخذ في التزايد . ويأتي اهتمام المشتغلين بعلم الاجتماع والاستعانة بالتاريخ والأسلوب التاريخي بناء علي قناعة عملية بأن الفهم التاريخي لظواهر وموضوعات وقضايا ومشكلات علم الاجتماع، يعوض الكثير من النقائص في المعالجة العلمية للظواهر الاجتماعية، ويوفر مادة علمية تلقائيه غالبا، ويعيده عن التصنع العلمي ،الذي ينتج عن الخصائص النوعية لموضوعات علم الاجتماع وعلاقه الباحث بها قربا وبعدا وتدخلا.

أضف إلي ما سبق إنه لم يعد أحد من المشتغلين بالعلوم الاجتماعية اليوم يجهل وجود علاقة وثيقة بين التاريخ وعلم الاجتماع، وهي علاقة تنعكس بالإيجاب علي كلا الطرفين. فعلم الاجتماع في جده نحو بحث تطور المجتمع البشري، من حيث عوامل هذا التطور وعملياته وقوانينه، يهدف علي توظيف نتائج هذا البحث في صناعة مستقبل أفضل تتجلي فيه إرادة البشر، ويعبر من خلاله عن حاجاتهم وقدراتهم وآمالهم، ولهذا يري الكثير أن علي علم الاجتماع ان يكون علما تاريخيا. بمعني ألا يقف عند حدود العرضي والثانوي والجزئي، والآني من الظواهر الاجتماعية وأبعادها ومؤشراتها، بل عليه أن يتعمق تاريخها وصولا إلي المطرد، والجوهري، والكلي من الظواهر، والخصائص، والأبعاد والمؤشرات، والعمليات.

ويتطلب هذا الأمر بحثا جادا عن جذور الظواهر وتشابكاتها، مما يقتضي بدوره الاستناد إلي رؤية منهجية تاريخية ، وتساعد على تتبع جذور ما يدرسه وتطوراته وتدخلاته ، وهذه الرؤية بحاجة إلي مفهومات ومقولات نظرية تساعد في وضع معايير وأسس تصنيف هذه الظواهر وتلك العمليات والتمييز بينها، رؤية دينامية ، باعتباره ظواهر الكون، ومنها المجتمع البشري، في حركة تستمر، بين المد والجزر، والانحسار والانكسار والازدهار.

والمشتغل بعلم الاجتماع في محاولته السير صوب كل هذا، لابد له من مادة تاريخية تغطي مساحتها مطلبه العلمي من الشواهد والأدلة. ومن هنا، يمكن فهم لماذا كان كل تقدم في الدراسات التاريخية بمعناها الشامل الذي يضم التاريخ والبحث التاريخي، هو ركيزة تساعد علي تقدم علم الاجتماع وبلورة آرائه وأدواره العلمية والمجتمعية. ومن ناحية أخري ، يعد كل تقدم في منهجية علم الاجتماع، بمعني المفاهيم والقضايا النظرية والإجراءات البحثية، بمثابة ركيزة تساعد علي تقدم البحث التاريخي.

إن الباحث التاريخي الذى يهتم بتحليل الوقائع والحوادث وتحليلها وتركيبها وقراءتها وجعلها تنطق وتكشف عن معناها، بحاجة إلي ما يساعده علي انتقاء الوقائع والحوادث والشواهد التاريخية، وتصنيفها وترتيبها وتحديد ما بينهم من علاقات وتشابكات. هذا الباحث يمكن أن يجد في علم الاجتماع ما يعنيه علي تطوير هذه العمليات البحثية وشحذها، هذا فضلا عن أن المعلومات والبيانات والنتائج الدقيقة التي يصل إليها المشتغل بعلم الاجتماع اليوم قد تكون من بين مادة الباحث التاريخي غدا أو بعد غد.

وهكذا قد نجد النقائص في المعالجة العلمية للظواهر الاجتماعية ، التي لوحظت علي البحوث الكميه في علم الاجتماع، وميلها إلي التصنع العلمي ، وتجزئة الحقيقة الاجتماعية، وبعدها عن التلقائية ، تعويضا عن الكثير من هذه النقائض. كما أن اهتمام البحث التاريخي بدراسة تطور المجتمع البشري والتعرف علي عوامل وعمليات وقوانين هذا التطور ، بهدف توظيف نتائج هذا البحث في صنع مستقبل أفضل لهم، يعبر عن قدراتهم وآمالهم، مما يؤكد أهمية الحاجة إليه كأساس لا غنى عنه في صياغة استراتيجيات التنمية في المستقبل.

أسئلة المحاضرة السادسة

س١/ ((البحث التاريخي يمثل نموذج البحث الكيفي الأصيل .))

اشرحى / اشرحي العبارة السابقة بالتفصيل

المحاضرة السابعة (الإجراءات المنهجية في تصميم البحث التاريخي)

ثالثا: الإجراءات المنهجية فى تصميم البحث التاريخى:

ويقصد بالإجراءات المنهجية، مجموعة الخطوات والمراحل والعمليات والأساليب التي لابد منها في وضع تصميم مناسب لهذا النوع من البحوث. وهي إجراءات يتوقع أن تكون مغايرة لما هو متبع من إجراءات في تصميم الأنواع الأخرى من البحوث الاجتماعية ، ربما كان اختلاف الموضوعات والمشكلات والقضايا والظواهر التي يعني البحث التاريخي ، وكذلك اختلاف الأهداف التي يسعي إليها هذا البحث، هو الذي يفرض عليه إتباع مثل هذه الإجراءات المحددة والخاصة . ولذلك، قد نلاحظ أن اهتمام البحث التاريخي باختيار موضوع له ومحاولة تحديده بناء علي ما يسلم به في تصوره للعلاقة بين الحاضر والماضي، ثم محاولته تحديد المدى الزمني الذي يغطيه هذا البحث التاريخي، وكيفية تقسيم هذا الزمن إلي فترات تاريخية، بمعني تحقيب الزمن علي نحو مناسب ، وبعد ذلك تحديد نوعيه المادة ة والبيانات، وتحديد مصادرها والتأكد من صدقها، ثم البدء في عمليات تحليلها، تشكل في مجموعها أهم وأنسب الإجراءات المنهجية اللازمة لتصميم البحث التاريخي.

١- صياغه مشكلة البحث التاريخى فى صورة فروض:

لسنا في حاجة هنا إلي التذكرة بضرورة أن يتم اختيار مشكلة البحث التاريخي في ضوء الشروط المعروفة التي تجعلها صالحه للبحث والتي سبق أن تناولناها في الفصل الثاني، وإنما ما نريد أن نؤكده هنا إن الأمر يتطلب العناية بتحديد مشكلة البحث وصياغتها علي نحو يساعد بعد ذلك السير في الإجراءات المنهجية الملائمة لتصميم البحث التاريخي. وهنا تبرز لنا أهمية الإشارة صراحة إلي المسلمات التي يستند إليها البحث، باعتبارها أحد خطوات تحديد المشكلة، كما سبق أن بيناه أيضا في الفصل الثاني، وهل يتطلق البحث من التسليم بأن الماضي الذي يدرسه منفصل عن الحاضر ،أم الاقتراض جدلا بأن الحاضر استمرار للماضي ، لأنه في الحالة الأولي يعتبر الماضي بمثابة مستودع من الحالات والعينات التي يمكن الاستدلال بها علي صحة فرض يعبر من خلاله عن الموضوع الذي يهتم بدراسته،

وفي الحالة الثانية التي يعتبر فيها أن الحاضر استمرار للماضي، ويحاول البحث عن الأسباب والأصول التي تقف وراء الظاهرة موضوع الدراسة فإنه مضطر إلي التعبير عن العلاقة بين هذه الأسباب والظاهرة المدروسة في صورة فروض أيضا يتطلب الأمر التحقق منها، وهكذا يمكن اعتبار البحث التاريخي بمثابة واحد من البحوث الاجتماعية التي تهدف إلي اختبار صحة الفروض.

٢- تحديد المدى الزمنى للبحث وتقسيمه إلى فترات:

إذا كان التاريخ في نظرة البعض يعني الماضي البشري ذاته، وفي نظر البعض الآخر يعني الجهد المبذول لمعرفة ذلك الماضي ورواية أخباره ،فإن الماضي يمتد في الزمن ربما لقرون أو لآلف السنين . ولذاك كان من الصعب في البحث التاريخي ودراسة هذا الماضي استيعاب كل هذه السنوات، وكان من المنطقي أن يعمل كل بحث تاريخي علي تحديد مدي زمني ملائم سواء لإمكانيات القائم أو القائمين علي هذا البحث أفرادا أو جماعات، أو للموضوع الذي يدور حول البحث التاريخي .

فعندما فكر الباحثون في المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في دراسة التغير الاجتماعي في المجتمع المصري مستفيدين من إمكانات هذا المركز المادية والبشرية حدودا مدي زمنيا لدراستهم وحصروها في الخمسين سنة التي بدأت بثورة يوليو عام ١٩٥٢ وانتهت في عام (٢٠٠٢) موعد انعقاد مؤتمرهم حول هذا الموضوع، وهو مدي زمني ملائم وموضوع البحث ، وما يحتاجه من إمكانيات وموارد متباينة ، متوفرة لا شك في هذه المؤسسة القومية.

ولما كان هناك صعوبة أخري تواجه البحث التاريخي عند تناوله لهذا المدي الزمنى بالتحليل مرة واحدى اهتدوا إلى تقسيم الفتر المدروسة إلى فترات فرعية ، تقسيمها إلى حقب زمنية فرعية ، وهذا ما لاحظناه في بعض دراسات مؤتمر

المركز حول التغير الاجتماعي في المجتمع الاجتماعي في المجتمع المصري المشار إليه سابقاً ، إذ اهتمت دراسة سياسات التنمية والتشغيل في مصر بتقسم الفترة المدروسة (المدى الزمنى البالغ خمسين عاماً) إلى حقب أو ثلاث فترات فرعية ، الفترة من يوليو ١٩٥٢ – ١٩٧٣ ، والفترة من ١٩٧٤- ١٩٨٩ ، وأخيراً الفترة من ١٩٩٠ – ٢٠٠٢ ، ولذلك تثور هنا مجموعة من تساؤلات حول تحقيب التاريخ ، ودوره ، وأهميته ، وما هي المعايير التي يمكن الاستناد إليها في هذا التقسيم

(أ) دور التحقيب (تقسيم الزمن إلى فترات) فى البحث التاريخى :

يحتاج القائم بالبحث التاريخي أن يميز بعناية بين مفهومين اثنين اخرين ، غالباً ما يتم الخلط بينهما تحت العنوان العام " دراسة التاريخ " . وأول هذه المفهومات هو البحث التاريخي الأصيل Genuine، أو المؤرخ Historiography . كما يقال أحياناً ، والمفهوم الاخر ، هو تقسيم الزمن إلى فترات ، تحديد وقت الحدوث وزمن الأحداث بالنظام الذى حدثت فيه ، وتقسيم الزم إلى فترات عادة ما يمثل مجرد قائمة بالتواريخ والأحداث ، ولذلك فهي ليست البحث ، لأن مجرد تقسيم الزمن إلى فترات يحدد وفقه الأحداث بالنظام الذى حدثت به ، ولكنه لا يتطلب تفسيراً أو معنى اهذه الأحداث ، فهو من هذه الناحية يعجز عن تحقيق المطلب الأول الذى يسعي إليه النظام الفكري (العلم) الذى يجري في إطاره البحث .

وهذا ليس معناه إن تقسيم الزمن إلى فترات لا يشغل مكاناً هاماً في الدراسة التاريخية ، وإنما هذه العملية تشكل فائدة للبحث ، كما يشكل الطحين قيمة لآلة الطحن . ويمثل الخطوة الأولي في عملية تفسير البيانات ، باعتبار التفسير عنصراً ضرورياً في كل بحث .

وهنا يطرح الباحث على قائمة التحقيب عدة أسئلة ، ما الذى تقوله هذه الأحداث وماذا تعني ، هل هي مجرد أحداث منفصلة ، أم أن هناك علاقة فيما بينها . وهى الأسئلة التي يقوم الباحث بطرحها على البيانات ، وتمثل الاتجاه الأساسي للبحث التاريخي . وأنه إذا كان علينا أن نجري بحثاً تاريخياً علينا أن لا نسعى فقط إلى التعرف على وعزل سلسة الأحداث التي ينطوي عليها التاريخ الأصلي ، وإنما علينا أيضا أن نفهم معناها في ضوء علاقتها بكل منها والأخر ، وبالمشكلة موضوع البحث .

وينفرد التاريخ بتعدد أبعاده ، وأحد هذه الأبعاد هو الزمن التاريخي Historical Time ، والآخر هو بعد المكان التاريخي Space ، وكلا هاتين البعدين لهما أهمية قصوى للباحث عندما يقوم بتفسير بيانتاه التاريخية . وإذا كنا نناقش الزمن التاريخي أولاً ؛ فهذا يرجع إلى أن التاريخ يصعب فصله عن الزمن ، الذى حدثت فيه الأحداث ، وسنفحص تقسيم الزمن إلى فترات فى ضوء علاقات الزمن وتوجهاته .

ولقد أشرنا إلى أنه كلما تعددت الزوايا التي ينظر من خلالها إلى البيانات بقدر ما تصبح هذه البيانات أكثر معنى مع كل زاوية للنظر ، والبيانات التاريخية ليست استثناءً من هذه القاعدة .

وينقسم الزمن إلى فترات ، وتحديد موقع الأحداث فى كل فترة ، لم يعد مجرد بنود بينها فراغات مكانية ، وإنما يصبح سلسلة من الأحداث وضعت عبر متصل Chronological data Continuum من الزمن عند النقاط المحددة لحدوثها ، وعند هذا الحد تصبح الدينامية التاريخية مسألة واضحة . والباحث التاريخي الذى يدرس أكثر من مجموعة واحدة من البيانات عبر تقسيم الزم إلى فترات فى داخل نفس الإطار الزمنى ، قد يتوافر له فهماً متزايداً من خلال ترتيب مقاييس خط الزمن المتعدد على شاكله أسلوب المسطرة الحاسبة Slide –rule . وأحياناً ، تعد الطريقة الواقعة للنظر فى أبعاد الزمن والمسافة في المنظور التاريخي ، هو النظر إليها بالعكس . فالبيانات التاريخية تقف في هذا المنظور على مسافة قرون أو ألفية من الباحث ، وهى تنطوي على ميل إلى أن تكون تلسكوبيه (بعيدة) وتصبح مزدحمة على بعضها الآخر على نحو غير واقعى . ويمتلك الزمن التاريخي طريقة بارعة ليصبح مخادعاً إلا إذا كنا يقظين تماماً لهذه الحقيقة .

ويعنى مفهوم المجال التاريخي Historical Space إن الأحداث تقع في لحظه معينة خلال الزمن ، فهي أيضاً لها بعد مكاني مساو . وفى محاولة فهم دلاله الحقيقة التاريخية فإن يعد المكان (اين) يعد من الأهمية كما لبعد الزمن (متى) . إذ يمكن لنا ترتيب نفس الحقائق التاريخية في ثلاثة عروض منفصله ، الأول على أنها قائمة حقب (تقسيم الزمن إلى فترات) بسيطة ، ثم عبر متصل خط زمنى ، وثالثاً في علاقتها الجغرافية بعضها بالآخر . وكل ترتيب يوفر لنا فهماً

إضافيا لما تنطوي عليه البيانات . ماذا تعنى هذه الوقائع ؟ ويكشف الترتيب الجغرافي للمعلومات عن عدد آخر من الاستبصارات الجديدة ، لم تكن تظهر في الترتيب الزمنى لها .

(ب) معايير تقسيم الزمن إلى فترات (التحقيب) في البحث التاريخي :

إذا كانت هناك تقسيمات شائعه في الكتابات التاريخية ، فإنها تستند إلى منطق وفلسفة خاصة ، وتبنى على معايير هامة من وجهة نظرها ، ربما جعلتها تخضع تقريباً لحوادث بارزة ، ثورة أو حملة عسكرية ، نظام للحكم ؛ مثال ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ ، أو مرحلة حكم محمد على ، ولما كان هذا التقسيم ومعاييره قد أخذ عليه أنه قد يحول دون أن يدرك الباحث تلك التغيرات الكيفية والمراحل الاجتماعية وحركة الجماهير ، لأنه يفرض على التاريخ مقولات ميكانيكية ، فالتغيرات فى العلاقات الاجتماعية كما حدثت في الريف مثلاً ، وإن كانت قد تأثرت بقانون الإصلاح الزراعي الأول عام ١٩٥٢ ، فإن صدور القانون لا يعنى بذاته تغيراً إلا عندما يتحول القانون إلى ممارسة ، وعندما تتطابق هذه الممارسة مع الخطاب والمضمون التاريخي ، كان من المنطقي أن يبحث عالم الاجتماع في بحثه التاريخي عن معايير أخري .

ويبنى تحقيباً نوعياً يرتبط بمراحل وتحولات اجتماعية واضحة المعالم ، ويدرك في الموقف نفسه أن حادثاً ما سياسياً أو عسكرياً كثورة ، أو حرب رغم أنه يحدث في تاريخ محدد إلا أن وقوعه يكون نتيجة مقدمات وتغيرات سابقة ، وأيضا تغيرات لاحقة لا تظهر نتائجه إلا بعد وقوع هذا الحدث بسنوات قد تمتد إلى عدة عقود من الزمان . ولذلك فالمشتغل بعلم الاجتماع بحاجة إلى تنميط الحقب والمراحل في ضوء معايير بنائيه كيفية تعبر عن مراحل تاريخية متميزة ، وتعبر كل منها عن تغير واضح في العلاقات الاجتماعية الجوهرية داخل البنية الاجتماعية ، أو في تفاعلها مع العوالم الخارجية .

(٣) التنقيب عن البيانات ومادة البحث والتأكد من صحتها :

يشار إلى المنهج التاريخي في سياق النظم الفكرية المتعددة وفى إطار العلوم الاجتماعية في الوقت الحاضر ، باعتباره الأساليب التي تحاول التنقيب عن مجموعة متباينة من مواد المصادر والبيانات وهى أساليب التحليل التي يتم الاستفادة منها داخل علم التاريخ كنظام فكري ، ويتم استخدامها في البحث الاجتماعي ، وعلي الرغم من أن هناك قبولاً متزايداً داخل الميدان الأوسع للبحث الاجتماعي ، إلا أن استخدام المناهج التاريخية لم يكن مرحب به دائماً ، وظلت العلاقة الدقيقة بين البحث التاريخي والاجتماعي وبين التاريخ وجوهر العلوم الاجتماعية مسألة خلافيه

ويعد المنهج التاريخي بمثابة وسائل نتعامل بواسطتها مع الدلالات والمعني الكامن في التاريخ ، فالتاريخ ظاهرة ، أو هو بمثابة نص يعكس التدفق الشديد للأحداث ، أو سجل ذو معني لتتابع النشاط الإنساني .

ويهدف المنهج التاريخي إلى تقدير المعني وقراءه رسالة الأحداث التي يرتبط خلالها الناس والأحداث ببعضهما الآخر على نحو له معناه ، ولذلك كان الهدف الذي يسعي إليه المنهج التاريخي ، هو تفسير ملامح الزمن الماضي والنظر فيما قد يعتبر مجرد حدوث لمصير غير معلوم في شكل مبدأ أو قانون .

ولكى يقدر الباحث التاريخي بدقه ، معني وعلاقة الأحداث ، عليه دائماً أن يسعي بأن يكون قريباً من الأحداث الأصلية بقدر ما يستطيع على أمل يمكنه من إعادة بناء التاريخ على نحو أفضل من الناحية التصورية .

ولذلك فإن الباحث التاريخي يعتمد عموماً على المصادر الموثقة ، بالرغم من أن كل ما يصنعه الإنسان Artifacts قد تم دراسته إما في ذاته أو في علاقته بالشواهد الموثقة ،. ولذلك فإن الباحث في سعيه نحو الحقيقة التاريخية يعتمد بقدر الإمكان على البيانات الأولية فقط Primary data ، لأن استخدام البيانات الأولية يميل إلى تأكيد درجة تكامل الدراسة وقوة ثباتها .

وعند النظر إلى مادة البحث التاريخي Historical Research Materials نجد أن المواد والبيانات التي تستخدم في التحليل في نظام فكري مثل علم التاريخ تتميز بعدم التجانس إلى حد كبير ، وبأنها تنتشر عبر مجموعة متباينة من

التخصصات وفروع النظم الفكرية التي تتأرجح عبر سلسلة الخبرة الإنسانية التاريخية . وهذا ما يضفى على مهمة توفير تعريف شامل وواف شيئاً من الصعوبة . وبدلا من ذلك ، سوف نقدم هنا مسحاً انتقائياً مختصراً لبعض المصادر الأكثر شيوعاً في استخدامها ولمن يقومون باستخدامها ، لكى نشير إلى التباين الواضح للمواد ومصادرها ، والتباينات فى استخداماتها والتي خصصت له .

وسوف تعتمد مادة المصادر التي تؤخذ في الاعتبار واستخدامها في البحث التاريخي ، على الموضوع محل البحث ، ودرجة اهتمام الباحث خاصة بهذا الموضوع ، وطالما أن البحث التاريخي لا يحتل وضعاً تعتز به الدولة فإن الأمر يتطلب استخدام مجموعة بديلة من المصادر في العادة .

وهذه المصادر تشمل مجموعة أوسع من المواد ، ويدخل فيها مصادر من وثائق غير رسمية ، مثل خطابات بين الأفراد ، ووثائق الاستقرار الزواجي ، وعقود الإيجار ، ووثائق السفر ، والخرائط ، والإعلانات التجارية . وقد يضاف إلى ذلك ثالثاً : مجموعة من المصادر الغير مكتوبة ، ولازالت تعيش في الذاكرة الشعبية ، مثل الفلكلور والأغاني والأشعار الشفهية . وأكثر من ذلك ، المادة الفنية ، مثل الآثار والمباني والأدوات والآلات ، وقد تستخدم كمصادر ، سواء كبديل لمصادر أخري ، أو توفير الفهم والمعلومات والشواهد التي لا يحتمل أن توفرها المصادر المكتوبة وفى النهاية ، قد يتم استخدام خليط من المصادر ذات الخصائص المختلفة ، مثل أسماء الأماكن ، والأوصاف على الأضرحة ، والطقوس المتباينة والممارسات الشعائرية بهدف إلقاء الضوء على الحياة الماضية . وهنا يثار سؤال ؟ كيف يمكن التعرف على المصادر الأكثر ملائمة أو ما هو أساس الاختيار فيما بينهما ؟ هذه المجموعة العصية unrulyمن مادة المصادر في الأساس والمتاحة للباحثين التاريخيين تلقى على عاتقهم مهمة التعرف على اختيار المصادر الأكثر ملائمة التي يمكن العمل عليها .

ومن المحددات الحاسمة في عملية الاختيار هذه ، نذكر الموضوع المحدد والمخصص للبحث والاهتمام الخاص بالباحث . فعلى سبيل المثال ، ان الباحث المهتم بالكشف عن جوانب الهجرة الأوربية إلى أمريكا في أواخر القرن التاسع عشر ، قد يعنى بعملية صدور قوانين الهجرة الدولية والسياسات في كل كندا والولايات المتحدة . وهذا قد يتطلب أن يركز على الوثائق الرسمية المناسبة الخاصة بالحكومة في هذا الأمر ، وقد يهتم باحث أخر بخبرات المهاجرين ، وهم على ظهر السفينة في رحلتهم عبر الأطلنطي وسعيهم للتكيف مع الحياة الجديدة وظروفها . وهذا قد يتطلب استخدام سجلات السفن Log Book ورحلات النقل التجاري التي تحمل المهاجرين من أوروبا ويضاف ذلك إلى تقارير المصاحبين لهؤلاء الركاب مثل الكتبة والتجار ، ويزيد عليها المصاحبين بين المهاجرين من أقاربهم العائدين ، وعلى أية حال ، وكما توضح هذه الأمثلة ، فإن البحث التاريخي يعتمد أساساً على حيوية المصادر .

فقد تكون وثائق الهجرة الخارجية قد تعرضت للتمزيق ، ولم يتم الاحتفاظ بالخطابات التي يرسلها المهاجرين إلى بلادهم ، وحتى إذا احتفظ بها الأصدقاء والأسرة ، فإنها لم يتم جمعها وتخزينها من أجل استخدامات الباحثين في المستقبل . وهذا يسلط الضوء على العامل الأكثر أهمية والوحيد في عملية اختيار مادة المصادر ، وهو الذى يتمثل في نسختها الأصلية وحيويتها الباقية .

والحقيقة أن الباحثين التاريخيين يعتمدون أيضاً على تقلبات البشر في الماضي ونزوعهم نحو انتاج سجلات أو ترك عملية تتبعها خلف ظهورهم ، وهو ما يضعهم في موقف يميزهم تماماً عن الباحثين للأوضاع المعاصرة للمجتمع . فالباحثون التاريخيون لا يمكن لهم أن ينكبوا على موضوعهم في البحث أو ينشغلوا مباشرة به أو بأهداف دراستهم ، ولا يمكن لهم كباحثين تاريخيين أن ينتجوا بيانات من تصميمهم . ولم يتدرب الكثير من الباحثين الاجتماعيين على تقدير العينات الممثلة والجماعات الضابطة ، يمثل الاعتماد الجوهري للباحثين التاريخين على تقلبات الشواهد الحية والذى يقلل من وصول البحث التاريخي إلى مستوى المثالية . وعلى أية حال ، بينما تحتاج العبوب الأصلية في مادة المصادر المتاحة إلى أخذها فى الاعتبار كعامل حاسم ، فإمه من الضروري عدم المبالغة في الادعاءات التاريخية وتحديد مجال البحث التاريخي ، والشكوك فى الباحث الاجتماعي .

وللتغلب على الصعوبات والمشكلات والشكوك المثارة حول مادة البحث التاريخي ، يتطلب الأمر التأكد من مصداقية هذه البيانات من خلال تقديم الشواهد على البيانات والوثائق ، خارجياً وداخلياً ، أو من خلال النقد الخارجي والنقد الداخلي

Internal and external criticism لأنه من الأهمية بمكان معرفة ما إذا كانت الوثيقة التي يعتمد عليها الباحث كأساس لبحثه ، هي وثيقة أصلية ، لضمان مصداقية بحثه ، وهذا ما يعنيه النقد الخارجي ، أما النقد الداخلي فهو يتعلق بالمعني أو ما إذا تعني الوثيقة ، وما الذى كان الكاتب يحاول قوله ، وما هي الفكرة التي يحاول توصيلها ، أو بعبارة أخري أعم ماذا تعني الكلمات وما هو القصد ، وما هي الرسالة التي تحاول توصيلها .

(٤) التحليل الكيفى لبيانات البحث التاريخى :

وفى البحوث التاريخية ، ربما أكثر من أي نوع آخر للبحوث ، يجد الباحث نفسه في شراك أو مستنقع ملئ بالملاحظات ، وكروت الملاحظات وكروت القوائم ، والمذكرات . وإن كان من السهل قراءتها وأخذ الملاحظات ، ولكنه من الصعب للكثير من الباحثين تنظيم هذه الملاحظات في صورة حقائق مفيدة ذات معنى بالبحث . ويتطلب التعامل مع البيانات التاريخية خطة منسقة ليس فقط لعملية جمع البيانات وإنما يتطلب أيضاً لعملية تنقية وتحليل البيانات . ولذلك ، قبل البدء فى البحث التاريخي علينا أن نوفر خطة معينة ، لاكتساب وتنظيم وتخزين ، وتنقية البيانات . وهناك أساليب إرشادية مقترحة تساعد على تطوير مثل هذه الخطة . بعضها يتعلق بالكروت المستخدمة فى جمع البيانات ، والأخر يتعلق بترميزها .

وهكذا ، لكى تكتمل حلقة البحث التاريخي ، وبعد الانتهاء من التنقيب عن المادة والبيانات التاريخية ومراجعة المصادر والوثائق التاريخية ، والتأكد من مصداقيتها كشواهد موثوق بها ، يتطلب الأمر الانتقال إلى مرحلة تحليل البيانات التاريخية ، وذلك في ضوء خطة وأساليب التحليل المعروفة في البحث الاجتماعي بأنواعه المتباينة ، لكن الامر الجدير بالتأكيد هنا ، أن التحليل في البحث التاريخي يختلف نوعاً عن التحليل في البحوث الأخرى ، لأنه تحليل كيفي في الأساس طالما كان البحث التاريخي ، يمتاز بأنه نموذج للبحث الكيفي الأصيل كما سبق وأشرنا . والتحليل الكيفي ، وكما سنتناوله بالتفصيل في محاضرة لاحقة ، يعتمد على أساليب مثل اختصار البيانات ، وعرض البيانات في صورة مصنفة أو مقارنة ، ثم استخلاص النتائج والتحقق منها . ومن الأساليب الإرشادية التي يمكن الاستفادة منها في خطة تحليل بيانات البحث التاريخي ، أنه إذا كان المؤرخ (عالم التاريخ) يهتم غالباً بالتتبع التاريخي المنظم

فإن الباحث في علم الاجتماع يهتم بالمراحل والحقب ولا يشترط دائماً أن تكون متتابعة بل أحياناً يأخذ مراحل متباعدة للمقارنة العلمية ، التي تساعده في الكشف عن العام والمشترك بين المراحل من ناحية والنوعي والخاص بمرحلة محددة من ناحية أخري . وفى الوقت الذى يسير فيه المؤرخ مه حركة التاريخ من الماضي في اتجاه الحاضر غالباً ، فإن الباحث في علم الاجتماع ، في حالات وأحيان بحثية محددة يبدأ من الحاضر ويسير نحو الماضي لتتبع نشأة وتطور ظواهر أو عمليات اجتماعية بعينها ، كما أن هناك أساليب إرشادية تفيد في عمليات المقارنة بين البيانات والمعلومات التاريخية ، كخطوة ضرورية في عملية تحليل البيانات التاريخية ، كأن تتم مقارنة عناصر الموضوع المدروس عبر حقب ومراحل تاريخية مر بها المجتمع الذى يدرس الموضوع من خلاله .

كأن يقارن الباحث بين معايير الاختيار للزواج وطرائقه والمهور عبر فترات تاريخية مختلفة ، ليكشف عن الثابت والمتغير نسبياً فيها أو المستمر عبر كل المراحل ، والذى ظهر في مرحلة واختفى في أخري ، وهذا نوع من المقارنة الزمانية ، وكذلك يمكن مقارنة عناصر أو أبعاد موضوع محدد في فترة أو حقبة مخددة ، عبر عدة مجتمعات ، لمعرفة العام والمشترك بين المجتمعات ، والنوعي الذي يختص بمجتمع معين ، كأن نقارن معايير الزواج وطرائقه في أحد الأقطار العربية في القرن العشرين بنظيره في أقطار عربية أخري .

وإذا كان تحليل البيانات في البحث التاريخي ينتهى باستخلاص نتائج محددة ، فإن الأمر يتوقف عند هذا الحد بل يتطلب تفسيراً للنتائج ، طبقاً للقواعد المعروفة في التفسير والتي سبق الإشارة إليها .

رابعاً : نماذج على تنفيذ البحث التاريخي :

على الرغم من صعوبة البحث التاريخي وما يتصف به من تعقيد وما يتطلبه من جهد ، مما جعله غير مرحب به بين الباحثين في العلم الاجتماعي ، واتصفت محاولات تنفيذه بالندرة ، إلا أن هذا لم يمنع من وجود محاولات اتسمت بالشجاعة والإقدام واقتحام هذه الصعوبة وتنفيذ بحوث تاريخية للظواهر الاجتماعية ، ربما ظهر بعضها في صورة كتب ، أو في صورة تقارير بحوث ، أو في صورة مؤتمرات ، أو في رسائل علمية للماجستير والدكتوراه أو غيرها ، ربما كان من المفيد التوقف عند بعض هذه النماذج وخاصة التي أمكن الاطلاع عليها ، أو المشاركة في مناقشتها ، حتى يتسنى لنا متابعة كيفية وضع التصميمات المنهجية لكل منها ، ومدي التزامها بالإجراءات المنهجية المناسبة للبحث التاريخي في كل حالة .

(أ) دراسة الأثار الاجتماعية للتغلغل الرأسمالي في القرية اليمنية :

وتبدو أهمية هذه الدراسة في خروج صاحبها عن دائرة الموضوعات التقليدية التي ترددت بين الباحثين في علم الاجتماع الريفي ، ومحاولاتها التصدي لقضية التخلف في القرية اليمنية ، والمشاركة في الحوار الدائر بين جمهور المثقفين والمهتمين في العالم العربي حول قضايا التخلف والتبعية ، اتضح ذلك من خلال انطلاق الدراسة من إطار نظري يضم بعض القضايا التي تطرحها نظرية التبعية . وأيضا لأن الدراسة فهمت إن للتخلف أبعاداً تاريخية ، واجتهدت في تعميق هذه الأبعاد مستعينة بالمنهج التاريخي أو الأسلوب التاريخي حسب زعمها ، معتمده على الوثائق التاريخية ودراسات ثانوية أخري متوافرة في التراث . وقدمت تحليلات مقارنة وربطت في تحليلاتها للقرية بين مستوي المجتمع الأكبر في اليمن ومستوي مجتمعات العالم الثالث ... الخ . والسؤال هنا إلى أي حد التزمت الدراسة بالإجراءات المنهجية اللازمة لتصميم البحث التاريخي ، وجاءت نموذجاً على تنفيذه في الواقع ؟

ولقد لوحظ أن الدراسة حرصت على صياغة مشكلتها في صورة تساؤلات رغم أنها اشارت في بعض مواقعها أنها تقوم على تحديد العلاقة بين متغيرين أولهما : التغلغل الرأسمالي والأخر الأثار الاجتماعية الناجمة عنه في القرية اليمنية ، ولهذا غاب في الدراسة أن تهتم بصياغة مشكلتها في صورة فروض كما هو متبع في البحث التاريخي .

وقد تنبهت الدراسة إلى ضرورة تحديد مدى زمني ملائم لها ، لأنها تناولت القرية اليمنية بالتحليل في الفترة ما بين ١٩٦٢ – ١٩٩١ ، وهي فترة بلغ حجمها (٣٠) عاما تتفق نسبياً وإمكانيات القائم بها كباحث فرد . وعلى الرغم من أن هذه الفترة تحتاج إلى تقسيم في صورة فترات فرعية تسهيلاً لعملية التحليل ، وما يتطلبه من تحديد بداية ونهاية لكل فترة فرعية ، إلا أن الدراسة لم تحرص على ذلك وخالفت متطلبات البحث الكيفي وكذلك تتنبه الدراسة إلى ضرورة التنقيب عن مادتها وبياناتها في مصادر أوليه ، بقدر ما كانت تستعين بمصادر ثانوية ، وترديد ما جاء في هذه المصادر وحتى ما جاء فيها من نتائج لجهود إجريت على مجتمعات مغايرة للمجتمع اليمني ، ولم تتوقف للتأكد من مصداقيتها حسب ما هو مطلوب في البحث التاريخي .

وكان تحليل البيانات يسير وفق أسلوب السرد التاريخي وقراءة التاريخ كما كانت تزعم ، وتعترف الدراسة أنها لا تقدم تحليلاً وإنما تقدم توصيفاً .

(ب) التعليم الجامعي والتنمية في المجتمع المصري ، دراسة تحليلية في الفترة ما بين ١٨٠٥ – ١٩٩٠ :

تتصدي الدراسة لقضية قومية وسياسية وتحاول الإسهام في الجدل الدائر بيم جمهور المثقفين والباحثين في مصر والعالم العربي حول قضايا التعليم وعلاقته بقضايا التنمية والتخلف والتبعية . ولقد اعتبرت الدراسة قضية التعليم ومشكلاته لها جذور تاريخية ، واهتمت بالكشف عن هذه الجذور مستعينة بالمنهج التاريخي لتحليل وتتبع طبيعة العلاقة بين التعليم والتنمية في مصر منذ عهد محمد على حتى اليوم ، واستفادت من الوثائق ودراسات التراث والإحصائيات المتاحة وقد حاولت الدراسة في تحليلاتها الربط بين تجارب المجتمع المصري وتجارب أخري على مستوي العالم الثالث والغربي .

والسؤال الذي يمكن طرحه هنا ، إلى أي حد التزمت الدراسة بالإجراءات المنهجية اللازمة لتصميم البحث التاريخي ، وهل جاءت نموذجا معقولاً على تنفيذه في الواقع ؟

لقد لوحظ أن الدراسة لم تكتف بأسلوب محدد واحد في صياغة مشكلتها والتعبير عن أهدافها ، وإنما ترددت بين أسلوب صياغة الأهداف في صورة تساؤلات ، وبين أسلوب صياغة الأهداف في ضرورة فروض علمية ، ولم تراع . ما هو متفق عليه بين الباحثين عند تصميم البحث التاريخي .

ولم تسقط الدراسة في حساباتها عملية تحديد كدى زمني لها ، لأنها جعلت تحليلاتها للتعليم الجامعي والتنمية في المجتمع المصري ، تنصب على الفترة من ١٨٠٥ إلى ١٩٩٠ ، وهي فترة زمنية طويلة نسبياً تزيد على الـ (١٠٠) عام ، ويصعب تصور هذه الفترة الزمنية على أنها مدي زمنى مناسب ، خاصة وأن القائم بالدراسة باحث فرد ، ولم تكن هناك إشارة من قريب أو بعيد على وجود فريق ساعد في هذه المهمة ، وقد انتبهت الدراسة إلى أهمية تقسيم المدي الزمني الذى تناولته بالتحليل إلى فترات فرعية ، غير أن هذا التقسيم سار وفق ما هو شائع في الدراسات التاريخية ، وأخذ يقسم التاريخ وفق سنوات الحكم والرؤساء بداية من حكم محمد على ، بل أخذت الدراسة تفتت التاريخ إلى فترات لا وزن لها في حركة المجتمع المصري ، وعلى نحو يخالف حتى التقسيم الشائع .

وقد غلب على الدراسة الميل إلى الاعتماد على المصادر الثانوية ، وإغفال قيمة المصادر الأولية عند التنقيب عن المادة والبيانات التاريخية خلال المدي الزمنى والفترات الفرعية التي تمت دراستها ، وإن كان هناك ذكر لبعض الوثائق (الدستور – القوانين – القرارات) إلا أن هذه الوثائق لم تحتل الاهتمام الكافي في الدراسة ، والتأكد من مصداقيتها على الأقل واتجهت الدراسة نحو الاعتماد على المصادر الثانوية وتكرار جهود الآخرين ومسايرتهم في استجابتهم ، وأخذت الدراسة طابع السرد التاريخي واعتبار الأحداث التاريخية كمقولات لتصنيف مادتها التاريخية وعرضها ، بدلا من اتخاذ مقولات بنائيه تفيد أكثر في التحليل .

وقد أغفلت الدراسة أهمية إجراء مقارنات ضرورية في التحليل تساعد في التوصل إلى نتائج محددة ، بقدر ما كانت النتائج تكرار المصادر الثانوية المشار إليها .

ولم تعني الدراسة ايضاً بعملية تفسير النتائج في ضوء ما سبق وعرضت له من قضايا نظرية ، وأخذتها من نظريات رأس المال البشري ونظريات التحديث والتبعية .... إلخ .

(ج) دراسة أثر سياسات الإصلاح الاقتصادي على تشكل الشرائح الرأسمالية الجديدة فى مصر خلال عقد التسعينيات :

تناولت الدراسة موضوعا حيوياً يمس جوهر حياتنا اليومية ويتعلق بقضية العلاقة بين الاقتصاد والمجتمع ، ومسائل السياسة الاقتصادية ومشروعات الإصلاح والطبقات الجديدة في مصر ، وتربط اهتماماتها الأكاديمية بقضايا المجتمع الذي نعيش فيه ، وتعتبرها هموماً تستحق النظر . وقد فهمت الدراسة أن تشكيل الشرائح الطبقية في مصر (كظاهرة اجتماعية) يحتاج إلى فترة تاريخية طويلة ، مما جعلها تقف أمام هذا البعد التاريخي ، وأخذت تتبع المسار التاريخي ، فحاولت وتشكل الشرائح الرأسمالية عبر مراحل تاريخية متباينة . وقد اعتمدت الدراسة في ذلك على دراسات وكتب التاريخ والتراث ، وقد حاولت الدراسة أن تربط وتقارن في تحليلاتها لسياسات الاصلاح الاقتصادي والطبقة الرأسمالية بين مستوي المجتمع الأكبر في مصر وبين مستوي بلاد العلم الثالث والبلدان العربية – والسؤال الذى يهمنا هنا ، إلى أى حد التزمت هذه الدراسة بالإجراءات المنهجية اللازمة لتصميم البحث التاريخي ؟ وهل جاءت نموذجاً معقولاً يمكن الاسترشاد به على تنفيذه في الواقع ؟

لقد لوحظ أن الدراسة مالت في صياغة مشكلتها إلى أسلوب التعبير عن الأهداف على شكل تساؤلات ، وخرجت عن ما هو متوقع عند صياغة مشكلة البحث التاريخي والتعبير عنها في فروض ، وإذا كانت الدراسة تتناول آثر متغير سياسات

الإصلاح الاقتصادي على نتغير آخر وهو تشكيل الشرائح الرأسمالية ، فهل من المناسب صياغة هذه العلاقة بين هذين المتغيرين في صورة تساؤلات ، أم الأفضل التعبير عنها في صيغة الفروض العلمية ؟

وكذلك لوحظ أن الدراسة قد حرصت على تحديد مدى زمني لها ، بدأ من عهد محمد على عام ١٨٠٥ واستمر حتى عام ١٩٩٠ ، وهذه الفترة الزمنية الطويلة نسبياً والتي تزيد علي (١٠٠) عام ، لا يمكن اعتبارها مدى زمنياً مناسباً كمطلب أساس في البحث التاريخي ، لأنها على الأقل لا تتناسب وامكانيات باحث فرد هو الذى تحمل تبعه هذه الدراسة ، ولم يكن تقسيم هذه الفترة الزمنية إلى فترات فرعية وحقب غائباً عن الدراسة .

وإنما لوحظ تتبع تقسيم يبدأ بحكم محمد على والاحتلال البريطاني لمصر ١٨٠٥ – ١٨٨٢ . ثم قيام الثورة عام ١٩٥٢ ، ومنذ قيام الثورة وحتى تبني سياسه الانفتاح ١٩٧٤ وهكذا .

وربما كان هذا التقسيم للمدي الزمني الذي تم التركيز عليه ، إلى فترات فرعية ، مفيدا في دراسة تاريخية ، أما تطبيق المنهج التاريخي في دراسات علم الاجتماع ، وإجراء بحث تاريخي في هذا النظام الفكري ، يفضل معه تحقيب التاريخ استناداً إلى أحداث اجتماعية هامة ، وقد يعد تطبيق سياسات الإصلاح الاقتصادي في مصر وكموضوع تركز عليه الدراسة هو المحك أو المعيار الأساسي الذى يمكن أن يقسم التاريخ بناء عليه إلى فترتين الأولى سابقة على هذه السياسات والثانية لاحقة لها .

وبدلاً من أن تعتمد الدراسة على تنقيبها عن البيانات والمادة التاريخية خلال هذا المدي الزمني والفترات الفرعية ، على مصادر أوليه ووثائق تاريخية ، مال البحث إلى الاعتماد على كتابات باحثين آخرين حول ما حدث في هذه الفترات التاريخية ، وترديد ما ورد في هذه المصادر الثانوية ، ونقل الأفكار والمفهومات وأيضاً النتائج التي انتهي إليها أصحاب هذه المصادر ودون التوقف للتأكد من مصداقية هذه المصادر .

ويلاحظ أن الدراسة قد قدمت عرضاً مقارناً بين الرأسمالية الجديدة في فترة التسعينات ، وبين رأسمالية الانفتاح الاقتصادي خلال السبعينيات ورغم أن الدراسة تناولت سياسات التكيف في العلم الثالث وفى العالم العربي وفى مصر ، وتوافر لها مادة ثرية للمقارنة ، والوقوف عند زوجة الاتفاق والاختلاف بين هذه التجارب واستخلاص نتائج عامة تفيد في بلورة القضايا إلا أن الدراسة لم تتطرق إلى ذلك من بعيد أو قريب .

ورغم أن هناك إشارات ضمنية لبعض القضايا النظرية من الماركسية والوظيفة وردت في الدراسة ، فإن أثر هذه الإشارة على تفسير نتائج الدراسة قد تلاشي ولم يتم توظيفها بالمعني المتوقع والمفهوم .

أسئلة المحاضرة السابعة

س١/ تحدثي / تحدث بالتفصيل عن صياغه مشكلة البحث التاريخي في صورة فروض كأحد الإجراءات المنهجية في تصميم البحث التاريخي

المحاضرة الثامنة (استراتيجيات البحث الاجتماعي التطبيقي)

تمهيد :

تمثل البحوث الوصفية حلقة أخري من حلقات البحث الاجتماعي ، وتتميز عن الحلقات السابقة عليها والتالية في سلسلة البحث الاجتماعي نتيجة لعدة اعتبارات يتعلق بعضها بالأهداف التي تسعي إليها هذه البحوث الوصفية ، ويتعلق البعض الثاني بالخصائص التي تمتاز بها ، ويتعلق بعضها الرابع من هذه الاعتبارات بالأهمية النظرية أو التطبيقية التي تعلق على هذا النوع من البحوث .

ولقد فرضت هذه الاعتبارات المتعلقة بالبحث الوصفي ، ضرورة اعتماده على إجراءات منهجية متمايزة وذلك في تصور التصميم المنهجي المناسب له وتسهم في تحقيق مبدأ الاقتصاد في الجهد والوقت والإمكانيات ، وفى تجنب التحيز الذى يزداد معه احتمال تأثر نتائج البحوث الوصفية وتعرضها للتحريف بالمقارنة بغيرها ممن نتائج البحوث الأخرى وزيادة فعاليتها على تجنب مثل هذه الثغرات .

ومن هنا ، خصصت المحاضرة الحالية لتناول استراتيجية البحث الوصفي وإلقاء الضوء على طبيعته ، واختلافه عن أنواع البحوث الاجتماعية الأخرى ، وتوضيح أهدافه ، والإجراءات المنهجية اللازم اتباعها عند التفكير في تصور تصميم منهجي مناسب لمثل هذا النوع من البحث .

أولاً: معالم البحث الوصفي وخصائصه :

كثيراً ما تستخدم كلمة الوصف لتدل على نفس المعني الذى تنطوي عليه كلمة المسح ، تلك التي اشتقت من الكلمة اللاتينية Super والتي تعني فوق أو فيما وراء ، والثاني Vey الذى اشتق من الكلمة اللاتينية Videre وتدل على النظر أو الفهم ، بحيث أصبح معنى كلمة المسح ، والنظر فيما وراء . ويحاول البحث من خلال المسح تناول الظواهر بطريقة تمكنه من تمييز الجوانب العلية أو ذات المعني من المعطيات أو البيانات المتوافرة حول هذه الظواهر . ومن هنا يطلق على البحث الذى يهتم بدراسة الظواهر الراهنة بدقة ، وبنفس دقة ما يراه الباحث ، اسم المسح ، أو المسح الوصفي Descriptive Survey .

ولعل في هذا الالتقاء في المعني بين البحث الوصفي والمسح ما يفسر لنا ارتباط البحوث الوصفية واعتمادها على المسح كطريقة في التوصل إلى البيانات الدقيقة حول جمهور السكان الذين يدور حولهم البحث ، وفى التسجيل الواعي لهذه البيانات ، حتى يمكن الرجوع إليها في الكشف عما تنطوي عليه من معان ودلالات .

غير أن نظر البحث الوصفي فيما وراء البيانات بحثاً عن مغزى ودلالة لا يعنى الاستعانة بالعين المجردة ، إنما يقصد به الاستفادة من الأدوات المتباينة التي يمكن بها النظر فيما وراء ، ونعنى الاستفادة من أدوات مثل الاستبيان والمقابلة الشخصية .. و غيرها ، والتي عادة ما يصاحبها تسجيل البيانات وعرضها في صورة جداول أو رسومات أو خرائط ... تعين في كشف ما تنطوي عليه البيانات من معانٍ .

ويفيدنا التحديد السابق للبحث الوصفي وارتباطه بالمسح من ناحية في تصور معالم البناء الأساسي لهذا النوع من البحث ، توضيح خصائصه ، إذ يعالج البحث الوصفي موقفاً يتطلب أسلوباً للملاحظة أو وسيلة أساسية لجمع البيانات ، ويحتاج في نفس الوقت إلى انتقاء جمهوره بعناية ، ورسم حدوده بوضوح يمكنه من جمع البيانات . ويستلزم الأمر بعد ذلك تنظيم هذه البيانات وعرضها بطريقة مرتبة ومنسقة حتى يمكن استخلاص نتائج ثابتة ودقيقة وصادقة .

ولما كانت هذه البيانات في البحث الوصفي قابلة للتحريف نتيجة للتحيز المحتمل فى جمع البيانات وفى انتقاء الجمهور أو العينة ، كان من الضروري العمل على تجنب أثر هذا التحريف والتحيز في كل خطوة ، كما يشير هذا التحديد أيضاً للبحث الوصفي من ناحية أخري إلى تميزه بعدة خصائص وخطوات ، إذ تدور البحوث الوصفية حول مواقف راهنة أو

ظواهر الحاضر ، والنظر فيما وراءها ، بمعني الاستعانة بإجراءات منهجية متباينة ، من طرق وأدوات ، وعينات ، وتحليلات ، وتنسيق وترتيب لتوفير بيانات دقيقة حول هذه المواقف ، ثم استخلاص المعني والمغزى الذى تنطوي عليه هذه البيانات . الأمر الذى سنزيده إيضاحاً فيما بعد .

ثانياً : أهدف البحوث الوصفية ومستلزماتها :

يعنى قدر هائل من البحوث الاجتماعية بوصف المجتمعات المحلية ، حيث قد يهتم بعضها بدراسة سكان المجتمع المحلي ، وتكوينهم العمري وتركيبهم القومي أو السلالي وظروف الصحة الجسمية أو العقلية بينهم ، ومستويات التعليم التي حقوها .

وقد يهتم البعض الثاني بدراسة التسهيلات المتاحة في المجتمع المحلي واستخدامها مثل ظروف الإسكان ، ومدي الإفادة من المكتبات ، وحجم الجريمة في الأحياء المتباينة . وقد يعنى فريق ثالث بوصف التنظيم الاجتماعي في المجتمع المحلي أو الأنماط الأساسية للسلوك ، ويعتبر تعداد السكان نموذجاً على هذه الاهتمامات .

وقد يعنى فريق رابع بتقدير نبة السكان في مجتمع معين والذيم يتمسكون برأي معين أو باتجاهات محددة ، أو الذين لهم طريقة مميزة في السلوك . ويحاول أخرون الإجابة على أسئلة مثل :

كم عدد الذين يوافقون على الإجهاض كطريقة في ضبط النسل ؟ في أي الأحياء يتطلب التغير في السكان بناء مدارس جديدة أو إغلاق أخري موجودة في المستقبل القريب ؟ وتعد استطلاعات الرأي نموذجاً على هذا الاهتمام .

كما قد يعنى فريق خامس بالكشف عما إذا كان هناك ارتباط بين متغيرات معينة مثل هل تزيد نسبة الكاثوليك الذين يصوتون إلى جانب الديمقراطية عن نسبة البروتستانت ؟ هل السكان الذين يمضون جانياً كبيراً من وقتهم في القراءة يترددون أيضاً على دور السينما ؟ هل الإناث عموماً يتعلمون كيفية الكلام في عمر مبكر من الذكور ؟

علماً بأن الأسئلة المشار إليها سلفاً لا ينطوي واحداً منها على فرض مضمونه : إن أحد هذه المتغيرات يؤدي إلى حدوث الآخر ، ذلك لأن التساؤلات التي تجسد مثل هذه الفروض تقتضي منا استخدام متطلبات مغايرة في إجراءات البحث لا يعتمد عليها البحث الوصفي

وقد ينظر إلى قياس الرأي العام باعتباره نموذج آخر على الحث الوصفي . واضح إذن أن أهداف البحوث الوصفية تتنوع وتتعد بين دراسة خصائص السكان في المجتمع أو الامكانيات المتاحة ، أو المشكلات الاجتماعية ، أو عناصر التنظيم الاجتماعي ، أو الاتجاهات نحو قضايا وأوضاع هامة داخلية .... إلخ.

وإذا كانت هذه الاهتمامات السابقة تمثل مجموعة كبيرة من أهداف البحث ، أمكن تجميعها معاً في فئة واحدة تعرف باسم البحوث الوصفية . فإن يرجع إلى أن البحوث التي تهدف تحقيق هذه الأهداف تشترك فيما بينها في حاجتها إلى عدد من المتطلبات أو المستلزمات ، ذلك لأن هذه الأنواع من التساؤلات والمشكلات التي يطرحها البحث الوصفي تفترض سلفاً توفر قدر كبير من المعرفة متاحاً حول المشكلة التي يدور حولها البحث ، وذلك بمقارنتها بالتساؤلات التي تحاول الدراسات الاستطلاعية الإجابة عليها ، وتفرض على الباحث ضرورة أن يكون قادراً على تحديد ما يريد وصفه بوضوح ، وكذلك ضرورة التوصل إلى المناهج المناسبة لهذا الوصف . هذا بالإضافة إلى أنه ينبغي أن يكون البحث قادراً على تعيين من الذين يشملهم مجتمع البحث أو عينته ، لذلك فإن ما يحتاج إليه جمع الشواهد في الدراسة الوصفية هو الصياغة الواضحة لما نريد وصفه والذين نصفهم ، وتحديد أي الأساليب تحقق الصدق والثبات في الوصف ، أكثر مما نحتاج إلى المرونة في البحث .

وكذلك لا تقتصر البحوث الوصفية على الاستعانة بأسلوب واحد في جمع البيانات ، وإنما قد تستخدم بعض هذه الأساليب أو كل المتاح منها في البحث الاجتماعي . ولكن ليس معني أن البحوث الوصفية قد تستخدم مجموعة كبيرة من الأساليب ، أنها تمتاز بخاصية المرونة التي تمتاز بها البحوث الاستطلاعية . وإنما يستلزم الأمر أن تكون الإجراءات المستخدمة

في البحث الوصفي مخططة بعناية . وطالما كان الهدف هو التوصل إلى معلومات كافية ودقيقة ، ينبغي أن يتوخى تصميم البحث البعد عن التحيز بالمقارنة بالبحوث الاستطلاعية ، وكذلك الاهتمام بالاقتصاد في جهود البحث .

ثالثاً : الإجراءات المنهجية فى تصميم البحوث الوصفية :

وتدخل هذه الاعتبارات المتعلقة بالاقتصاد وتجنب التحيز في كل مرحلة من مراحل البحث ابتداء من صياغة أهداف البحث ، وتصميم أساليب جمع البيانات ، وانتقاء العينة ، وجمع البيانات وتحليلها ومعالجتها ، وكتابة تقرير النتائج . نحاول فيما يلى الاستعانة بمثال دراسة خبرات واتجاهات سكان الولايات المتحدة الأوروبيون الذين يزورون الهند . لتوضيح هذه الإجراءات :

١- صياغة أهداف البحث :

تتمثل الخطوة الأولى في البحث الوصفي كما هو الحال في أي بحث آخر في تحديد المشكلة أو السؤال الذى نريد الإجابة عليه أو صياغة أهدافه . إذ يتوقف توصل الدراسة إلى المعلومات المرغوب فيها ، على تحديد الأهداف بالدقة الكافية ، وحتى يمكن أن نضمن مناسبة البيانات التي تم جمعها للسؤال الذى تطرحه الدراسة .

حيث كانت المشكلة العامة في البحث الذى أشرنا إليه كمثال هنا متمثلة في الإجابة على تساؤلات مثل : ما هي التغييرات التي طرأت على هؤلاء الزوار كلما مر عليهم وقت خارج بلادهم ؟ خاصة وأن الكثير من جهود البحث الاجتماعي تعفي بالتغيرات في الاتجاهات بين جماعتين أو أكثر ممن يشتركون في نفس القومية أو يعيشون في نفس المدينة . كما تسعي هذه الدراسات إلى فهم التغيرات في الاتجاهات العنصرية Racial نتيجة للتغيرات في سياسات التعليم أو الإسكان ، وكذلك تهتم بالإجابة على أسئلة مثل ، هل تحدث نفس أنواع التغيرات والعلميات الاجتماعية بين الأشخاص الذين يعبرون الحدود الدولية ؟ وهل يصبحون أكثر أو أقل تسامحاً وقبولاً للأشخاص الذين يفيدون إلى بلادهم من بلاد أخرى ؟ وقد تدفع المجموعة المتباينة من نتائج الدراسات السابقة حول نفس الموضوع بالباحث إلى أن يتسأل ؛ ما الذى يحدث من عمليات في مثل هذه الظروف التي تحتاج إلى بحث من النوع الوصفي.

ومن هنا ؛ كان الهدف الرئيسي للدراسة المشار إليها هنا متماثلا في محاولة تتبع عمليات التكيف بين الزوار الأجانب في الهند من خلال الملاحظة والمقابلة الشخصية للأشخاص الذين عاشوا هناك لفترات متباينة لكى نوضح كيف تغيرت نظراتهم لأنفسهم وللهنود .

٢- تصميم أدوات جمع البيانات :

وينبغي بعد تحديد المشكلة بوضوح يوجهنا نحو البيانات التي تحتاج إليها الدراسة لابتكار الأساليب التي يمكن بها التوصل إلى هذه البيانات ويلزم الأمر تصميم الأساليب الملازمة لجمع المعلومات ، طالما كان من الصعب على الباحث أن يجد أمامه أساليب معدة سلفا ومناسبة لموضوع بحثه .

والواقع أن كل أسلوب من الأساليب التي يمكن أن توصلنا إلى البيانات مثل الملاحظة ، والمقابلة ، والاستبيان ، والأساليب الإسقاطية ، فحص السجلات وغيرها له مميزاته وحدوده التي قد تناولتها مؤلفات مناهج البحث الاجتماعي وطرقه بالتفصيل ؛ والتي توضح أن هناك مجموعة هائلة من أساليب البحث يمكن أن يختار من بينها الباحث ، ولكنه قد يسير في رحلته الشاقة هذه دون أن يعرف من أين يبدأ ، هل يختار الملاحظة للمشاركة أو المقابلة ، أم غيرها ، غير أنه إذا عرف أن خصوصية الموقف المدروس وطبيعة التساؤلات التي يطرحها البحث والمهارات المتوافرة لدى الباحث يمكن أن تتدخل في اختيار هذه الوسيلة .

فعندما يستخدم الباحث الاستبيان مثلا كوسيلة في لجمع بياناته وفي البحث الوصفي عليه أن يعرف أنه نتيجة الطبيعية الغير شخصية التي تميز الاستبيان لان الباحث لا يعرف أو يري المبحوث الذى يجيب على أسئلة استبيانه ، عليه أن يراعى في جمع البيانات استخدام هذه الوسيلة الاعتبارات التالية :

١. **وضوح اللغة التي تكتب بها أسئلة الاستبيان وتوصل الباحث إلى ما يريد أن يعرفه بدقة :**

ذلك لأن عملية الاتصال تنطوي على شيء من الخداع ، وأن ما يكون واضحاً لك قد يغمض على غيرك ، وما يبدو أنه سؤال واضح بالنسبة لك ، قد يفهمه غيرك بصعوبة بالغة . ولذلك ، ينبغي أن يجري اختبار مبدئي على عينة صغيرة للتحقيق مما إذا كان هناك بنود في الاستبيان يصعب فهما أو هناك أسئلة لا يعرف المبحوث الإجابة عليها ..... إلخ .

٢. **تصميم الاستبيان بحيث يحقق أهداف البحث المحددة .**

إذ ينبغي بناء الاستبيان بندا بعد الأخر واختيار نوعيته في ضوع الموضوعية والملائمة للمشكلة البحث واحتمال فهمه ، وتراعى في كل خطوة الاستئذان Cour-teous في طلب الاجابة ، والبساطة في صيغة الأسئلة واحتمالات الاجابة وأن يضع الباحث نفسه مكان المبحوث والتركيز على المسائل العامة دون الخاصة ، والحرص على أن يكون الاستخبار مختصرا ويضم فقط بنود أساسية ، ثم الاتساق وعدم التناقض بين البنود وفي الاجابة عليها ووضع أسئلة للمراجعة على الاجابات والاتساق فيما بينها ... إلخ ، من التفاصيل التي سنعود إليها عند الحديث عن تصميم الاستبيان كأدلة لجمع البيانات للبحث الاجتماعي .

ولكن طالما كان بالإمكان الإفادة من البيانات التي نتوصل إليها من خلال وسائل مختلفة في الإجابة على تساؤلات البحث أن يستغنى عن أساليب معينة لا يحقق هذا الهدف ، ويختار تلك التي تساعد على تحقيق ، مع الأخذ في الاعتبار قيود الاقتصاد في الوقت والجهد التي تميز البحث الوصفي . وفي اللحظة التي يستقر فيها الباحث على اختيار وسيلة معينة تبقى هناك بعض القرارات الأخرى التي يجب اتخاذها عن التفكير في تصميم البحث ، يتعلق بعضها بطريقة تطبيق وسيلة جمع البيانات هل هي طريقة مباشرة تستخدم المقابلة أو غير مباشرة عن طريق الاستخبار البريدي ؟ وهل الأسئلة التي ينطوي عليها هذا الاستخبار مقفولة النهاية وتحدد احتمالات الاجابة على كل سؤال بها أم تكون مفتوحة النهاية ؟ علما بأنه يفضل في البحث الوصفي الإفادة من أكبر مجموعة ممكنة من مثل هذه الاحتمالات لزيادة فرصة التعرف على ابعاد الموقف المدروس ومكوناته الأساسية .

وهذا ما حولته دراسة الزوار الأجانب إلى الهند من الملاحظة بالمشاركة ، والمقابلات الحرية ، والأسئلة المقننة ، ومقاييس الاتجاهات ، وذلك استناداً إلى أنه إذا كانت الملاحظة بالمشاركة تنطوي على بعض أخطاء في التفسير ، فإن المقابلات المقننة ومقاييس الاتجاهات ستقلل من احتمالات التحيز الشخصي هذه ، وكذلك تسمح لنا هذه المجموعة من اساليب جمع البيانات لتوصل إلى قد هائل من المعلومات ، ولهذا كان من المرغوب فيه الاعتماد على أكثر من وسيلة واحدة في جمع البيانات حتى نتمكن من تقديم وصف أكثر اكتمالاً للموقف الذى نقوم بدراسته .

والمشتغل بعلم الاجتماع في محاولته السير صوب كل هذا، لابد له من مادة تاريخية تغطي مساحتها مطلبه العلمي من الشواهد والأدلة. ومن هنا، يمكن فهم لماذا كان كل تقدم في الدراسات التاريخية بمعناها الشامل الذي يضم التاريخ والبحث التاريخي، هو ركيزة تساعد علي تقدم علم الاجتماع وبلورة آرائه وأدواره العلمية والمجتمعية. ومن ناحية أخري ، يعد كل تقدم في منهجية علم الاجتماع، بمعني المفاهيم والقضايا النظرية والإجراءات البحثية، بمثابة ركيزة تساعد علي تقدم البحث التاريخي.

إن الباحث التاريخي الذى يهتم بتحليل الوقائع والحوادث وتحليلها وتركيبها وقراءتها وجعلها تنطق وتكشف عن معناها، بحاجة إلي ما يساعده علي انتقاء الوقائع والحوادث والشواهد التاريخية، وتصنيفها وترتيبها وتحديد ما بينهم من علاقات وتشابكات. هذا الباحث يمكن أن يجد في علم الاجتماع ما يعنيه علي تطوير هذه العمليات البحثية وشحذها، هذا فضلا عن أن المعلومات والبيانات والنتائج الدقيقة التي يصل إليها المشتغل بعلم الاجتماع اليوم قد تكون من بين مادة الباحث التاريخي غدا أو بعد غد.

وهكذا قد نجد النقائص في المعالجة العلمية للظواهر الاجتماعية ، التي لوحظت علي البحوث الكميه في علم الاجتماع، وميلها إلي التصنع العلمي ، وتجزئة الحقيقة الاجتماعية، وبعدها عن التلقائية ، تعويضا عن الكثير من هذه النقائض. كما أن اهتمام البحث التاريخي بدراسة تطور المجتمع البشري والتعرف علي عوامل وعمليات وقوانين هذا التطور ، بهدف

توظيف نتائج هذا البحث في صنع مستقبل أفضل لهم، يعبر عن قدراتهم وآمالهم، مما يؤكد أهمية الحاجة إليه كأساس لا غنى عنه في صياغة استراتيجيات التنمية في المستقبل.

٣. **اختيار جمهور البحث وتصميم عينته :**

تعد عملية اختيار جمهور الدراسة احد العناصر الجوهرية في البناء الأساسي لبحوث المسح الوصفي ، وإذا كانت العناية والدقة مطلوبتان في عملية التخطيط للبحث وتصميمه من أجل التوصل إلى الهدف المحدد فإنهما لازمتان ايضاً في اختيار جمهور البحث وتمثيل عينته ، ومن هنا كانت اجراءات اختيار العينة لها أهمية قصوى وحاسمة في نجاح البحث الوصفي ... وتعتبر العينة بمثابة وسيلة لها أساسها المنطقية ومبرراتها الإحصائية ابتكرت للتغلب على صعوبة دراسة جمهور البحث كله . ولقد أوضحت الخبرة بالبحث الاجتماعي بأنه ليس هناك ضرورة لدراسة كل الأشخاص المكونين لجمهور البحث ، حتى يمكن التوصل إلى وصف دقيق وثابت لاتجاهات أو سلوك هؤلاء الأشخاص ، وإنما يكفي دراسة عينة منهم فقط .

وهناك جهود كثيرة متوافرة حول مشكلة تصميم العينات أوضحت أنه يمكن التوصل إلى معلومات دقيقة مع أقل قدر من الجهد من البحث إذا اقتصارنا على عينة ممثلة . وهنا من المفيد أن نوضح كيف أن تقدير مثل هذه الاعتبارات الاحصائية قد يساعد في تحقيق قدر كبير من الاقتصاد في البحث حيث قام رونتري في دراسته الكلاسيكية للفقر في انجلترا لبحث كل أسر الطبقة العمالية . ولكى يتحقق من دقة أسلوب العينة الذى اعتمد عليه في البحث اختار طبقا لإجراء منسق أو منظم كل الحالات العشرية وقارن نتائجها بالنتائج التي توصل إليها من دراسته لكل الحالات . ثم اختار حالات العشرينيات ، والثلاثينات ، والأربعينيات ، والخمسينات ، وقارن بين النتائج في كل حالة ونتائج دراسته للحالات كلها وخاصة فيما يتعلق في ينفق من الدخل على ايجار مسكن الأسرة . واتضح له في النهاية ان العينات المختلفة بغض النظر عن حجمها تمدنا بنتائج قريبة من تلك النتائج التي تم التوصل إليها .

أو بعبارة أخري ، تم التوصل إلى نفس النتائج من خلال دراسة عينة واحدة من أسر الطبقة العمالية في المدينة ، وهذا يعنى استثمار في الوقت والجهد بدون أن تتأثر النتائج التي يمكن التوصل إليها .

وإذا كان البعض يذهب إلى أنه قد تكون هناك فروق ذات دلالة بين النتائج التي يتم التوصل اليها من دراسة العينة ، وبين نتائج دراسة مجتمع البحث ككل ، إلا ان دلالة هذه الفروق تتوقف على عدة اعتبارات منها ما هو إحصائي وما هو عملي بحيث تتوقف الفروق ذات الدلالة الإحصائية في الحالتين على مدى تمثيل العينة للمجتمع الأصلي ، تتوقف الفروق ذات الدلالة من الناحية العملية على ما تؤدى به إلى تغيرات رئيسية في التفسير أو التوصيات التي يمكن أن تخرج بها الدراسة في مجال التطبيق إذا كانت تهدف إلى ذلك . ولذلك ينبغي أن تختار العينة بعناية يتمكن بواسطتها الباحث من أن يصل إلى النتائج عن عينة البحث كله قريبة من النتائج التي يمكن التوصل إليها من دراسته ، أو بجمع بيانات من هذا الجمهور كله .

وهذا معناه أنه ، أنه إذا كان من الأهمية بمكان أن تعتمد الدراسة على عينة فينبغي أن تكون العينة على مستوى من التمثيل الدقيق للمجتمع الأصلي الذى تؤخذ منه ، بمعنى أنه لابد أن تسحب العينة بطريقة تجعل النتائج التي تستخلص منها أكثر تطابقاً مع تلك النتائج التي كان بالإمكان التوصل إليها من دراستها للمجتمع الأصلي للبحث . وهذا يتطلب قدراً من الاهتمام والعناية ، عند تصميم البحث بمشكلات وأساليب تكوين سحب العينات لأنه يعنينا في اتخاذ كافة القرارات التي تحتاج إليها تصميم عينة البحث الوصفي والاجابة على أسئلة مثل ، ما الذى يمكن عمله في حالة كبر أو صغر حجم المجتمع الأصلي للبحث ؟ أو ما إذا كان هذا المجتمع حبيس جدران معينة مثل المسجونين أو ما إذا كان هؤلاء الأفراد من المرض أو الاتصال بهم أو من العجزة أو من الرافضين للتعاون ومدنا بالمعلومات ؟

وتتكون العينة من وحدات أو مفردات تأخذ من جمهور البحث .

والواقع ان هدف البحث هو الذى يحدد وحدة العينة المناسبة ، فمثلاً في دراسة عملية الانتخاب ، نجد أن وحدات العينة المناسبة هم أصحاب الأصوات القانونية ، وفي دراسة لميزانية الأسرة ، تعد الأسرة هي وحدة العينة ، وفي دراسة لسلوك الأطفال ، تعد الفترات الزمنية لوحدة للدراسة ، ومهما كانت وحدة العينة فمن المهم أن يتوافر لدينا أساس يمكن به

التعرف على إجمالي سكان المجتمع الأصلي التي تتكون منه هذه الوحدات ، وكذلك طريقة محددة لاختيار أو سحب الوحدات من هذا المجتمع . ولذلك ، كانت الطريقة التي يتم بها انتقاء وحدات العينة لها أهميتها ، فقد تكون الطريقة العشوائية Randomization ولهذا تصبح العينة عشوائية ، أو قد تكون طريقة من الطرق المختلفة الأخرى في تكوين العينات ، مثل الطريقة العشوائية المنتظمة ، أو الطريقة الطبقية ، أو المساحية ، أو المكانية ، أو المعتمدة ، أو ما إليها .

وفي كل حالة تسحب مفردات العينة لتكون في النهاية حجماً معيناً للعينة ليدل على الدرجة التي تقترب بها خصائص العينة من خصائص جمهور البحث ككل مثل التجانس واللاتجانس فإذا كان جمهور البحث يتميز بعدم التجانس ، فهنا ينبغي على الباحث أن يأخذ في اعتباره عوامل ثلاثة في اتخاذ أي قرار يتعلق بحجم العينة :

١- رجة الدقة اللازمة في اقتراب العينة من جمهور البحث.
٢- درجة انحراف العينة المسموح بها عن المجتمع الأصلي .
٣- الطريقة المستخدمة في تكوين العينة .

وعموما يحتاج تصميم العينة في البحث الوصفي أن يسير الباحث في خطوات محددة ، حيث تتمثل الخطوة الاولى عند اختيار وتصميم العينة في التحليل الواعي لخصائص جمهور الباحث حتى يمكن في ضوئها التوصل إلى أسلوب لتكوين العينة يتناسب مع نموذج هذا الجمهور ، ذلك أن جمهور البحث قد يمتاز :

١- أن يحتوى على شرائح متجانسة .
٢- أن يحتوى على شرائح محددة تنطوي على وحدات متباينة .
٣- أن يحتوي على شرائح محددة ، وتختلف كل شريحة عن الأخرى بما تنطوي عليه من وحدات .
٤- أو قد يشتمل على تجمعات ، لكل تجمع خصائص مماثلة ولكن خصائص وحدات كل تجمع غير متجانسة .

ولوحظ أن كل جمهور بحث يناسبه أسلوب معينة لسحب العينة منه . إذ يفيد أسلوب العينة العشوائية مع النوع الأول من الجمهور ، ويفيد أسلوب العينة الطبقة مع النوع الثاني ، ويفيد أسلوب العينة الطبقية الحصية في النوع الثالث ، وتفيد أسلوب العينة العنقودية مع النوع الرابع .

٤. <u>جمع البيانات فى البحث الوصفى :</u>

من الضروري التوصل إلى بيانات خالية من الأخطاء قد تكون ناشئة عن المقابلات الفردية أو الملاحظات أو غيرها ، وان نهتم بالإشراق المباشر على باحثي الميدان وهم يقومون بجمع وتسجيل البيانات . وينبغي أن تجري مراجعة لهذه البيانات للتأكيد من هؤلاء الباحثين كانوا أمناء ، وأن البيانات التي قاموا بجمعها غير متحيزة ، بمعنى أنه عند جمع البيانات ينبغي التأكد من اكتمالها وشمولها ، واتساقها ، وثباتيها .

ولتحقيق ثبات البيانات مثلا ، يمكن الاعتماد على أكثر من باحث في جمع البيانات ، أو حتى جمع هذه البيانات على مراحل متباينة والمقارنة . ومن الامثلة البارزة على التحقق في الثبات في البحوث الوصفية ما حاوله (ساندرز) في دراسة لمدمني الهيروين من وضع أسئلة تعين في التمييز . مثالها ، السؤال الذى طرحه على المفحوصين عن سبق شرائهم لهذا المخدر ،

بحيث أنه إذا كانت نسبة كبيرة من الذين سبق معرفتهم به يجيبون بثبات على أكثر هذه الأسئلة تميزا وهو المتعلق بالمعدل الذى يمكن باعتباره معقولا ، فإن هذا دليلا كافيا على اعتبار اجابتهم على بقية اجابة ثابتة ويمكن الثقة بها . كما استعان (ساندرز) بإجراءات آخري عديدة تفيد في زيادة معدل الثبات في بياناته ، منها الاستعانة بالباحثين على خبرة ودراية في الموضوع المدروس ، وتنظيم دورت تدريبة للباحثين تناقش معهم أهداف البحث وطبيعة الاستبيان ، وأساليب الملاحظة مما أعان الباحثين على فهم حياة ولغة المدمنين ، وانعكس ذلك فيما بعد على كسب ثقة المفحوصين واحترامهم وتعاونهم في الاجابة على الأسئلة .

٥. **تحليل البيانات وتفسير النتائج في البحث الوصفي :**

تتكون عملية التحليل من خطوات ترميز إجابات المقابلة الشخصية أو الملاحظة (وضع كل بند في الفئة المناسبة) ، ثم جدولة البيانات (حساب أو عد أو إحصاء عدد البنود في كل فئة) ، ثم إجراء المعالجات الإحصائية وسوف نناقش هذه الإجراءات بالتفصيل فيما بعد (المحاضرة الخاصة بتحليل البيانات وتفسير النتائج) ، ولكن يجب أن نذكر هنا ضرورة مراعاة اعتبارات الاقتصاد والحاجة إلى تجنب الوقوع في الخطأ في كل خطوة من هذه الخطوات . وتتطلب اعتبارات الاقتصاد عموماً أن يكون التحليل مخططاً له بالتفصيل قبل إجراء البحث فعلاً ، أو قبل البدء فيه . وبهذه الطريقة يمكن للباحث أن يتجنب القيام بأعمال غير ضرورية ؛ كأن يستخرج جداول يجد فيما بعد أنه لن يستفيد منها أو قد يضطر إلى عمل جداول أخري لأنه لم يوفق في الوصول إلى البيانات المناسبة أو وثيقة الصلة بموضوعه . على أنه يجب أن نأخذ في اعتبارنا أن التخطيط المتكامل لعملية تحليل البيانات مقدماً ليس دائماً عملية ممكنة أو حتي مرغوباً فيها .

طالما تطرأ للباحث أفكار جديدة يحتاج إلى فحص دلالتها لبحثه . ولكنه من الممكن دائماً ، ومن المرغوب فيه أ نعد مقدماً المعالم الأساسية للتحليل في البحث باستثناء البحوث الاستطلاعية .

ويمكن تجنب الوقوع في الخطأ عند الترميز من خلال مراجعة أو التحقق من ثبات القائمين بالترميز – بمعنى تحديد المدي الذي يتفقون فيه على وضع البند في فئة معينة – وإذا كان الترميز يتطلب أحكاماً صعبة ، علينا أن نستعين بإجراء مناسب هنا يتمثل في ترك اثنين أو أكثر من المرمزين يقومون بعملهم على نحو مستقل على عينة من المادة حتى يتوصلوا إلى درجة مرضية من الثبات . أو قد يقوم أحد المرمزين بالعمل ، ثم يقوم مرمز آخر بعملية المراجعة تحرياً للدقة في هذا الصدد .

وإذا كانت عملية جدولة البيانات ستتم بالطريقة الآلية ، واستخدام برامج الحاسب الآلي وفقاً لبرنامج المعالجة الإحصائية المختار ، فينصح هنا بالمراجعة لتحري الدقة في إدخال البيانات . كما ينصح بتحري الدقة في استخراج الجداول من خلال إعادة العمل ، والمقارنة بين النتائج في المرتين .

كما يلزم أيضاً إجراء معالجات إحصائية في الدراسة الوصفية ، واستخراج النسب المئوية والمتوسطات والارتباطات ، وينصح أيضاً بتحري الدقة في هذه المعالجات ، كما ينبغي اتباع الإجراءات الإحصائية التي تجنبنا استخلاص نتائج متحيزة من تللك البيانات ، وذلك مثل تحليل التباين بين المجموعات أو حساب اختبارات الدلالة الإحصائية وهكذا.

غير أن البيانات والنتائج في ذاتها ليس لها أية قيمة ، وهذا معناه أن عملية جمع البيانات والتوصل إلى نتائج لا تمثل نهاية عملية البحث ، وإنما يهدف البحث إلى التوصل إلى إجابة السؤال الذى يطرحه في ضوء الحقائق والبيانات التي تم جمعها ؛ ولذلك كان استخلاص معني من هذه البيانات التي تم جمعها . إن تفسير النتائج يشكل خطوة هامة في البحث . ولكن كيف يتم تفسير النتائج ؟ وهذا السؤال يجب أن نجد إجابة له عند تصميم البحث أو عند إعداد خطته ، إن تفسير النتائج ليس معناه مجرد وضعها في جداول أو رسوم بيانية أو إعادة ترتيبها وعرضها في صورة أخري ؛ لأنها تظل على هذا النحو مادة خام . ولكن عندما يحاول الباحث توضيح ما الذي تشير إليه هذه النتائج وذلك في ضوء المشكلات الفرعية للبحث ، والمشكلة الكبرى له ، أو عندما يعمل على تكامل النتائج في قضية تدعمها الحقائق ، فإنه يهدف بذلك إلى تفسير هذه النتائج .

٦. **التحيز في تصميم البحث الوصفي :**

في توضيحنا للخصائص الأساسية للمسح الوصفي ، أشرنا إلى ضرورة أن يكون الباحث حساساً لمصادر التحيز في هذا النوع من البحث ذلك لأن البيانات في هذا البحث قابلة للتحريف ، ولهذا من الواجب أن نجنب البيانات من التأثر بهذا التحيز .

وبرغم أن كل بحث عرضة للتحيز ، إلا أن البحث الوصفي أكثر تعرضاً للتحيز الذى يمثل أي أثر أو ظرف أو مجموعة ظروف تحدث التحريف في البيانات ، أو حتى تؤثر في التوزيع العشوائي لعينة البحث .

ولكى نفهم بدقة كيف أن التحيز يؤثر في البيانات ، دعنا نأخذ بعض الأمثلة وندرسها بعناية ، فقد قرر أحد الباحثين الاعتماد على دليل التليفون في المدينة كمصدر لاختيار عينته العشوائية ، وهذه العينة واضح أنها متحيزة ، لأنها لا تمثل جمهور البحث ككل ، لأن الشريحة الاقتصادية الدنيا لا تدخل في العينة لعجزها عن اقتناء التليفون . كما سوف تستبعد فئات أخري تفضل ألا تضع أسمائها ضمن هذا الدليل .

وقد يستخدم الباحث أداة لجمع البيانات مثل الاستخبار دون أن يدري أنها معرضة للتحيز ؛ ذلك لأن نسبة العائد من الاستبيان حتى ولو بلغت ٥٠% فإنها لا تمثل كل عينة البحث المدروسة ؛ ولذلك فإن محاولة صياغة تعميمات على هذا الأساس وتطبيقها على المجتمع ككل سوف يؤدي إلى التحيز والتضليل .

وكذلك قد ينشأ التحيز من مصادر أخري في البحث ، فقد تؤثر شخصية الباحث فى استجابات المبحوث عند مقابلته شخصياً .. والواقع أن الاعتراف باحتمال التحيز والتعرف على مصادره هو الطريق الوحيد لتجنبه .

رابعاً : نماذج على تنفيذ البحوث الوصفية :

بالنظر إلى الفقرات السابقة يمكن التعرف على الأهداف المتباينة التي تدخل ضمن أي بحث وصفي ، وعلى الأساليب المنهجية التي يلتزم بها غالباً في الوصول إلى مثل هذه الأهداف ، وابتداء من طريقة البحث ، ثم الاداة ، ثم العينة ، وأخيراً جمع البيانات وتحليلها ... إلخ . الامر الذى يفهم منه أن الباحث يختار واحداً من الأهداف المذكورة سلفاً ويحاول أن يجري عليها بحثاً وصفياً فإنه يجد نفسه ملزماً باتباع الأساليب المنهجية الخاصة بالبحث الوصفي وإلى أخذها في اعتباره وهو يفكر في وضع تصميم منهجي مناسب لتحقيق هذا الهدف ، وهذا ما حاولته الهيئة التي أشرفت على بحث البغاء في القاهرة عندما حددت هدفها في وصف ظاهرة البغاء التي تنتشر بشكل ظاهر في المدن الكبرى وخاصة القاهرة .

أما الهيئة المشرفة على بحث النشل عند الأحداث فقد حددت هدفها في وصف ظاهرة النشل بين الأحداث المنحرفين ، ولذلك كانت مجموعة الاجراءات المنهجية التي اعتمدت عليها في الوصول إلى هذا الهدف هي الإجراءات المتبعة في البحث الوصفي ، بحيث اعتمدت علي طريقة المسح الاجتماعي للحالات التي أدانتها محكمة أحداث القاهرة والتي بلغت ٣٧ حدثاً وقامت بتصميم مقابلة مقننة لجمع البيانات من الأحداث ضمت بنودها : الوقائع الجنائية للظاهرة ، والجماعات التي ينتمى إليها الأحداث ، وطبيعة العلاقات بينهما والأسرة والجوار ... إلخ . ثم جمعت البيانات بواسطة باحثين مدربين ، ثم تمت الاستعانة بالأسلوب الاحصائي في تحليل البيانات ؛ بحيث ساعد الالتزام بهذه الاجراءات على إلقاء الضوء على ظاهرة النشل عند الاحداث وتحديد جوانبها المختلفة .

أسئلة المحاضرة

س١/تحدثي / تحدث بالتفصيل عن تحليل البيانات وتفسير النتائج كأحد الإجراءات المنهجية في .تصميم البحث الوصفي

المحاضرة التاسعة(استراتيجيات البحث الاجتماعي التطبيقي)

تصميم بحوث المشروعات ونماذج على تنفيذها

تمهيد :

ظهر مصطلح بحوث المشروعات لأول مرة في مقال كتبه كيرت ليفين عام ١٩٤٦ ثم تطور على يد علماء من أمثال تريست ، وأخذت تظهر له نماذج وتيارات بعضها تقليدية، والأخرى سياقية والثالثة راديكالية وهكذا . وارتبطت بحوث المشروعات بالنماذج النظرية التي تهتم بالممارسة ، ويشدد البحث على الاهتمام بحل المواقف التي تنطوي على إشكالية. ويعتبر بحث المشروعات من بين البحوث الكيفية، ويعتمد على خطة عمل تأخذ شكل الدائرة، وظهر له عدة خطوات لابد منها عند التفكير في وضع تصميم منهجي لبحوث المشروعات ، ويظهر بوضوح دور الباحث في هذا النوع من البحوث ، وترددت بناء على الخبرة في هذا النوع من البحث ، مجموعة من الطرق والأدوات المنهجية التي يفضل استخدامها في بحوث المشروعات ، كان من أهمها مؤتمر البحث كأداة أساسية ، كما تبلورت مجموعة من المبادئ الإرشادية في العمل والاعتبارات الأخلاقية .

وهناك في التراث مجموعة من النماذج على تنفيذه .يمكن الرجوع إليها للتعرف على طبيعة بحوث المشروعات . وفى هذا الإطار تم ترتيب عناصر الفصل الحالي لتشمل التعريف ببحوث المشروعات و أهدافها ،ثم بيان تطور بحوث المشروعات سواء من حيث تطور نماذجه أو أسسه النظرية ، وبعدها يتم توضيح الإجراءات المنهجية في تصميمه ، وأهم النماذج على تنفيذ بحوث المشروعات في الواقع .

أولاً: تعريف بحوث المشروعات وأهدافها.

لقد عرف بحث المشروعات بأسماء أخرى كثيرة يشمل ذلك ، بحوث المشاركة Participatory، والبحث الذى يقوم على العمل الجماعي Collaborative،أو بحث التحرير Emancipatory ، أو التعلم عن طريق العمل Action Learning وبحث السياق contextual ، غير أن كل هذه التسميات تعد بمثابة تنويعات على نفس الموضوع .

التعريف الأول : ويمكن أن نشير إلى بعض تعريفات بحوث المشروعات المقبولة على نطاق واسع ، أبسطها هو عملية تعلم عن طريق العمل ؛ فيها يقوم بعض الناس بتحديد مشكلة ما ، ثم يقومون بجهد من أجل حلها ، ثم يتابعوا مدى نجاح جهودهم وإذا لم تكن مرضية ،فإنهم يكررون جهدهم مرة أخرى . وعلى الرغم ان هذا التعريف يعكس جوهر هذا المدخل ، إلا ان هناك سمات اخرى أساسية لبحث المشروعات .

تسهم في تميزه عن النشاطات الشائعة و التي تتركز حول حل المشكلات – Problem Solving، التي قد تشغلنا جميعاً في كل يوم . و أما التعريف الأكثر إحكاماً هو : إن بحث المشروعات يهدف إلى الإسهام في كل من الاهتمامات العملية للناس في موقف ينطوي على إشكالية مباشرة ، و أيضاً يعمل على تحقيق أهداف العلم الاجتماعي في نفس الوقت . وهكذا ، هناك التزام مزدوج في بحث المشروعات بدراسة النسق ،و المشاركة إلى جانب ذلك مع أعضاء النسق systemفي العمل على تغييره على نحو ينظر إليهما معًا باعتبارهما يسيرا في الاتجاه المرغوب فيه .وتطلب إنجاز هذا الهدف التوأم المشاركة الفعالة من جانب الباحث ، و المبحوثين ، و هكذا فالبحث يؤكد على اهمية التعلم بالمشاركة كسمة أولية تميز عملية بحث المشروعات .

التعريف الثاني: ويعد بحث المشروعات في تعريف آخر بمثابة أحد أشكال البحث الذى يعتمد على التأمل الذاتي Self-reflective ، ويقوم بإجرائه المشاركين في المواقف الاجتماعية و بما في ذلك مواقف التربية و التعليم ، من أجل تحسين مستوى المعقولية rationality والعدالة في :

- ممارساتهم الاجتماعية أو التعليمية الخاصة .

- وفهمهم لهذه الممارسات .
- و المواقف التي تجرى خلالها هذه الممارسات .

وفي معظم الاحوال يجد هذا النوع من البحث تدعيماً له عندما يضطلع به المشاركون على أساس من المشاركة . و أحياناً بالتعاون مع أعضاء من خارج الميدان .

التعريف الثالث: ويؤكد تعريف ثالث إن بحث المشروعات يسعى إلى فهم الواقع ، وهو فهم لا يقوم على جانب واحد يقتصر على فهم الباحث وحده ، وإنما يسعى فهم الواقع إلى الاستفادة من فهم المبحوثين أيضاً له ، وذلك من خلال التفاعل المتبادل بين الباحث و المبحوثين ، بنفس المعنى الذى كان يقصده باولو فيريرى ، عندما اكد على العملية التي لا يكون فيها المبحوثين مستقبلين متكيفين مع الباحث ، بل ذوات عارفة مدركه فتسعى عملية البحث السوسيولوجى (بحث المشروعات) إلى تعميق إدراكها للواقع ، الذى يشكل حياتها ، ويساعد على تعيين مقدراتها وإراداتهما لتحويل هذا الواقع و تطويره .

وليس هدف المشاركة في بحوث المشروعات ، ملاحظة المبحوثين للحصول على بيانات و معلومات حول سلوكهم ، وأفعالهم ،وقيمهم ، بل هدفها ان تكون مشاركة فعالة و فاعلة لملاحظة التغييرات ، بعد الإسهام مع المبحوثين في أحداثها ، وذلك ليس لرصدها وتقويمها فقط ؛ و إنما لمساعدة المبحوثين على إدراك ما إذا كانت تسير نحو تحقيق مصالحهم و إشباع حاجاتهم ام لا ، والتعاون معهم لتصحيح هذه التغييرات إذا كانت ستذهب بعيدا عن هذه المصالح ، أولا تحققها كلها أو بعضها .

وما يميز هذا النوع من البحث عن الممارسات المهنية العامة ، والاستشارة أو النصح consulting أو الحلول اليومية للمشكلات ، هو التأكيد على الدراسة العلمية : بمعنى أن يقوم الباحث بدراسة المشكلة على أساس منهجي منسق وضمان أن عملية التدخل intervention لحلها قد قامت على المعرفة بالاعتبارات النظرية المتاحة حول هذا النوع من المشكلات .

ومعظم وقت الباحث قد ينصرف نحو اعادة تنقية الأدوات المنهجية لكي تتلاءم مع متطلبات الموقف ، ومع جمع وتحليل وعرض البيانات وذلك على اساس دائري مستمر cyclical .

وهناك سمات اخرى عديدة تميز بحث المشروعات عن غيره من أنواع البحث الأخرى. فالأولوية في هذا البحث تشير الى تركيزه على دفع الناس الى الاندماج مع الباحثين ، وأيضا - حيث يتعلم الناس على نحو افضل وتتولد لديهم الإرادة على تنفيذ ما تم تعلمه ، عندما يقومون بعمل ذلك بأنفسهم . ولبحث المشروعات ايضا بعد اجتماعي – حيث تم إنجاز البحث في مواقف واقعية من العالم ، ويهدف الى حل مشكلات فعلية ، وفي النهاية ، فان الباحث المبادر على خلاف النظم الفكرية الاخرى ، لا يقوم بأي محاولة ليبقى موضوعيا ، وإنما يعترف صراحة بتحيزه الى جانب المشاركين الاخرين.

ويستخدم بحث المشروعات في المواقف الواقعية ، اكثر مما يطبق في الدراسات التجريبية أو المخططة ، طالما كان محور تركيزه الأول ينصب على حل مشاكل واقعية. وبالإمكان على أية حال ، استخدامه بمعرفة العلماء الاجتماعيين من أجل اجراء بحوث استطلاعية أو تمهيدية ، خاصة عندما يكون الموقف بالغ الغموض ، لبلورة مشكلة بحثية دقيقة ، ولو انه في معظم الاحوال ، وتمشيا مع مبادئ هذا النوع من البحوث (بحوث المشروعات) ، يختار عندما تتطلب الظروف قدرا من المرونة، وإدماج الناس في البحث ، أو ينبغي احداث تغيير سريع او على نطاق كلى . وغالبا ما يضم اولئك الذين يطبقون هذا المدخل في البحث ، فئة الممارسين الذين يرغبون في تحسين فهمهم لما يمارسونه من عمل ، أو نشطاء التغير الاجتماعي الذين يحاولون تنظيم حملات عمل وكذلك فئة الأكاديميين الذين تم دعوتهم من جانب احد التنظيمات وبناء على ادراك صناع القرار بأن هناك مشكلة تتطلب بحثا (بحث المشروعات) .

ولكنهم يفتقرون الى المعرفة المنهجية اللازمة للتعامل مع هذا النوع من البحوث . والخلاصة ، ان بحوث المشروعات تمثل عملية تعلم عن طريق العمل فيها يقوم البعض بتحديد مشكلة ما ، ثم يقومون بجهد من اجل حلها ، ثم يتأملون مدى نجاح جهودهم وتقييمها ، ويكررون جهدهم مرة اخرى اذا لم تكن الحلول مرضية . ويلتزم بحث المشروعات أولا

بدراسة النسق ، وثانيا بالمشاركة مع اعضاء النسق في العمل على تغييره في الاتجاه المرغوب فيه. ويعتمد بحث المشروعات على التأمل الذاتي الذى يقوم بإجرائه المشاركين في المواقف الاجتماعية من اجل تحسين مستوى معقوليتها ودرجة عدالتها . ويسعى بحث المشروعات الى فهم الواقع والاستفادة بفهم المبحوثين أيضا ، والتفاعل المتبادل بين الباحث والمبحوثين من أجل تحويل هذا الواقع وتطويره ، ويقوم على ضرورة دراسة المشكلة بطريقة علمية منهجية منسقة ، وضمان ان عملية التدخل لحلها بنيت على معرفة بالاعتبارات النظرية المتاحة حول هذا النوع من المشكلات .

والاولوية في هذا البحث تركيزه على دفع الناس للاندماج مع الباحثين لكى يتعلم الناس على نحو افضل وتتوافر لديهم ارادة التنفيذ، ويتم انجاز البحث في مواقف واقعية، ويهدف الى حل مشكلات فعلية .

ثانياً : تطور بحوث المشروعات:

أ - النماذج والتيارات الرئيسية

ب - الأسس النظرية :

يعتبر كيرت ليفين k.lewin عموما هو أب بحوث المشروعات ، فلقد كان عالم النفس التجريبي والاجتماعي الألماني هذا ، وباعتباره أحد مؤسسي مدرسة الجشطلت Gestalt، معنيا بالمشكلات الاجتماعية ، وركز اهتماماته على عمليات الجماعة المشاركة من اجل التعامل مع الصراع والأزمات والتغير في داخل التنظيمات بوجه عام . وكان يشارك اساسا في أعمال مركز ديناميات الجماعة في بوسطن ، ولكنه غير نشاطه وأنشأ معمله القومي للتدريب . وقد صك ليفين لأول مرة مصطلح بحوث المشروعات في مقالة عام١٩٤٦ حول بحوث المشروعات ومشكلات الأقليات Action research & minorirt problems ،.

وأخذ يميز بحوث المشروعات على انها بحوث شاملة حول ظروف ونتائج أشكال متباينة من الفعل الاجتماعي أو هو البحث الذى يؤدى بدوره إلى فعل اجتماعي Socail Action مستخدما عملية حلزونية الخطوات Sporal of steps .

وتتكون كل خطوة منها من دائرة للتخطيط والعمل ، والتوصل الى نتائج حول محصلة الفعل . وكان اريك تريست E.Trist ، مشاركا رئيسيا أخر في هذا الميدان منذ حقبة ما بعد الحرب مباشرة باعتباره طبيبا نفسيا اجتماعيا ، انشغلت مجموعته في معهد تافستوك Tavistock للعلاقات الإنسانية في لندن بالبحث الاجتماعي التطبيقي ، في الاصل لصالح إعادة اللاجئين المدنيين من سجناء الحرب الالمان . ومال هو وزملاؤه الى التركيز أكثر على المشكلات الضخمة التي تخص تنظيمات متعددة . وكلا من ليفين وترست طبق بحوثه على التغييرات المنسقة في التنظيمات وبينها وكانا يؤكدان على المشاركة المباشرة بين العاملين والعملاء. واثبتوا دور علاقات الجماعة كأساس لحل المشكلات . وكلاهما كان مؤيدا شديد لمبدأ أن القرارات يتم انجازها على نحو أفضل عن طريق أولئك الذين ساعدوا في اتخاذها.

أ- النماذج والتيارات الرئيسية

ولقد تطور هذا الميدان مع اواسط عام ١٩٧٠، وكشف عن بزوغ تيارات رئيسية ، بعضها تقليدي ، والاخر سياقي contextualوتعلم الفعل action learning ، والثالث راديكالي radical والرابع بحوث المشروعات التربوية educational .

وقد نشأت بحوث المشروعات التقليدية traditional عن جهود وأعمال (ليفين) داخل التنظيمات ، والتي اشتملت على مفهومات وأساليب نظرية المجال field theory ، وديناميات الجماعة ، وجماعات (ت) T- group، والنموذج الإكلينيكي . وأدت الاهمية المتزايدة للعلاقات بين الادارة والعمال الى تطبيق بحوث المشروعات في مجالات التنمية التنظيمية ، وجودة حياة العمل (QWL) والأنساق الفنية الاجتماعية (بمعنى اتساق المعلومات) والديمقراطية التنظيمية .

وكان هذا المدخل التقليدي يميل تجاه النزعة المحافظة ، أو المحافظة عموما على الوضع القائم statuesque ، مع الاخذ في الاعتبار أبنية القوة في التنظيم . أما بحوث المشروعات السياقية contextual ، والتي أحيانا ما تمت الإشارة إليها باعتبارها تعلم عن طريق الفعل ، فهو مدخل نشأ عن أعمال بناء العلاقات البنائية بين الفاعلين في البيئة الاجتماعية ، ويبنى على المجال domain، بمعنى انه يحاول ان يضع كل الاطراف المؤثرة مثل الأمناء والأوصياء باعتبار أن كل مشارك منهم يفهم العمل في جملته ، ويؤكد البحث أن المشاركين يعملون كمصممين للمشروع ، ومتعاونين في العمل مع الباحثين . وقد ظهر في هذا السياق مفهوم الإيكولوجيا التنظيمية organizational Ecology واستخدام مؤتمرات البحث search conferences ، وتأكد من خلال بحث المشروعات السياقي ، والذى يعكس فلسفة ليبرالية ، مصاحبة للتحول الاجتماعي الذى احدثته السياسات التي تدعو إلى الإصلاح التدريجي المعياري والقائم على الإجماع .

أما التيار الراديكالي ، الذى يضرب بجذوره في المادية الجدلية عن الماركسية والتوجهات نحو الممارسة Praxis orientations عند انتونيو جرامشى Gramsciفكان يركز بقوة على التحرير Emancipation والتغلب على صور عدم التوازن في القوة. وغالبا ما نجد بحوث المشروعات القائمة على المشاركة Participatory، في حركات التحرر ، ودوائر التنمية الدولية ، وتناضل بحوث المشروعات النسوية Femi-nist Action Research ، من أجل التحول الاجتماعي عن طريق عملية دفاعية ، لتعزيز الجماعات الهامشية في المجتمع ودعمها . وهناك تيار رابع ، عرف باسم بحوث المشروعات التربوية ، له جذوره في كتابات جون ديوي Dewey، الفيلسوف الأمريكي التربوي الكبير ما بين عامي ١٩٢٠ – ١٩٣٠ الذى كان يعتقد أن المعلمين النشطاء ينبغي عليهم أن يدمجوا أو يشاركوا في حل مشكلات المجتمع المحلى .

ولم يكن من المثير للدهشة ، أن يعمل المناصرين لهذا التيار أساساً على المؤسسات التربوية ، ويركزوا على تنمية وتطوير الخطط الدراسية ، والتنمية المهنية ، وتطبيق ما تعلموه في السياق الاجتماعي . وغالباً ما كان الباحثون القائمون ببحوث المشروعات يعتمدون على الجامعة ويعملون مع المدرسين في المدارس الثانوية والأساسية والطلاب في مشروعات تنجز في المجتمع المحلى .

ب- **<u>الأسس النظرية :</u>**

ظل النموذج القياسي Paradigm الأساسي للبحوث طوال القرون العيدية الماضية ، يرتبط بالوضعية المنطقية Logical Position . وقد أسس هذا النموذج على عدد من المبادئ ؛ يشمل ذلك ، الاعتقاد في أن هناك واقع موضوعي ، وأن المعرفة عنه يمكن اكتسابها فقط من خلال بيانات محسوسة يمكن توفير الخبرة بها والتحقق منها بين ملاحظين مستقلين ، وأن الظواهر تخضع لقوانين طبيعية ، التي يمكن للإنسان اكتشافها بوسيلة منطيقة من خلال الاختبار الإمبيريقى ، وبالاستعانة بالفروض الاستقرائية والاستنباطية المشتقة من قضايا النظرية العلمية . وتعتمد مناهجه بشدة على المقاييس الكمية ، مع الاهتمام بالعلاقات بين المتغيرات التي توضح على نحو شائع بواسطة أساليب رياضية . والوضعية التي استخدمها البحث العلمي و التطبيقي ، قد اعتبرها الكثيرون تتعارض مع مبادئ بحوث المشروعات .

وعبر النصف قرن الأخير ، بزغ نموذج قياسي جديد في البحث في العلوم الاجتماعية ، لتجاوز القيود والحدود التي كانت تفرضها الوضعية . ويمكن الإشارة إلى هذا النموذج على انه نموذج تفسيري Interpretive ، استناداً الى تأكيده على العلاقة بين تشكيل المفهوم استناداً الى الواقع الاجتماعي وبين اللغة . وهو نموذج يضم مداخل منهجية كيفية مثل الفينومينولوجيا ، والإثنوجرافيا ، والهرمنيوطيقا Hermeneutics ، ويتميز بالاعتقاد في أن الواقع يتم بناؤه من الناحية التصورية استنادا إلى السياق الاجتماعي ، وعلى نحو ذاتي ، وهو ذلك الواقع الذى يتأثر بالثقافة والتاريخ . إلا أنه لا يزال يبقى على مبادئ موضوعية الباحث ، على انه جامع سلبى ومفسر خبير للبيانات . ومع أن هناك عدداً من المنظورات تشارك مع النموذج القياسي التفسيري واستخدامه للمناهج الكيفية ذات الصلة ، إلا ان هناك بعض الباحثين الذين يشعرون أنه لا نموذج القياس التفسيري ولا نموذج القياس الوضعي يمثلون أبنية معرفية كافية يمك ان تدخل تحتها بحوث المشروعات .

وإنما بدلا من ذلك نظر الى نموذج القياسي المرتبط بالممارسة Paradigm of Praxis على انه ينطوي على الاطار الأساسي للصلات والروابط مع بحث المشروعات . والممارسة ، مصطلح استخدمه أرسطو Aristotle بمعنى العمل مع ظروف يواجها الإنسان لكى يقوم بتغييرها . وهي تتعامل مع النظم الفكرية والنشاطات السائدة في المجالات السياسية والأخلاقية التي يعايشها الناس . وكان أرسطو قد وضع الممارسة في مقابل التنظير Theory - بمعنى تلك العلوم والنشاطات المعنية بالمعرفة في ذاتها أو المعرفة من أجل المعرفة . وكان يعتقد أن الاثنين مطلوبين على درجة مساوية . أن المعرفة تشتق من الممارسة ، والممارسة تنمو من خلال المعرفة ، من خلال عملية مستمرة ، وهذا ما يمثل حجر الزاوية في بحث المشروعات . ويرفض الباحثون المهتمون بهذا النوع من البحوث فكرة حيادية الباحث ، ويفهمون أن الباحث الفعال في معظم الأحوال هو ذلك الباحث الذى يشدد على الاهتمام بحل المواقف التي تنطوي على إشكالية .

ثالثاً : الإجراءات المنهجية في تصميم بحوث المشروعات

تمثل بحوث المشروعات ميداناً متجدداً في البحث ، ومن خصائصه المميزة ، الاعتراف بالمتطلبات العملية من جانب الممارسين بضرورة وجود بحث يقوم على التأمل في المواقف التي يعملون فيها (تعليمي – تنظيمي – تنمية ....الخ) . وتعد بحوث المشروعات بمثابة عملية صحيحة لتمكين كل المشاركين في هذا الموقف ، ومدهم بالوسائل التي تعمل على تحسين ممارساتهم في الواقع . ولذلك ، فإن كل المشاركين يعدون بمثابة أعضاء فعالين وعلى معرفة بعملية البحث . وقد وصفت بحوث المشروعات بأنها نموذج غير رسمي ، وكيفي ، وذاتي ، وتفسيري ، وتأملي ، ويقوم على الخبرة experiential ، والذى فيه يعد كل الأفراد المندمجين في الدارسة بمثابة مشاركين فاعلين وعارفين لأهميته . وهناك عددا من النماذج المتاحة في التراث ، معظمها يعتبر بحوث المشروعات بمثابة عمليات لا تسير في خط واحد ، وتستند إلى الاعتقاد بأنه لا يمكن التنبؤ بسلوكيات الناس ، وأن افعالهم غالبا ما لا تتدفق في مسار مستقيم .

ولذلك فإن خطة العمل تأخذ شكل الدائرة ، التي تبدأ بالتعرف على مجال التطبيق الذى يجرى عليه البحث ، ثم تخيل الحل ، ثم تقييم الحل ، وبعد ذلك إحداث التغيير في ضوء التقويم وأن هذه الدائرة لبحث المشروعات ، يمكن أن تتكرر الى دوائر جديدة في هذا البحث ، كلما برزت هناك مجالات جديدة للبحث . ولذلك من الممكن تصور سلسلة من الحلقات لبيان عمليات تطوير التطبيق . ويمكن أن تتضح هذه العمليات على هيئة حلزون من الدوائر ، حيث فيه تشكل قضية ما الاساس لأخرى ، وكلما تمت الإجابة على سؤال ، يتولد أسئلة أخرى .

وكان إليوت Elliott (١٩٩٣) قد اعتبر أن اسس عملية تصميم بحوث المشروعات تتجسد في مجرد الدائرة المميزة التالية :

- في الاصل هناك موقف استكشافي يتم تبنيه ، حيث تجرى بلورة وفهم المشكلة ، وتوضع خطط في شكل استراتيجية للتدخل (الاستكشاف والخطة العامة Reconnaissance)
- وعندئذ يتم تنفيذ التدخل (المشروع في البحث).
- وخلال وقت حدوث التدخل ، يتم جمع ملاحظات وثيقة الصلة بالموضوع بأشكال مختلفة (رصد وإنجاز بواسطة الملاحظة)
- ثم تنفيذ استراتيجيات التدخل الجديدة ، وتكرر العملية الدائرية حتى يتم تحقيق فهم كافٍ للمشكلة (أو انجاز حل ممكن) (التأمل والمراجعة Reflection and Revision)

وهذا التصميم دائري في طبيعته ، قصد فيه دعم الفهم العميق للموقف المدروس ، ويبدأ بصياغة تصويرية وتحديدا للمشكلة ، وينتقل خلال عمليات تدخل عديدة ، وعمليات تقويم .

وكان كيمس S.Kemmis (١٩٨٥) قد قدم نموذجاً بسيطاً لبحث المشروعات يعكس الطبيعة الدائرية للعملية النموذجية في بحوث المشروعات حيث تشتمل كل دائرة على أربع خطوات ؛ الخطة ، العمل ، الملاحظة ، التأمل . واستطاع أن يعبر عن ذلك التصميم في الشكل الهندسي التالي :

الدائرة الأولى :

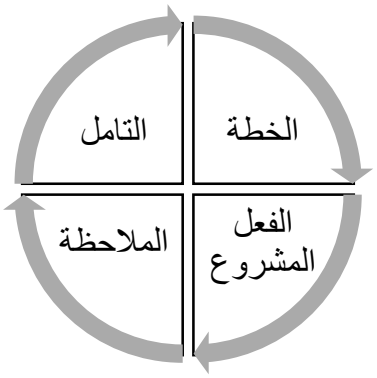

الدائرة الثانية :

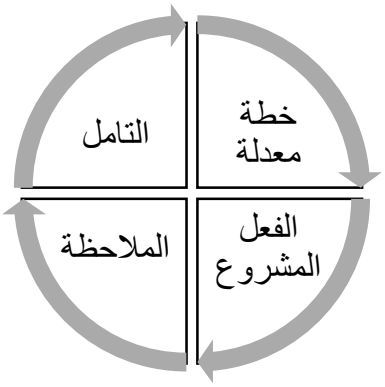

وكان سوسمان G.Susman قبل ذلك (١٩٨٣) قد قدم قائمة أكثر تطورا في بعض الشيء . وتمكن من التمييز بين خمسة خطوات يمكن تنفيذها في داخل كل دائرة في البحث . ففي الأصل والبداية ، يتم التعرف على المشكلة وتجمع البيانات ، بهدف المزيد من التشخيص الدقيق . ويلى ذلك ، افتراض جماعي بالحلول العديدة الممكنة ، والتي قد ينشأ عنها خطة العمل ويتم إنجازها . ويتم جمع بيانات حول نتائج التدخل ، ثم تخضع للتحليل وتفسر النتائج في ضوء مقدار النجاح الذى تحقق للمشروع وعند هذه النقطة ، يتم اعادة تقدير المشكلة ، وتبدأ عملية الدخول في دائرة أخري ، وتستمر هذه العملية إلى أن يتم حل المشكلة وهذا ما يوضحه الشكل التالي :

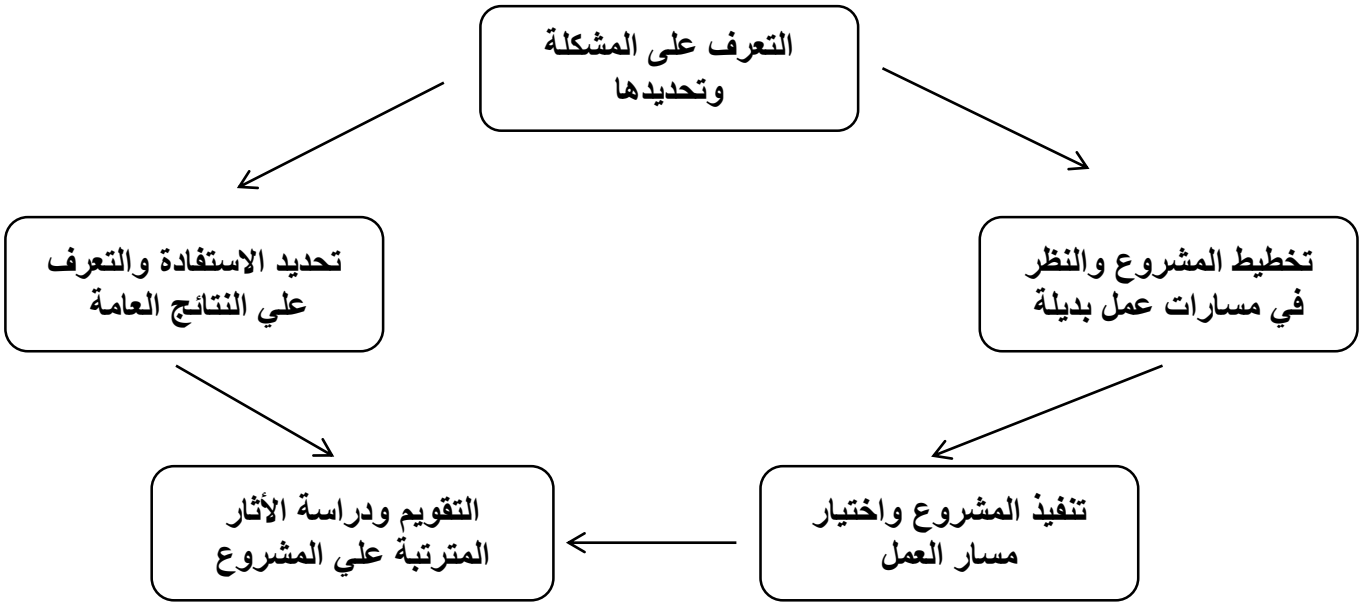

وهكذا يتضح لنا أن هناك عدة خطوات ، أو مراحل ، أو إجراءات لابد منها عند التفكير في وضع تصميم منهجي لبحوث المشروعات هي :

أ - التعرف على القضية المثيرة للجدل من خلال تشخيصها وتحديدها .

ب - تخيل الحل الممكن ، بناء على مشاركة كل المساهمين في البحث .

ج - تجريب الحل في الواقع باستخدام وسائل التدخل المتاحة .

د - تقييم الآثار المترتبة على هذا الحل ، ورصد الإيجابيات والسلبيات .

هـ - إدخال التغيرات على الموقف المدروس في ضوء ما يسفر عنه التقييم في كل حلقة من حلقات بحوث المشروعات .

وتطل هنا مجموعة من التساؤلات التي تحتاج الى إجابة لأهميتها في تصور التصميم المنهجي لبحوث المشروعات ، لعل من أهمها ما هو دور الباحث ؟ وما الأدوات والطرق التي يمكن الاعتماد عليها في بحوث المشروعات ؟ وما المبادئ التي تحكم تصميم هذا النوع من البحوث ؟ وهل هناك اعتبارات أخلاقية علينا مراعاتها ؟

أ- دور الباحث في بحوث المشروعات : بناء على دعوة باحث من خارج المجال ، فإن مهمة هذا الباحث تتمثل في إنجاز تصميم بحث المشروعات بالطريقة التي تعمل على التوصل إلى نتيجة يمكن الاتفاق عليها بالتبادل من جانب كل المشاركين ، مع الحفاظ على استمرار العمل معهم في هذا الاتجاه . ولتحقيق ذلك ، قد يكون من الضروري تبنى مجموعة أدوار متباينة على مختلف المراحل التي تمر بها عملية البحث وتشمل (القائد المخطط ، والمحفز والميسر ، والمعلم والمصمم ، والمنصت ، والملاحظ ، والمؤلف ، وكاتب التقرير) .

وإن كان الدور الأساسي بطبيعة الحال ، هو تعبئة القادة المحليين إلى النقطة التي يمكن لهم تحمل مسؤوليتهم من أجل تحقيق أهداف البحث ويتم التوصل إلى هذه النقطة عندما يكونوا قد استوعبوا المناهج وأصبحوا قادرين عللي تنفيذها ، في اللحظة التي يغادر فيها الباحث المبادر موقف ومجال البحث . إن دور الباحث الذى يتم الاستعانة به في الكثير من مواقف بحوث المشروعات في الأصل هو أن يتاح له الوقت الكافي لتسهيل الحوار ودعم التحليل التأملي والذى يشغل تفكير واهتمام المشاركين ، ومدهم بالتقارير الدورية ، وكتابة التقرير النهائي ، عندما يكون وقت مشاركته في البحث قد انتهي .

ب – الأدوات والطرق المستخدمة في بحوث المشروعات : إن بحوث المشروعات أكثر من مجرد مدخل كلى في البحث عن حل للمشكلات ، ولا يعتمد على منهج واحد في جمع وتحليل البيانات . وهكذا ، فإنه يسمح بالاستعانة بالعديد من أدوات البحث المتباينة ويستخدمها في تنفيذ المشروع وتشمل هذه المجموعة المتباينة من المناهج ، والتي يشيع استخدامها عموما في نموذج القياسي للبحث الكيفي ، الاستمرار في مسح التراث والدراسات السابقة في الدوريات العلمية ، وجمع الوثائق وتحليلها ، وتسجيلات الملاحظة بالمشاركة ، والمسوح التي تعتمد على الاستبيان ، والمقابلات المقننة وغير المقننة ، ودراسات الحالة . إذ يحتاج التعرف على القضية موضع الخلاف ، والمشكلة التي تحتاج إلى حل في موقف من مواقف الحياة اليومية ، وتتطلب إجراء بحث مشروعات ، ضرورة تقديم شخص دقيق لها وتحديد أهداف دراستها ، وربما كان الاعتماد على مسح التراث ، وجمع الوثائق وتحليلها من بين الأدوات المستخدمة في هذه المرحلة من بحوث المشروعات .

ويحتاج تخيل الحل الممكن بناء على مشاركة كل المساهمين ، الاستعانة حصريا بأسلوب مؤتمر البحث Search Conference ، الذى تبلور كأداة يمكن أن تفيد منها بحوث المشروعات ؛ لأنه يتلاءم مع الكثير من احتياجاته ، وما سنوضحه بالتفصيل فيما بعد . ويتطلب تجريب الحل الذى انتهي إليه مؤتمر البحث ، استخدام وسائل التدخل المتاحة ، كخطوة أخرى من خطوات تصميم بحوث المشروعات ، والتي تتمثل في وضع خطة عمل ، أو تنفيذ استراتيجية ، أو برنامج محدد انتهي فريق البحث إلى اعتباره حلاً ممكنا لمشكلة البحث . ولتقييم الآثار المترتبة على هذا الحل ، ورصد الإيجابيات والسلبيات تمهيدا لإدخال تعديلات جديدة على الحل المقترح في البداية ، ربما افادت أدوات وطرق في البحث ، مثل (الملاحظات بالمشاركة ، والمسوح ، والاستبيانات ، والمقابلات المقننة وغير المقننة ، ودراسات الحالة في هذا الصدد) . ويتطلب إدخال التعديلات على الموقف المدروس ، والتي أسفر عنها جهد التقييم في المرحلة السابقة من مراحل بحوث المشروعات ، الاستعانة بأسلوب مؤتمر البحث مرة أخرى وهكذا .

ج – مؤتمر البحث كأداة أساسية في بحوث المشروعات : وبين أدوات البحث التي يستعين بها القائمون ببحوث المشروعات ، يمكن أن نتوقف عندما يعرف باسم مؤتمر البحث كأداة تم تطويرها حصريا لتناسب الاحتياجات التي يفرضها مدخل بحوث المشروعات ، والذى أضافه في الأصل كل من ترست إمرى E.Trist & F.Emery ومعهد تافستوك في عام ١٩٥٩ . وهذه الصيغة لمؤتمر البحث قد طرأ عليها تطورات كثيرة ، وأصبح معروفا تحت مسميات أخرى بين الأكاديميين والتنفيذيين ، مثل إعادة تصميم نموذج المؤتمر عند أكسلرود Axelrod ، والمجال المفتوح Open Space عند أوين Owen ، والتخطيط الاستراتيجي Strategic Planning (رودا Randa) ١٩٩٥ .

ويلخص ترست عملية مؤتمر البحث بأسلوب لطيف ، إنها تجرى في جماعات والتي تشمل على مجموعة الأمناء ذوي الصلة . وتلتقى الجماعة في ظروف اجتماعية معزولة لمدة (٢-٣) أيام وقد تصل أحيانا إلى (٥) أيام .

وتركز الجلسات المفتوحة على توضيح العوامل التي لها تأثيرها في سياق البيئة الأوسع ، تلك التي تحدث ما وراء المشكلات ، والتي يحتمل أن يكون لها تأثيرها في المستقبل . ويقوم محتوى ومضمون الجلسات على الاسهامات التي يقدمها الأعضاء . بينما تظل هيئة البحث تلعب دور الميسر للعمل . وتوضع قائمة بنود اللقاء للمرة الأولى بدون انعقاد في جلسة الانعقاد ، وتعرض في صورة خرائط متحركة تحيط بالغرفة . وتتم مناقشة هذه المادة بدرجة كبيرة من العمق في الجماعات الصغيرة ، أما الصيغة التي يتم التوصل اليها تراجع في جلسات الانعقاد . ثم تعود الجماعة بفحص ومراجعة موقفها التنظيمي في مقابل هذه الخلفية الأوسع ، ثم تشرع في بناء صورة عن المستقبل المرغوب فيه . والمدهش ذلك القدر من الاتفاق الذى يحدث بعد ذلك . وفي هذه اللحظة ، يمكن للمشروع أن يخطو خطوات أخرى . ويقدم الجدول التالي إطارا لمؤتمر البحث النموذجي :

مرحلة ما قبل المؤتمر	• تكوين جماعة استشارية من الممثلين المحليين . • الموافقة على تصميم المشروع والمشاركين . • استخدام جماعة بؤرية تتولى مهمة الإعداد . • الدعوات ، وتوزيع المواد التمهيدية .
الجلسة التمهيدية	• مقدمات ، استعراض الأهداف ، وصف معالم العمل ، عرض وتقديم المرحلة الأولى .
اجتماع الجماعة الصغيرة (١)	• فحص القضية . • في السياق الماضي والحاضر . • تقدير الموقف الحالي . • توضيح معالم المستقبلات المحتملة .
جلسة عرض	• التقارير التي أعدتها الجماعات الصغيرة ، واتجاهات المناقشة ، وتقديم المرحلة الثانية .

اجتماعات الجماعة الصغيرة (٢)	• المستقبلات المرغوب فيها . • رؤى المدى الطويل. • مستقبلات بديلة ومنفصلة .
جلسة عرض	• التقارير ، وتتبع التقدم ، وتقديم المرحلة الثالثة .
اجتماعات الجماعة الصغيرة (٣)	• خيارات من أجل التغيير . • القيود والفرص . • مستقبلات ممكنة .
جلسة عرض	التقارير وتحديد المهام الاستراتيجية والأعمال ، واختيار المهام الأساسية ، وتشكيل جماعات العمل .
جلسات جماعة العمل	• اجتماعات جماعة العمل Task .

جلسة نهائية	• تقارير جماعة العمل ، مناقشة الاتصالات المستقبلية ، وتكوين جماعة استشارية جديدة .
مرحلة ما بعد المؤتمر	• توزيع التقرير . • متابعة الاتصالات . • تيسيرات الجماعة الاستشارية - مقابلات جماعات العمل . • العائد من الاستجابات على الأعمال المقترحة . • مؤتمرات بحث أخرى . • توسيع الشبكة . • الاستمرار في تقييم النتائج .

وهذا الشكل يوضح بالتفصيل البرنامج الذى يجرى تنفيذه في هذا المؤتمر والجماعات التي يتكون منها ، الجماعة الاستشارية و أعضاؤها يمثلون المجتمع المحلى ، والجماعة البؤرية المسؤولة عن الإعداد للمؤتمر والجماعات الصغيرة التي ينقسم اليها المشاركون في المؤتمر .....الخ وجلسات المؤتمر ، والجلسة النهائية ، وما يسبق المؤتمر من مراحل إعداد ، ومراحل لبعد المؤتمر . وتفاصيل مهام كل جماعة ، والجلسة ، والاجتماع ، والواجبات المطلوبة .

د- مبادئ إرشادية واعتبارات أخلاقية لبحوث المشروعات : وتعمل هذه المبادئ على إعطاء طعم فريد لبحوث المشروعات ؛ وهي عبارة عن مجموعة من المبادئ التي توجه وترشد البحث ، لخصها ونتر Winter في ستة مبادئ أساسية (١٩٨٩)

المبدأ الأول : النقد التأملي Reflexive Critique وهو عبارة عن تقرير عن الموقف ،في شكل مذكرات ونصوص ووثائق رسمية ، وما سوف يجعل الادعاءات الضمنية جديرة بالقبول ، وواقعية وحقيقية . لأن الحقيقة في الموقف الاجتماعي ، نسبية بالنظر إلى قائلها . ويجعلنا مبدأ النقد التأملي نضمن أن يفكر ويتأمل الناس في القضايا والعمليات ، ويعمل على جعل التفسيرات واضحة وكذلك التحيزات والافتراضات والاهتمامات التي تبنى عليها الأحكام . وبهذه الطريقة فإن التقارير العملية ، يمكن أن تثير الاعتبارات النظرية .

والمبدأ الثاني : النقد الجدلي Dialectical Critique ؛ إن الواقع الاجتماعي على وجه الخصوص يكتسب مصداقيته على نحو اتفاقي ، والذى يقال عنه ، إنه عبارة عن المشاركة من خلال اللغة . والظواهر تتم صياغتها تصوريا في أثناء الحوار ، لذلك فإن النقد الجدلي مطلوبا لفهم مجموعة العلاقات بين كل من الظاهرة وسياقها ، وبين العناصر المكونة لهذه الظاهرة ، وتركيز الانتباه على العناصر الاساسية أو على تلك العناصر المتغيرة ، أو التي تتعارض مع بعضها الآخر . لأنها هي العناصر التي يحتمل أكثر أن تحدث التغيرات ،

والمبدأ الثالث : المورد التعاوني collaborative لأن المشاركين في بحوث المشروعات هم مشاركون ومتعاونون مع الباحثين . ويفترض مبدأ المورد التعاوني أن أفكار كل مشارك لها قيمة متساوية كموارد كافية من أجل ابتكار فئات تفسيرية للتحليل والتفاوض بين المشاركين .

وهو مبدأ يناضل من أجل تجنب تشويه المصداقية الناشئ عن المكانة الأفضل لصاحب الفكرة . وهو يعمل خاصة على إمكان أن تكون الاستبصارات واضحة وجلية من خلال الإشارة إلى التناقضات بين الكثير من وجهات النظر وفي داخل كل وجهة نظر واحدة .

أما المبدأ الرابع فهو يتعلق بالمخاطرة Risk لأن عملية التغير تهدد بالضرورة كل الأساليب التي تكونت سابقا في القيام بالأعمال ؛ وهكذا تنشأ مخاوف نفسية بين المشاركين . ويأتي واحد من أكثر المخاوف ظهروا عن الخطر كف الذات عن المناقشة الصريحة لتفسيرات المرء وأفكاره وأحكامه . وسف يستخدم المبادرون ببحث المشروعات هذا المبدأ في تهدئة

مخاوف الآخرين والدعوة إلى المشاركة من خلال الإشارة إلى أنهم سوف يتعرضون أيضا لنفس العملية ، وأن العملية ستتم ، مهما كانت النتيجة .

والمبدأ الخامس ، هو البناء الجمعي Plural Structure لأن طبيعة البحث تجسد تعدد وجهات النظر ، والانتقادات ، والتعليقات ، التي تؤدى إلى أفعال جماعية ممكنة وتفسيرات هذا البناء الجمعي للبحث يتطلب نصا جمعيا لوضع تقرير عنه ؛ وهذا يعنى أنه سوف يوجد هناك تقارير كثيرة ، تعمل على وضوح التعليقات على التناقضات ، وتوسيع نطاق الآراء حول العمل المقدم ؛ ولذلك فإن التقرير يعمل على دعم استمرار المناقشة بين المشاركين أكثر من اعتباره نتيجة نهائية حول العمل . ويتمثل

المبدأ السادس والأخير ، حول التحول بين النظرية والممارسة Theory , Practice ,Transformation. فالنظرية فيما يرى القائمون ببحوث المشروعات ، تمد التطبيق بالمعرفة ، وتعمل الممارسة على تنقيح النظرية ، وذلك من خلال عملية تحول مستمرة . وفي أي موقع ، تبنى أفعال الناس على مسلمات ضمنية ، ونظريات وفروض ، ومع كل نتيجة تمت ملاحظتها ،

يحدث تعزيز للمعرفة النظرية والجانبان يتداخلان في كل عملية تغير وحيدة . وأنه يترك للباحثين أمر التعبير صراحة عن المبررات النظرية لأفعالهم ومشروعاتهم Actions ، والتساؤل عن الأسس التي تقوم عليها هذه المبررات .
وتخضع التطبيقات العملية التي ترتب على ذلك لمزيد من التحليل ، في دائرة تحولية ، تعمل باستمرار على تبديل محور التركيز بين النظرية والممارسة . وإلى جانب تلك المبادئ الموجهة لبحوث المشروعات ، هناك مجموعة من الاعتبارات الأخلاقية ، في إجراء هذا النوع من العمل ، ينبغي على الباحثين إعطائها اهتماما كبيرا ، وذلك لأن بحوث المشروعات تنفذ في ظروف العالم الواقعي ، وتشتمل على عمليات اتصال مغلقة ومفتوحة بين الناس المشاركين فيها .

وقد وضع وينتر Winter(١٩٩٦) قائمة بهذه الاعتبارات :

- التأكد من أن الأشخاص ذوى الصلة ، والمجالس والسلطات قد تم استشارتهم ، وأنهم جميعا قبلوا مقدما ووافقوا على المبادئ الموجهة لهذا العمل .
- ضرورة السماح لكل المشاركين ، للتأثير في هذا العمل ، واحترام رغبات اولئك الذين لا يريدون المشاركة .
- وضرورة أن يظل تطوير العمل متاحا أمام مقترحات الآخرين .
- ضرورة الحصول على الموافقة قبل القيام بالملاحظة أو فحص المستندات التي كانت مخصصة لأغراض أخر
- ضرورة التفاوض على التقارير عن أعمال وآراء الآخرين ، ومع من يهمهم الأمر قبل نشرها .
- ينبغي على الباحثين أن يقبلوا مسؤولية المحافظة على السرية .

رابعاً : تنفيذ بحوث المشروعات

يتوافر في التراث العديد من الأمثلة على جهود سابقة نفذت مشروعات ، ولكى نوضح بشكل أفضل كيف يمكن إجراء بحوث المشروعات ، سنعرض هنا بعض الدراسات السابقة والمتاحة في التراث .

١- بحوث المشروعات والوقاية من الإدمان : في دراسة الحالة المشار اليها هنا ، تم استخدام بحوث المشروعات في مجال الوقاية من الإدمان ، باعتباره مدخلاً يركز على دور تنمية المجتمع والاندماج فيه ، لأن الوقاية من الإدمان ربما تكون أكثر عناية بقضايا أوسع ترتبط بنوعية وجوده الحياة . وما يعتبره السكان أكثر أهمية سوف يؤثر على تقليل الطلب على استخدام المخدرات ، ولتحقيق هذه الأهداف تم الاستعانة ببحوث المشروعات والتدخل لتعبئة المجتمع المحلى للحد من انتشار المخدرات والتدهور الاقتصادي والاجتماعي في هذا المجتمع .

وعملت الهيئة المكلفة بهذا البحث على ابتكار استراتيجية للوقاية من الإدمان يديرها المجتمع المحلى ، وتعمل على استشارة المجتمع المحلى حول اساءة استخدام المخدرات ، فضلا عن تنمية وعيهم حول ما ينبغي أن تشتمل عليه عملية الوقاية من الإدمان ، وتشجيعهم على الاندماج في المشروع والتأثير على صناع السياسة من أجل إحداث التغير المناسب

. وتعددت الطرق والمناهج المستخدمة في البحث بين المقابلات الجماعية والفردية المتعمقة ، فضلا عن صحائف الأنباء ، لعرض النتائج الأولية ، ليقوم السكان بالتعليق عليها والتقدم بمقترحات جديدة على المشروع . وقد بنى البحث على افتراض مضمونه أنه طالما أن كل الشركاء ، ابتداءً من الهيئة المكلفة بالبحث والسكان المقيمين والمنظمات المحلية ، لها مصالحها المشتركة وهدفها العام ، فإنه يمكن أن يتقدم مشروع البحث بناء على هذا الإجماع العام .

ولقد نجح البحث بدرجة كبيرة في استثارة آراء السكان حول المخدرات والوقاية منها ، وتنبيه وعيهم ، وسلط الضوء على التوترات التي ظهرت بين المجتمع المحلى وهيئة التجديد الحضري المحلية التي كانت مسؤولة عن تمويل البحث . وذلك نتيجة للانتقادات الشديدة التي كان يوجهها السكان للمداخل التي تم تبنيها من جانب هيئة الإصلاح التي يقودها رجال الأعمال في المجتمع المحلى ، ورغم أن البحث نجح في بلورة خطة عمل من أجل الوقاية وتكوين منتدى للوقاية من الإدمان يضم السكان وممثلي بعض الهيئات ، إلا ان هيئة الإصلاح وقفت موقف المعارض لهيئة البحث ، وللباحث الرئيسي ، ولوجهات نظر السكان ، وأوقفت تمويلها لمشروع البحث ولكن السكان عبروا عن رغبتهم في الاستمرار والمشاركة في نشاطات المنتدى والمشروع .

٢- تنمية السياحة الطبيعية في جزر ويوارد : Development of Nature Tourism in the Windard Islands

في عام ١٩٩١ ، تمت المبادرة بإجراء بحث للمشروعات للكشف عن الكيفية التي يمكن بها تأسيس سياحة طبيعية على كل من جزر وينوار الأربعة في الكاريبي Caribbean جزيرة سانت لوسيا St.Lucia ، وجزيرة Grenada ، وجزيرة Dominica ، وجزيرة سانت فنست St.Vincent . وقادت الحكومة هذا العمل ، من أجل الحفاظ على البيئة ، وتحقيق التنمية بمشاركة المجتمع المحلى ، وتحقيق أهداف التنمية على مستوى الاقتصاد القومي . وللتحقق من أن عملية الاستشارة ينبغي أن تضم الكثير من الأمناء ، بما في ذلك ممثلين للوزارات العديدة في الحكومة ، والجماعات المهتمة بالبيئة والموروث الثقافي ، وتنظيمات المجتمع المحلى ، وجماعات الشباب والنساء ، وتعاونيات المزارعين ، وهيئات العمل الخاصة .

اعتبر مدخل بحوث المشروعات هو الأنسب في هذه الظروف . ودعي للإشراف على هذا البحث اثنين من الباحثين ذوى الخبرة في بحوث المشروعات من جامعة يورك في تورنتو Toronto ، ولهم خبرة سابقة في المنطقة (جزر وينوارد) ، وتم التعاقد معهم لإنجاز هذا المشروع ، وكان أغلب التمويل قد توافر عن الهيئة الكندية للتنمية الدولية ، وشكلت مجالس للاستشارة من أمناء عديدين على مستوى قومي ، وتم اختيار المنسقين للمشروع على المستوى القومي ، من خلال منح محلية للمشروع . وكانت مهمتهم الأساسية الأولى هي تنظيم (مؤتمر بحث) في كل جزيرة . وبعد عقد المؤتمرات البحثية ، ظهر لها نتائج كان من بينها مجموعة توصيات ، وخطط عمل لتنفيذ عدد من المشروعات الفرعية المهتمة بالسياحة الطبيعية ، على مستوى المجتمع المحلى . وفي هذه اللحظة ، تم تشكيل جماعات استشارية ، في عديد من الجزر ، كما تم إنجاز نشاطات لتنمية الوعى القومي ومشروعات فرعية في بعض المجتمعات المحلية .

ولاستمرار العمل ، تم عقد لقاءات لأقاليم المشروع ، حيث يتمكن المنسقون للمشروع وأعضاء الجماعة الاستشارية الأساسية تقاسم الخبرات ، وإجراء تقويمات ذاتية ، وبلورة خطط للمحافظة على سير العمل . (مثل زيادة التمويل) . وكان من بين الأدوات الأكثر قيمة لبناء الإحساس بالمجتمع المحلى ، استخدام (كاميرا فيديو) لتوثيق ما يجرى في المشروع المحلى بالصور . ولقد جاءت النتائج متباينة ؛ ففي جزيرة سانت فنست St.Vincent حقق مشروع البحث درجة عالية من النجاح مع إدخال تطورات محلية عديدة لها قيمتها . وظهر في جزر جرينادا Grenada وسانت لوسيا St.Lucia نتائج مختلطة ، وكانت جزيرة دومينسكا Dominica أقل نجاحا ، وقامت الحكومة باختصار العمل بعد عقد مؤتمر البحث مباشرة . وكانت الاختلافات الأساسية في النتائج ، متمثلة في رغبة موظفي الحكومة في السماح بأن يتمكن كل المشاركين من المساهمة في ضبط العمل بالتعاون .

وكان هناك أيضا خطر بأن هذا النوع من البحث سوف يمكن الأمناء ويقوى سلطتهم ، ويحدث تغيرا في علاقات القوة القائمة ، ذلك التهديد الذى كان يعانى منه كثيرا بعض صناع القرار ، ولكن ظهر أشياء كثيرة منها أن الجماعة المشاركة من المواطنين تمكنت من إنجاز ما كان يصعب عليها تحقيقه بغير ذلك ، لأنه قد أعطيت لهم الفرصة .

أسئلة المحاضرة التاسعة

س١/ (لا تعتمد بحوث المشروعات على منهج واحد في جمع وتحليل البيانات) تحدثي / تحدث بالتفصيل عن الأدوات والطرق المستخدمة في بحوث المشروعات